المركز القومى للترجمة

أندرو هويتكروفت

الكفار

تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام

2072

ترجمة: قاسم عبده قاسم

هذا الكتاب يناقش قضية مهمة تتعلق بموضوع الساعة فى الثقافة الغربية عموما، وتتصل بمشكلة علاقة العالم المسلم بالغرب الأوربى والأمريكى بصفة عامة. ويكشف الكتاب عن سعة علم المؤلف بالموضوعات الكثيرة التى ناقشها الكتاب عبر مسافة زمنية هائلة تمتد من العصور الوسطى حتى الوقت الراهن. ومن ناحية أخرى، جمع المؤلف بين القراءة فى النصوص، والرحلة، والمشاهدة، ولذلك تنوعت مصادره واكتسبت حيوية أضفت على صفحات الكتاب جاذبية لا تقاوم، كما أن لغته تتميز بالرقة الأدبية والقدرة «التصويرية». الكتاب يتناول فى فصوله الأربعة عشر، مسائل الفتوح الإسلامية المبكرة، ثم ما جرى فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية الوجود السياسى للمسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا، مصورا فظاعة التعصب الكاثوليكى، وبشاعة رجال الدين ومحاكم التفتيش، وكيفية رسم صورة «للآخر» تبرر هذه البشاعة وتناسبها .

هذا الكتاب يغطى مساحة شاسعة، فى الزمان والمكان على السواء، فهو يبدأ فى القرن السابع الميلادي، ويمتد إلى القرن الحادي والعشرين. وحدوده جنوب الجزائر، وفيينا فى الشمال والمحيط الأطلنطي غربا، وبحر العرب والمحيط الهندي فى الشرق. ويخرج أحيانا عن تلك الحدود، ولكن مركزه عالم البحر المتوسط.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح

http://al-maktabeh.com

الكفـــار
تاريـخ الصـراع بين عالـم المسيحيـة وعالـم الإسـلام

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2072
- الكفار: تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام
- أندرو هويتكروفت
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

Infidels
A History of the conflict between Christendom and Islam
By: ANDREW WHEATCROFT
Copyright © Andrew Wheatcroft, 2003, 2004
First Published in Great Britain in the English Language
by Penguin Books Ltd
Arabic Translation © 2013, National Center for Translation
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

الكفار

تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام

تأليف : أندرو هويتكروفت
ترجمة : قاسم عبده قاسم

2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هوتيكروفت، أندرو.
الكفار: تاريخ الصراع بين عالم المسيحية وعالم الإسلام.
تأليف: أندرو هوتيكروفت، ترجمة قاسم عبده قاسم
ط١، القاهرة - المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٦٣٦ ص، ٢٤ سم
١ - الاسلام والمسيحية
(أ) قاسم ، قاسم عبده (مترجم)
(ب) العنوان ٢١٤,٢٧

رقم الإيداع ١١٧٦٥ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى 978-977-216-163-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المترجم 9
إهـداء 11
شكر وعرفان 15
ملاحظة تحريرية 23
الخرائط 25
مقدمة 33
الجزء الأول:
١- «نحمدك أيها الرب» ليانتو ١٥١٧م 43
٢- الاتصال الأول 97
الجزء الثاني:
٣- الأندلس 135
٤- «جوهرة الدنيا» 177
٥- إسبانيا الخالدة 223
٦- «الأعشاب الضارة» 251
الجزء الثالث:
٧- إلى الأرض المقدسة 287
٨- الغزو والاسترداد 335
الجزء الرابع:
٩- أشباح البلقان؟ 375
١٠- تعلم الكراهية 401
١١- «خط عريض من الدماء» 433

الجزء الخامس:
١٢- «المعمم وحامل السيف الأحدب» 463
١٣- الفن الأسود 491
الجزء السادس:
١٤- المذمة والسباب (عوالم من الكراهية) 527
الخاتمة : الملائكة الأفضل فى طبيعتنا 577
هوامش على النص 601
مصادر ومراجع مختارة 603

تقديم المترجم

هذا الكتاب يناقش قضية مهمة تتعلق بموضوع الساعة فى الثقافة الغربية عموما، وتتصل بمشكلة علاقة العالم المسلم بالغرب الأوربى والأمريكى بصفة عامة. ويكشف الكتاب عن سعة علم المؤلف بالموضوعات الكثيرة التى ناقشها الكتاب عبر مسافة زمنية هائلة تمتد من العصور الوسطى حتى الوقت الراهن. ومن ناحية أخرى، جمع المؤلف بين القراءة فى النصوص، والرحلة، والمشاهدة، ولذلك تنوعت مصادره واكتسبت حيوية أضفت على صفحات الكتاب جاذبية لا تقاوم، كما أن لغته تتميز بالرقة الأدبية والقدرة «التصويرية» .

لقد ناقش الكتاب مشكلة «الآخر» من خلال أربعة عشر فصلاً. وبدأ من معركة انتصر فيها أسطول الغرب مجتمعًا على الأسطول العثمانى فى ليبانتو سنة ١٥١٧م وهو ما يكشف عن أمرين غاية فى الأهمية بالنسبة للمنهج الذى اتبعه المؤلف فى هذا الكتاب الذى يتناول تاريخ الصراع بين عالم الإسلام وعالم المسيحية:

أولهما: أن المؤلف لم يحبس نفسه فى إطار التتابع الزمنى الكرونولوچى، وإنما اختار أن يتناول موضوعات متنوعة، وإن كانت غير متفرقة. داخل الإطار العام لموضوعه.

وثانيهما: أنه اختار نقاط مناقشة موضوعه على أسس تاريخية وجغرافية فى آن معًا. فبعد مقدمته الحافلة والممتدة ناقش العلاقات العثمانية الأوربية فى لحظة تاريخية فارقة؛ محاولاً أن يبين من خلالها كيف كانت تبدو صورة «الآخر الكافر» فى عيون المسلمين وفى عيون المسيحيين فى القرن السادس عشر من خلال لقطات تصوير ودرامية رسمها قلمه ببراعة. وإن كانت ثقافته الغربية قد جعلته. بالضرورة. واقفًا على الشاطئ الغربى فى معظم الأحيان.

الكتاب يتناول فى فصوله الأربعة عشرة مسائل الفتوح الإسلامية الباكرة، ثم ما جرى فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية الوجود السياسى للمسلمين فى شبه جزيرة إيبيريا، مصورا فظاعة التعصب الكاثوليكى، وبشاعة رجال الدين ومحاكم التفتيش، وكيفية رسم صورة «للآخر» تبرر هذه البشاعة وتناسبها .

وهو يخصص الجزء الثالث من الكتاب لمناقشة قضية الحروب الصليبية من منظور غير مألوف فى الدراسات التاريخية التقليدية التى تناولت الحركة الصليبية؛ لكنه هنا أيضا يكتب «من بعيد». ربما بسبب عدم التخصص. وربما بسبب اتساع مدى الكتاب واهتمامه المركز بمسألة «صورة الآخر». وقد أولى الفن اهتماما خاصًا فى كل أجزاء هذا الكتاب المدهش.

ويناقش فى الجزء الرابع مشكلات البلقان، منذ الاحتلال العثمانى، حتى مذابح التطهير العرقى التى شهدتها المنطقة بعد انهيار يوجوسلافيا فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين. وأشهد له فى هذا الجزء بنقل صورة حيوية لما جرى ومحاولة البقاء بعيدًا عن منزلقات الانحياز والعمى السياسى؛ فضلاً عن بيان حقيقة أن نصارى البلقان يعلقون كل أخطائهم وخطاياهم، وجوانب القصور فى حياتهم، على مشجب الاحتلال العثمانى. ويواصل مناقشة تأثيرات مشكلات البلقان على منظور كل من المسيحيين والمسلمين فى هذه المنطقة من العالم إلى الآخر، وكيف غرست الكراهية فى نفوس كل من الجانبين تجاه الآخر، والمذابح البشعة التى جرت...

ينتقل الكتاب بشكل مدهش إلى تناول تأثير المطبعة، بما تنتجه من نصوص وصور على العلاقة بين الجانبين من ناحية. وعلى مدى نشر الصورة التى يتصورها أحد الطرفين للآخر...

ولست أقصد هنا أن أقدم تلخيصًا لمحتوى الكتاب (فربما يكفى الاطلاع على فهرس المحتويات لهذا الكتاب). ولكننى أردت أن أبين مدى التنوع الذى يتميز به هذا الكتاب. ومدى سعة اطلاع مؤلفه، وكيف أنه بذل جهدًا فائقًا استغرق وقتًا كبيرًا؛ فالكتاب حافل

http://al-maktabeh.com

بالتفاصيل الفرعية، والمعلومات المفيدة التى تبدو خارج السياق أحيانا. كما أنه ينتقل من مسرح جغرافى إلى مسرح آخر، ومن فترة تاريخية إلى فترة تاريخية أخرى سعيا وراء صورة «الآخر الكافر». كما رسمها المسلمون للأوربيين فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة؛ وكما رسمها الغرب للعالم المسلم منذ العصور الوسطى وتطورها حتى الآن.

والكتاب الذى ينتقل بنا من العصور الوسطى إلى اللحظة الراهنة، ومن حركة الفتوح الإسلامية فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، ومن أقوال القساوسة والرهبان الذين كتبوا عن المسلمين الأوائل حتى ما قاله چورچ بوش والكتاب والصحفيون الغربيون عن الإسلام والمسلمين حاليًا. هذا الكتاب يأخذنا أيضا من شبه الجزيرة العربية حتى بلاد الشام ومصر والمغرب العربى عبر مضيق جبل طارق فى إسبانيا ويسافر بنا إلى البلقان. لينهى رحلته فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن الطبيعى ألا أكون متفقا مع المؤلف فى كل ما جاء بكتابه؛ ففى موضوعات بعينها لم أكن على اتفاق معه، وقد بينت موقفى باستمرار فى هوامش تحت النص. ولم يعجبنى بعض ما قاله هنا أو هناك ورأيت أن أسجل اعتراضاتى هنا أو هناك أيضا. وفى بعض الأحيان كنت أحاول تفسير إشاراته إلى موضوعات يعرفها القارئ صاحب الثقافة الأوربية أو الأمريكية. ولكن الكتاب. على الرغم من هذا. كتاب مدهش ومفيد تمامًا.

وقد كان المؤلف سخيًا للغاية فى الهوامش التى ذيل بها فصول كتابه. وجاءت الكثير من هذه الهوامش لتخاطب القارئ الغربى ضمن الإطار العام للثقافة الغربية. وقد ناقش فيها قضايا مألوفة فى الثقافة الغربية فى الدول الأوربية والأمريكية. ولا تهم قراء العربية فى أى جزء من العالم العربى. ولهذا السبب فإننى رأيت أن بعض هذه الهوامش يجب أن تبقى فى لغتها الأصلية نظرًا لأن القارئ العربى قد لايهتم بها، على حين قمت بترجمة البعض الآخر منها. وهناك مجموعة أخرى من الهوامش تتضمن إحالات إلى المصادر والمراجع الأجنبية التى اعتمد عليها المؤلف فى بحثه وليست هناك فائدة فى إعادة كتابتها.

وفى رأيى، العلمى والشخصى. أن كثرة الهوامش ربما تكون عبئًا على الكتاب فى طبعته العربية التى تخاطب بيئة ثقافية تختلف بصورة جوهرية عن البيئة الثقافية التى استهدفها المؤلف والكتاب. ومن ناحية أخرى، فإن كثيرًا من الهوامش التى ضمها الكتاب تتناول مناقشات جرت فى مراكز الدراسات والجامعات الأوربية والأمريكية. وقد تغاضيت عن مثل هذه الهوامش، وترجمت الهوامش الأخرى التى رأيت أنها مفيدة للنص العربى، وللقارئ العربى على السواء.

أما عن الترجمة، فقد حاولت قدر الإمكان أن تكون فى لغة عربية سليمة بسيطة مع الحفاظ على ما جاء فى النص الإنجليزى قدر الإمكان. مع توضيح فى الهامش لبعض المصطلحات والأسماء التى أشار إليها المؤلف فى ثنايا الكتاب. وقد التزمت بإيراد النصوص الأصلية من الكتاب المقدس حيثما أشار إليها المؤلف فى متن الكتاب. وأرجو أن تكون هذه الترجمة مفيدة للقارئ العربى فى كل مكان من المنطقة العربية.

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

٦ أكتوبر. سبتمبر ٢٠١١م

إهـــداء

إلى إيريك أوسكار هويتكروفت

حبا وعرفانا

«التاريخ أخطر نتاج نتج عن كيمياء الذكاء منذ الأزل. إنه يتسبب فى الأحلام، ويجعل الأمم تسكر بالنشوة. وتثقل كاهلها بالذكريات الزائفة... ويبقى جراحها مفتوحة. ويعذبها عندما يجافيها الاستقرار، ويبث فيها جنون العظمة وريبة الاضطهاد»

- بول فاليرى

تأملات فى عالم اليوم

http://al-maktabeh.com

شكر وعرفان

هذه الصفحات تسجل شكرى لبعض أولئك الذين ساعدونى فى فهم لغز. «الكفار». منهم كثيرون لا أعرف أسماءهم من أمثال: حسن ومحمود اللذين يظهران فى مقدمة الكتاب .كذلك لعبت الصدفة دورا عظيما. وغالبا ما كانت محادثة غير متوقعة مع أناس لا أعرفهم فى عمان أو فى تكساس هى التى دفعت بى إلى اتجاه جديد (ومفيد. . بيد أنى ممتن بشكل خاص لبعض الذين يمكننى تسميتهم. أولا. أولئك الذين اضطلعوا بالمهمة التى لا يوافيها الشكر حقها، أى قراءة أجزاء من النص. أو كله. بالشكل الذى وضعنى على طريق الصواب. فقد كان ديجان جوفيتشى كريما بحيث قرأ الفصول التى كتبتها عن البلقان. واقترح الكثير من التغييرات والتحسينات. ولم يهزأ من اندفـاعي. وجهلي. لاقتحام مجال لا أمتلك فيه سوى هذا القدر الضحل من المعرفة. وقد بزغ جزء من ولعى الذى اكتشفته حديثا بجنوب شرق أوربا من المؤتمر الممتاز الذى انعقد فى جامعة مينوسوتا. مينابوليس. تحت عنوان. خلق الآخر **Creating the Other**» الذى نظمه مركز الدراسات النمساوية فى شهر مايو سنة ١٩٩٩م. أى فى وقت كانت فيه الكثير من التوترات البلقانية تغلى تحت السطح. بيد أننا تكلمنا عن حوادث مأساوية بالقدر الذى نستطيعه من التجرد من العاطفة. وعلى نفس المنوال. فإننى فى هذا الكتاب عندما حاولت فصل مشاعرى الخاصة عن مادة الموضوع الذى أكتب عنه. وجدت أن الأمر لم يكن سهلا على الدوام .

وثمة منطقة أخرى دخلتها مسلحا بالنزر اليسير من المعرفة المسبقة وهى منطقة الدور الذى تلعبه اللغة. وقد قام لانس بتلر **Lance Butler** بقراءة كل كلمة. ولم يكتف بقراءة المادة الخاصة باللغة فقط. وكانت نصائحه ومساندته لا تقدر بثمن. كذلك

كانت مساعدة سوزان بيترز **Susanne Peters** ونصائحها. فقد قرأت أيضا كل فصل. وفى بعض الأحيان قرأت الفصول فى صياغات مختلفة. وقد أمدتنى بفيض من الكتب والمقالات التى كان من الواجب قراءتها. ووجدت الكثير من المصادر غير عادية وغير متوقعة. كما كانت تشجعنى باستمرار. وقد شرحت لى جودى ديلين **Judy De-lin** الأفكار المعقدة فى اللغويات بوضوح يسر لى فهمها، إضافة إلى طريقتها المباشرة فى إخبارى متى لا يجب على استخدامها. أما ميشيل رايس **Michael Rice** فقد أمدنى بالنصائح الجيدة باستمرار حول النص الذى أرسلته له. وذلك بفضل معرفته العميقة بالكثير من مناطق الشرق الأوسط. وأخيرا. والدى. . أوسكار هويتكروفت. الذى قرأ النص بكامله بدافع من الحب مراعيا ألا تكون هذه هى نقطة الضعف فى رؤيته. بيد أن ما يدعو إلى حمد الله أن حسه النقدى لا يزال غاية فى النشاط. وهو ما أنقذنى من أخطاء كثيرة كنت سأقع فيها مثل بحار جاهل يبحر فى الاتجاه المعاكس. ولا يوجد أحد غيرى مسئول عن أى من الشوائب الباقية بالكتاب.

كما أننى جعلت من نفسى أيضا مصدر ضيق لكثير غيرهم عندما كنت أطرح الأسئلة الساذجة التى أجابوا عنها بلطف ورقة بالغين. ولابد أن جون دركاليس. ونيل كيبل. وروبرت ميليس. ودافيد بيبنجتون. ومارك نيكسون. وأورون جوفى. بصفة خاصة. كانوا يرتعدون من ظهورى فى ستيرلنج. وهذا أول كتاب أكملته بفضل كل ما يتيحه الإنترنت والبريد الإلكتروني. وبينما كان لدى زملائى من الأسباب ما يجعلهم يجيبون عن أسئلتى. لم يكن هناك سبب يجعل أولئك الذين تبعدهم عنى مئات الأميال يفعلون ذلك. وإنى لشاكر على المساعدة والمشورة التى لقيتها من كارنر فوجن فندلى. وجوناثان بلوم، ودان جوفيمان. وروبرت ميخائيليس. ولارى وولف. ودافيد نيرنبرج، وإيفا لفين. وهناك آخرون مثل ستيفن جرينبلات. وروجر شارتييه. وتوماس إيمرت. وهيو أجنيو. ومارجريت ميسيرف. ونانسى وينجفيلد. ومايكن أومباش. كان من سوء حظهم أننى كنت أزنقهم فى استراحة لتناول القهوة فى أحد المؤتمرات. أو أن أستجوبهم فى وقت الغذاء. وفهمت من جون كيجان. على مدى سنوات كثيرة للغاية. أن أحاول رؤية الأمور بوضوح بغض النظر عن ضباب

المعركة». وكان جون هو الذى اقترح كتابى الأول. ومن ثم فإن امتنانى له يرجع إلى فترة طويلة للغاية فى رحاب الماضى. وتعلمت من كولين وشارلوت فرانكلين أهمية الشعور بالكتب وملامستها. فى خضم ثراء «شونة الكتب» الخاصة بهما فى كولهام. وتعلمت جيدا. وقد ساعدنى اثنان من الناس فى البحث من أجل هذا الكتاب. عندما لم أكن أمتلك الوقت ولا أمتلك ناصية اللغة. وقد ساعدتنى ليفا باروش. التى اقترحتها آفى شاليم بلماحيتها) مساعدة هائلة فى تقييم المادة العبرية. إذ قرأت النص وقدمت لى النصح فيما يتعلق به. وهى صاحبة عين مدهشة تلتقط الأمور التى لا تصلح مثلما ترى الاقتراح الملهم والموحى بشىء قد ينفع. كما أن أنيستى هويتكروفت لم تشك أبدا من طلباتى بالنبش فى الأماكن الأكثر عتمة وجفافا فى المكتبات ودور الوثائق من أجلى. وهى تتمتع أيضا بالإحساس الممتاز بالمادة بعيدة الاحتمال ولكنها لا تقدر بثمن. وإنى لأدين بالشكر الجزيل والعرفان لكل منهما .

وفى عنقى دين بالشكر لكل أولئك الذين ساعدونى بإبراز الأخطاء المطبعية فى الطباعة الأولى لهذا الكتاب. فى مايو ٢٠٠٣م. لقد كان كل من رنا قبانى. وجوناثان فاللا. وجوناثان بنتال. وجون آدامسون جميعا على قدر من الطيبة بقدر ما تمتعوا به من المهنية فضلا عن أنهم كانوا يقترحون التفسير الأفضل من التفسير الذى كنت أطرحه. وكان من دواعى سعادتى البالغة أن أخذت بمقترحاتهم. وإنى لمدين لهم بالشكر جزاء مجاملاتهم كلها وقراءتهم النص قراءة مدققة. إذ كانت كارول تمضى الساعات فى صبر لتفك غموض الموضوعات المعقدة فى الفصل الأخير من الكتاب. وكانت رؤاها وبصيرتها شيئا لا يقدر بثمن. وأريد أيضا أن أشكر جون توربى. الذى كان كريما وهو يجيب عن جميع أسئلتى ويرد على كافة هواجسى المتعلقة بالفصل نفسه الذى خضع لمراجعات وتعديلات بلا نهاية .

إن تأليف مثل هذا الكتاب. الذى شغل هذه الكثرة من الساحات المتباعدة والقضايا المتنوعة، يمثل عبئا حقيقيا على أصدقاء المرء. فقد تحملت روز مارى مورجان العبء الأكبر فى جميع المراحل. ويسرت لى سبيل الوصول إلى ييل Yale. وكانت مضيافة

كريمة إلى أبعد الحدود. كما كان قلمها نقديا لاذعا. ولولا المساعدة التى قدمتها لكان تأليف هذا الكتاب أشد صعوبة. وكان جون بريور. وستيلا تليبارد من أفضل ما يمكن للمرء أن ينعم به من الأصدقاء. فى فلورنسا وفى أوكسفورد. فقد أسهما بالكثير فى هذا الكتاب. بما كتباه. أو من خلال الحوار معهما، فضلا عن الفرصة التى وفراها لى. وكذلك فعل فؤاد قشير فى عمان حيث خضت معه غمار مسائل عميقة تخص العالم العربى واللغة العربية. وممدوح أنيس. وكريستيان كوش فى أبى ظبى. وقد تعلمت منهما كيف أجعل الكتاب يحتفظ بمساره. وفى إنجلترا. أدين بالامتنان لدافيد باتسون. بسبب معرفته بالكنيسة الباكرة. وريتشارد ستونمان. لخبرته ومعرفته باليونان وتركيا؛ وجيوبست لصداقته على مدى العديد من السنين. وروى دوجلاس الذى ساعدنى على فك طلاسم الصور. ومن بين العديد الذين «كانوا هناك» مستعدين بالنصيحة. أو المساعدة، أو الصحبة عندما كنت بحاجة إليها. أود أن أذكر بشكل خاص محمد شيركى وجعفر الحاج. اللذين عرفانى بالأدب الجديد فى الجزائر. وأنجليكا هاميلتون التى كان لحماستها وحيويتها المتدفقة الدءوبة الفضل فى تبديد شكوكى فى المشروع برمته. وكذلك نجدى مدبولى. الذى كنت أختبر معه المعانى العربية. وأندرو سوبيش . وأليك ستاكوفيتش الذى كان حديثى معه عن البلقان لا ينقطع. وأخيرا فردريك ميرلى. وتشارلى سيدون. الرفيقان الطيبان .

وفى غرناطة. منذ سنوات كثيرة انقضت. سمح لى دون جيسوس برموديربريجا. وسرتا أنجلينا مورينا أن أنبش فى وثائق قصر الحمراء. كما دلانى على دور وثائق أخرى فى المدينة. ومن خلالهما أيضا وجدت طريقى داخل الجبال. إلى البوخاراس. معقل الموريسكيين. تلك التجارب قد تركت تأثيرها على حياتى وعلىَّ منذ ذلك الحين .

كان هناك متحفان لا يقدران بثمن بالنسبة لذلك الجزء من الكتاب الذى يتناول الكلمة المطبوعة. المتحف الأول هو **Musee de l'Imprimarie de Lyon** الذى تم تأسيسه بتوجيه من هنرى. جان مارتان . والمتحف الآخر متحف جوتنبرج. فى مدينة ماينز. ومن المحزن أن زيارتى لمتحف بلانتين مورينتوس **Plantin-Morentus** فى

http://al-maktabeh.com

أنتويرب قد ألغيت. هذه المتاحف كانت عونا بالغا لى ووفرت لى فرصة فريدة لأن أحس إحساسا واضحا بعالم الطباعة. ويصدق هذا بصفة خاصة على القرون الثلاثة الأولى (بعد اختراع الكتابة. التى شهدت جميع عمليات صناعة الكتاب التى جرت فى ذلك الحين.

وأود أن أعبر عن امتنانى المستمر لوصولى إلى الكتب القديمة من خلال مكتبة الكونجرس ومكتبة فولجار بوشنطن العاصمة. ومكتبات ستيرلنج. وبينيكى. وسيلى ج. مود فى ييل. ومكتبة ويلسون فى جامعة مينوسوتا .وكذلك مكتبة جامعة تكساس التقنية حيث عملا بسعادة على مدى عدة سنين. وبالقرب من موطنى أنجزت قدرا كبيرا من العمل فى المكتبات البريطانية، مع مجموعة الكتب فى متحف فيكتوريا وألبرت. وفى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن. وفى المكتبة الوطنية فى أدنبره بأسكتلنده. وفى مكتبة ترينتى بدبلن. ومكتبة جامعة ليدز. وكانت مكتبة جامعة كمبردج. ومكتبة معهد واربورج والمجموعة الخاصة بمكتبة إدينبرج من المصادر التى لا تقدر بثمن بالنسبة للمادة البحثية.

فى فيينا برهنت المكتبة الوطنية على أنها كنز مدفون لصور الكفار القديمة. وقد أفدت أيضا من مصادر ENSSIB فى ليون. وفى زيارات أخرى أفدت من IRCICA فى إستنبول. ومن دارة الفنون فى عمان بالأردن. ولكننى أدين بدينين خصوصيين يجب الاعتراف بهما. أولهما للدكتور جمال السويدى الذى دعانى للعمل فى مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية فى عدة مناسبات على مدى أربع سنوات. وقد جنيت الكثير من الفوائد لا من حيث استخدام مكتبتهم الممتازة فحسب. ولكن أيضا من نصائح جمال السويدى واهتمامه بعملى. والدين الثانى الذى أدين به أقرب إلى موطنى فى إستيرلنج. إذ إن الجامعة لم تكتف بمنحى منحة بحثية كريمة فقط، ولكن عمل طاقم المكتبة فى إستيرلنج تعدى نداء الواجب بقدر كبير. وأظن أننى أخذت سجل الاستعارة فى الجامعة لحسابى. وكان معنى هذا أنه بالنسبة لموضوع يغطى مثل هذه المجالات المختلفة واللغات المتنوعة. كان بمقدورى أن أمضى وقتا فى القراءة والكتابة

يعادل الوقت الذى أنفقته فى السفر والترحال من قبل. ولا يمكن مقارنة هذه المكتبة من حيث حجم مقتنياتها مع مؤسسات أكبر منها. بيد أن رصيدها من الكتب كان محل اختيار دقيق. وكانت هناك مفاجآت عديدة فى انتظارى فى هذه المكتبة. فبينما لم تكن المكتبات الأكبر منها كثيرا تضم الكثير من مجلدات قصص القرن التاسع عشر المعروفة باسم **Punch**(*) التى كنت بحاجة إليها. وجدتها قابعة على الرفوف فى إستيرلنج .

وإنى لمتن بشكل خاص للمحررة إليو جوردون **Elio Gordon** . لسببين خاصين أولهما أنها قبلت فكرة أننى أعمل بكل جهدى حقا فى هذا الكتاب عندما كنت أتأخر فى تسليم النصوص. وثانيا. وكما حدث فى كتابى السابقين لدار الفايكنج. أن كل اقتراح للناشر اقترحته هى كان من الدقة والصواب بحيث يسهل قبوله. وفى جميع الأحوال كان حكمها صائبا ونافذا تماما. كما أننى أدين بالشكر والعرفان لما تحملته إليزابيث ميريمان **Elisabeth Merriman** من المشقة والصبر فى تحرير النص. فقد كانت مقترحاتها فى إعادة الصياغة أو التوضيح أو الإضافات. من عوامل تحسين النص بشكل مستمر تقريبا. وقد تقبلتها بلا تردد شاكرا.

وهناك جميل آخر ينبغى الاعتراف به. فقد عرفت السيد لورنس ستون **Lawrence Stone** على مدى فترة تزيد عن عشرين سنة. وفى بعض هذا الوقت قمت بعمل المحرر الملتزم له.

وأن تكون محررا لما يكتبه لورنس عملية ذات اتجاه واحد. فقد كان يكتب وكان على محرره أن ينظم الكتاب استعدادا لنشره وحسب. ولم يكن السبب فى هذا أنه لن يأخذ بالمشورة. وهو ما كان يفعله. ولكنه نادرا ما كان يحتاج إلى النصيحة. وفى العملية المعاكسة. وأنا أسعى للحصول على النصيحة فى عملى. كانت المسألة مختلفة

(*) مسرحيات شعبية إنجليزية تؤدى بالدمى والعرائس. (المترجم)

للغاية. فقد أسهم لورنس بقدر كبير. وكنا نتقابل سويا، سواء فى أوكسفورد أو برينستون. وكان يقدم مقترحاته ويقدم الأشخاص الذين أتواصل معهم. كما كان ناقدا صارما لأفكارى. ولكنه شجعنى دائما على الاستمرار. لقد كان لورنس صديقا مساندا ومعضدا بطريقة مدهشة. ولو كنت قد كتبت بمعدل أسرع قليلا واتبعت عددا أقل من النقاط الثانوية التى وافق عليها لورنس بصورة فعالة. فربما كان هذا الكتاب قد ظهر قبل موت لورنس المفاجئ.

آخر شكرى وأعظمه قدرا أسديه لزوجتى. جانيت هويتكروفت. فقد عانت على مدى أكثر من عشر سنوات من انشغالى المزعج بهذا الموضوع المرهق. وقرأت المسودات التى تفوق الحصر، وأبعدتنى برفق عن أسوأ حالات التطرف. ولكنها قاست أيضا كتاباتى على تجربتها الخاصة عندما عاشت حياة تشبه حياة العصور الوسطى فى جوهرها. وعزلتها فى رحاب ثقافة أخرى. دونما طرق. أو كهرباء. أو تليفون. وكانت تفتقر إلى لغة مشتركة. لقد عاشت بفطنتها ورقتها المحببة بالنسبة لأولئك الذين كانوا حولها. لم يكونوا يفهمون لماذا كانت هناك ولكنهم تقبلوها بينهم. كان ذلك فى نيبال. وهى ليست ثقافة إسلامية. بيد أن ذلك لم يحدث سوى فروق قليلة. لقد كانت مراقبا صامتا. وهى ترى عائلة شيربا وتشاهد حياة القرية وربطت ذلك بتجربتها الخاصة. وما استطعت أن أشعر به فقط عن الماضى وعن التشابه والاختلاف. استطاعت هى أن تسبر غوره على أرضية مما شاهدته وأحست به. وبغير الفائدة المكتسبة من بصيرتها التى كسبتها على مدى تلك الشهور العديدة. قضتها فى وحدة مؤلمة لكل منا. لما استطعت أبدا أن أكمل هذا الكتاب.

ملاحظة تحريرية

إن مشكلات المصطلح من الأمور الملازمة فى كتاب مثل هذا الكتاب. ذلك أن مصطلحات. «الغرب». و «الشرق». «أوربا». و «الإسلام فى عالم البحر المتوسط». وكافة المصطلحات التى استخدمتها بانتظام. أعترف بأنها سوف تثير حفيظة التطهريين. وبالمثل. كنت حريصا للغاية فى استخدام مصطلحات شائعة الآن مثقلة بشحنتها مثل. «الآخر». و «الاستشراق»، أو «الأصولية». وعلى العموم فإننى تجنبت هذه المصطلحات الثلاثة جميعا .

ودائما ما تشكل أسماء الأعلام وأسماء الأماكن مشكلة. خاصة فى هذا الكتاب حيث يمكن للأسماء نفسها أن تتسبب فى نزاع شديد. وكانت القاعدة العامة التى سرت عليها أن أستخدم الشكل الذى يعرفه قارئ اللغة الإنجليزية أكثر من أى شكل آخر. بيد أن تلك القاعدة لم تتبع بصورة كاملة ومتسقة. فالشكل الإنجليزى لكلمة. القرآن» هو Koran ولكنى كتبتها Qur'an بشكل اعتيادي. وهناك أمثلة مشابهة أخرى.

كذلك واجهت معضلة أخرى. فهناك صور كثيرة ورد ذكرها فى هذا النص. أكثر بكثير مما بينته بالفعل. وعندما لم أظهر صورة مرئية مهمة لبيان وجهة النظر فى الجدل. وصفت محتوياتها بالتفصيل. بيد أن إحدى مشكلات استخدام الصور تتمثل فى أن الحصول عليها الآن يكلف ثمنا غاليا. ومن الناحية المثالية كنت أود لو أنى استخدمت المزيد من الصور .ولكن بالنسبة للقراء من أمثال «توماس الشكاك» ممن يحبون أن يروا بأنفسهم. فإن غاية ما يمكن أن أرد به أن هذا قدر جهدى .

ولست أعتذر عن استخدام كلمة «كافر» بأى حال. ومن أجل المواءمة أخذت الكلمة الأوربية اللاتينية infidle بسبب الطريقة التى كان المسيحيون الأوربيون يشيرون

http://al-maktabeh.com

بها إلى المسلمين. وباعتبارها المعادل للكلمة العربية «كافر» التى تعبر عن الكيفية التى كان العالم الإسلامى ينظر بها إلى المسيحيين فى أوربا. لقد كانت هناك كلمات أخرى مستخدمة. ولكن هذا التصنيف– أى الذين حرموا من نعمة الدين الحق. أى المسلمون بالنسبة للعالم المسيحي والمسيحيون. بالنسبة للعام الإسلامى– كان متسقا على نحو ما. هذا الاقتراح بصورة تعكسها المرآة. ونتائجها. يعزز ما تحمله صفحات هذا الكتاب .

الخرائط

Zones of Conflict
0 100 200 miles
0 100 200 300 km
N
AND
R. Vistula
R. Dniester
R. Dniepr
R. Don
R. Volga
CASPIAN SEA
CARPATHIAN Mts.
R. Prut
HUNGARY
Jassy
Tamesvar
Akkerman
Bender
Kilia
ROMANIA
Bucharest
R. Danube
BLACK SEA
Nicopolis
Nis
BULGARIA
Sofia
Plovdiv (Philippopolis)
Sinope
Trebizond
Skopje
Istanbul (Constantinople)
Edirne (Adrianople)
Thessaloniki (Salonica)
Sivas
Chaldiran
Nicaea
Ankara
Bursa (Brusa)
Dorylaeum
Kayseri
Malatya
GREECE
Aegean Sea
Diyarbakir
Edessa
Mosul
Izmir
Konya
Adana
Lepanto
Chios
Athens
Aleppo
IRAQ
Tripolitza
Antakaya (Antioch)
Baghdad
PELOPONNESE (MORAIA)
R. Euphrates
R. Tigris
Rhodes
Nicosia
SYRIA
Palmyra
CRETE
Famagusta
CYPRUS
Beirut
Sidon
Tyre
Damascus
MEDITERRANEAN SEA
Acre
Amman (Philadelphia)
Jaffa
Ramleh
Jerusalem
Bethlehem
Alexandria
Sinai Desert
Cairo
ARABIA
EGYPT
HEJAZ
R. Nile
Red Sea

North Sea
IRELAND
ENGLAND
ATLANTIC
OCEAN
GERMANY
FRANCE
AUSTRIA
SPAIN
PORTUGAL
CORSICA
ITALY
SARDINIA
BALEARIC ISLANDS
MEDITERRANEAN SEA
MOROCCO
ALGERIA
TUNISIA
SAHARA DESERT
High Atlas
Cologne
Paris
Tours
Prague
Vienna
Budapest
Zurich
Clermont
Lyons
Toulouse
Avignon
Genoa
Venice
Milan
Turin
Marseilles
Barcelona
Zaragoza
Madrid
Burgos
Leon
Lisbon
Seville
Cordoba
Granada
Valencia
Gibraltar
Tangier
Fez
Melilla
Oran
Tlemcen
Algiers
Constantine
Tunis
Sfax
Gabes
Tripoli
Benghazi
Djerba
Palermo
Messina
Naples
Rome
Malta
Slovenia
Croatia
Bosnia
Albania
Corfu
Sarajevo
Ljubljana
Zagreb
Rijeka
Pecs
Budapest
Pilsen
Czech Republic
Pol

http://al-maktabeh.com

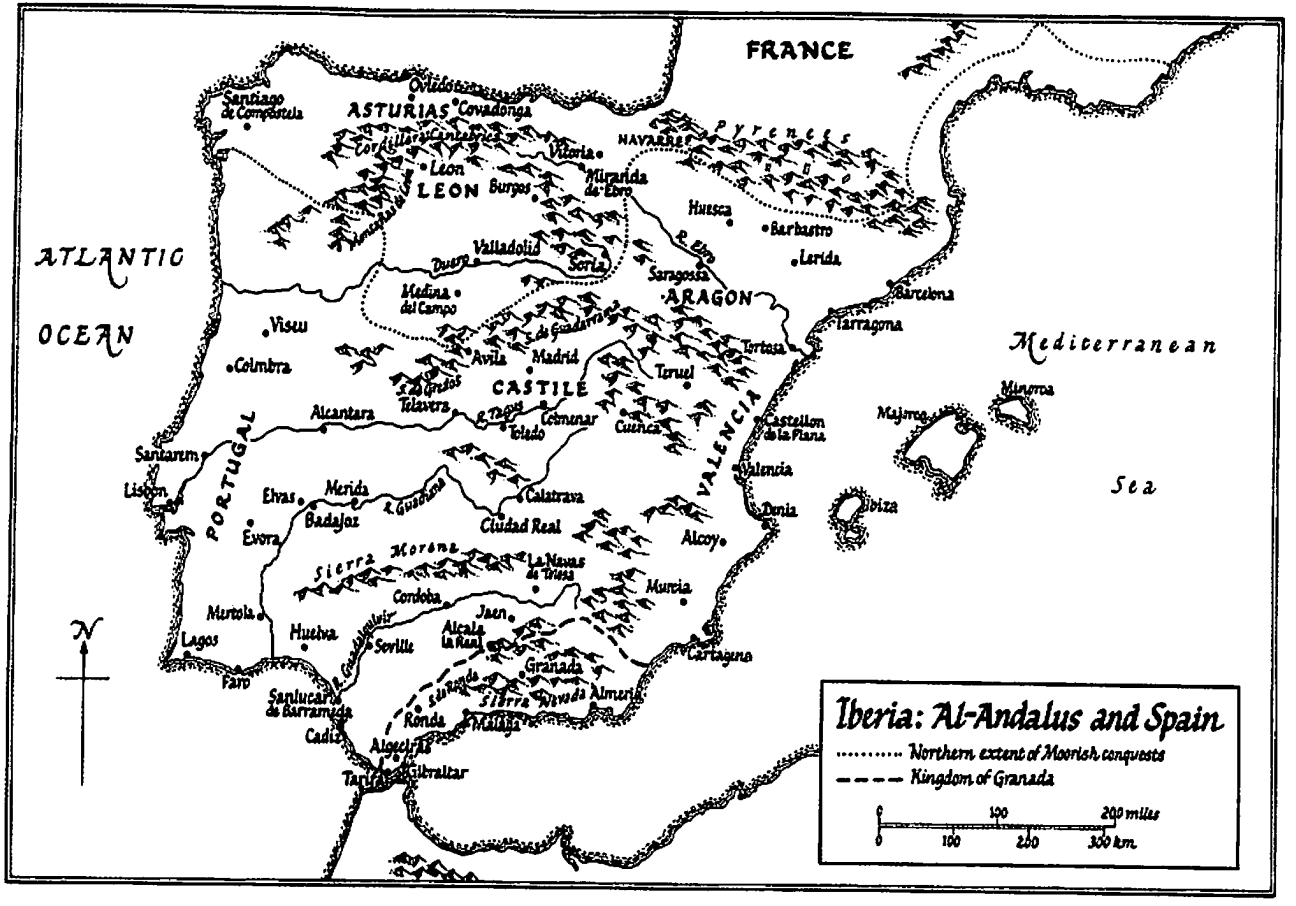

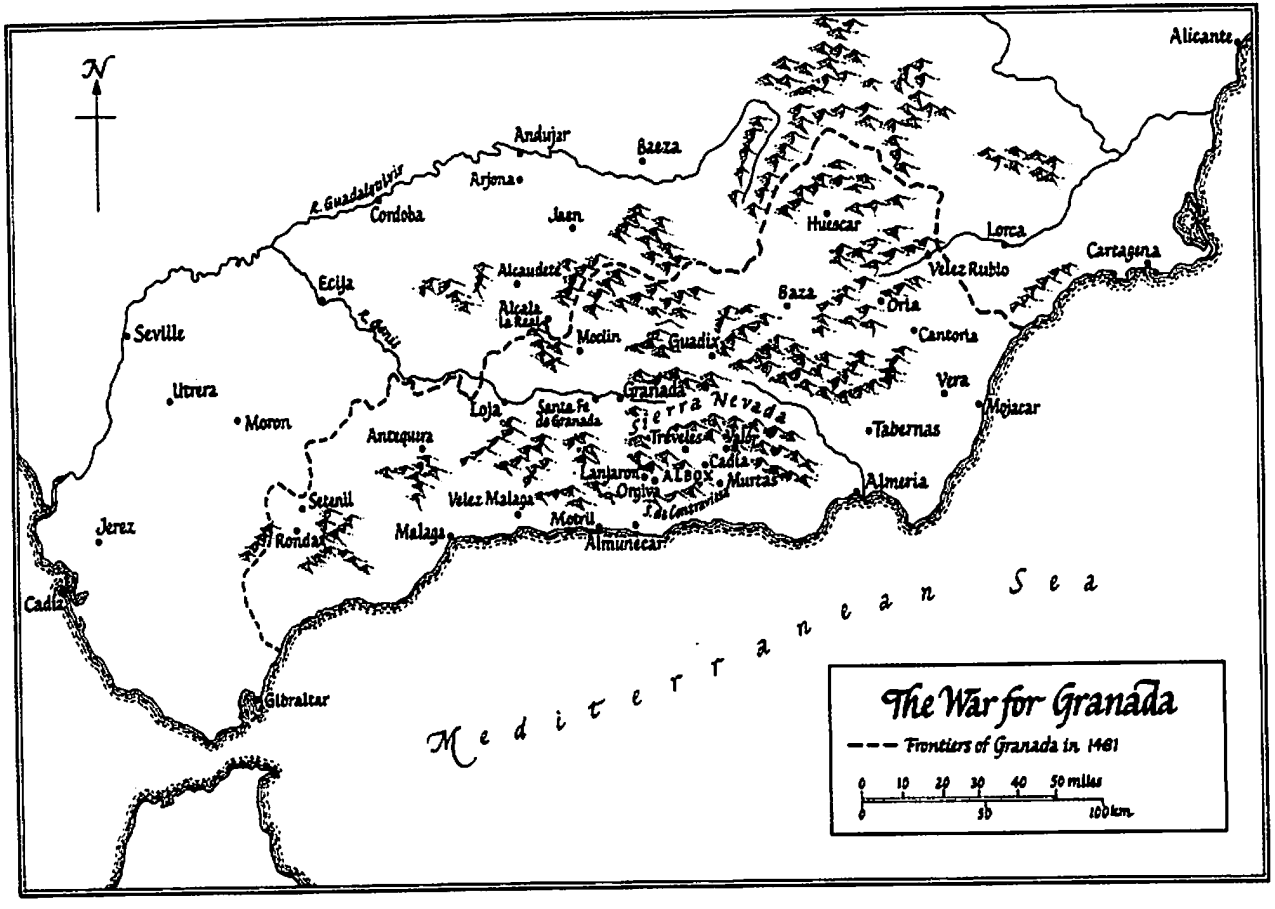
N
Alicante
Andujar
Baeza
Arjona
R. Guadalquivir
Cordoba
Jaen
Huescar
Lorca
Cartagena
Velez Rubio
Alcaudete
Ecija
Baza
Orla
Alcala la Real
R. Genil
Seville
Moclin
Guadix
Cantoria
Utrera
Granada
Vera
Loja
Santa Fe de Granada
Sierra Nevada
Mojacar
Moron
Antequera
Trevelez
Tabernas
Cadia
Lanjaron
ALBOX
Murtas
Almeria
Sevilla
Velez Malaga
Orgiva
Jerez
Ronda
Motril
Malaga
Almunecar
Cadiz
Gibraltar
Mediterranean Sea
The War for Granada
Frontiers of Granada in 1481
0 10 20 30 40 50 miles
0 50 100 km

BLACK SEA
Sinope
Constantinople
Sea of Marmara
Nicomedia
Nicaea
Bursa
Dorylaeum
Angora
ANATOLIA
Amasia
Trebizond
Sebastea
R. Halys
Melitene
Laodicea
Iconium
Heraclea
Sis
Marash
Edessa
Mamistra
Ainzab
Harran
Attalia
Taurus Mountains
Tarsus
Adana
Alexandretta
Hieropolis
Antioch
Harene
Aleppo
R. Euphrates
R. Orontes
Ma'arra
Palmyra
Lattakieh
Nicosia
Famagusta
Tortosa
Krak des Chevaliers
Homs
CYPRUS
Tripolis
MEDITERRANEAN SEA
Beirut
Sidon
R. Litani
Damascus
Tyre
Beaufort
Acre
R. Yarmuk
Arsuf
Jaffa
Jericho
Amman
Ibelin
Jerusalem
Ascalon
Bethlehem
Gaza
Hebron
Dead Sea
Beersheba
Alexandria
Damietta
0 50 100 miles
0 100 200 km
Cairo
SINAI
R. Nile
Red Sea
N
Where the Sun Rises:
THE LEVANT
and Al-Mashreq

The Balkans
N
RUSSIA
Carpathian Mountains
Czernowitz
R. Dniester
R. Pruth
Jassy
Debreczin
THE HABSBURG EMPIRE
MOLDAVIA
Akkerman
Szegedin
Pec
R. Drava
Kronstadt
Galati
VOJVODINA
R. Sava
WALLACHIA
Bucharest
Constanta
BOSNIA
Travnik
Belgrade
Craiova
R. Danube
Sarajevo
SERBIA
Plevna
Varna
Black Sea
Nis
Novipazar
BULGARIA
Mostar
HERZEGOVINA
DALMATIA
Stara Planina
Burgas
Pristina
KOSOVO
Sofia
Philippopolis
MONTE NEGRO
Ragusa
Skopje
Adrianople
Constantinople
Adriatic Sea
Scutari
ALBANIA
Ochrida
Durazzo
Bittola
MACEDONIA
Salonica
Thasos
Gallipoli
Lemnos
Aegean Sea
Janina
Larisa
Mitilini
Corfu
IONIAN ISLANDS
Chios
Smyrna
Missolonghi
Lepanto
GREECE
Athens
Ionian Sea
Corinth
Tripolitza
Cyclades
MOREA / PELOPONNESE
Navarino
RHODES
Cerigo
CRETE
0 50 100 miles
0 100 200 km

مقدمة

أتذكر وأنا جالس بجوار طريق فى المغرب. وحيدا يملؤنى الخوف. أن توقف رجلان فى سيارة نقل قديمة صغيرة وسألانى باللغة العربية أولا ثم بالفرنسية عن وجهتى. وأخبرتهما أننى متوجه إلى الشمال إلى طنجة. ومنها إلى إسبانيا. وبينما تسير بنا السيارة فى بطء شديد. كنا نتبادل الحديث بصورة متقطعة. ولكننا بقينا صامتين طوال الشطر الأكبر من الرحلة. ولكنهما أصرا عندما وصلنا المدينة أن أبقى معهما .

وأخذنى هذان الأخوان معهما إلى منزلهما. حيث مكثت عدة أيام. وقد جعلانى أرى الحياة الفقيرة فى المدينة الواسعة. ويبدو أننا أمضينا ساعات عديدة فى السوق ونحن نحتسى الشاى المغربى بالنعناع. الذى لم يفارقنى مذاقه على الإطلاق. وفى الليل كانت الكهرباء تنقطع باستمرار بحيث يغوص وسط مدينة طنجة فى الظلام. وعندها يتوقف الصخب برهة. ثم تضاء المصابيح والشموع. وينتقل الناس بلا جهد من أسلوب حياة حديث إلى أسلوب حياة تقليدى. وفى النهاية. وبقدر من التردد. قلت إننى مضطر إلى اللحاق بمركب فى ملقا. ثم أقطع مسافة طويلة إلى غرناطة. وأخذنى صديقاى الجديدان حسان ومحمود إلى الميناء حيث رحلت. ولم أرهما ثانية قط. ولكن هنا كانت بداية الكتاب .

هذا نوع من التجربة التى مر بها كثير من الرحالة رجالا ونساء. وفيما بعد سمعت عن أناس تعرضوا للسرقة على الطريق، أو تم احتجازهم فى المغرب. ومن هذه القصص أمكننى أن أقول إنه من الواضح أن بعض الحكايات كانت حقيقية على حين كان البعض الآخر نتاجا للشك الغريزى والتفسير الخاطئ لسلوك الفئات الودودة

http://al-maktabeh.com

التى يمكن أن تظهر بين «الشرق» و«الغرب». وفى الوقت نفسه ،التزمت الصمت وأنا أفكر كم كنت متهورا ومندفعا. بيد أننى بعد ذلك لم أفهم فقط كرم الضيافة الذى اتسم به الصديقان اللذان قابلتهما بالصدفة. ولكننى أدركت أيضا مدى المخاطرة التى قاما بها عندما استضافا شخصا كان يمكن أن يزعم أنهما سرقاه. أو يتهمهما بما هو أسوأ من ذلك. ولكن ذلك لم يردعهما. ذلك أن "حسان ومحمود" لم يريا سوى شخص منهك يعانى العطش .

لقد كان الخوف حقيقيا. وكذلك كانت الصداقة. وعلى مدى السنوات التالية التى قضيتها دارسا وباحثا فى إسبانيا والشرق الأوسط. قرأت المزيد والمزيد عن التنافر العميق بين العالم الإسلامى والعالم الغربى. وعن كم العنف والكراهية التى تولدت عنه. ولكن بينما كان حجم المادة العلمية يتزايد، كانت هذه الصورة تتوارى فى ضبابيات الشك. وهذا أيضا ما حدث فى الربط بين السبب والأثر الناتج عنه. وإذا وقعت حادثة ما. مثل مذبحة أو غيرها من أعمال العنف. فغالبا ما تكون جذورها ضاربة فى أحداث بعينها. بيد أن الرابطة بينهما تتوه فى أغلب الأحوال. والأساس المنطقى موجود فى نقطة ما فى الماضى الذى لم تتم دراسته. لقد كان من المسلم به أن كلمتى. «الشرق». «الغرب»، أو بشكل أدق «الشمال». «الجنوب». أو «العالم المسيحى». «العالم الإسلامى». كلمتان متعارضتان. كانت هناك روابط لم يعد لها وجود. مثل العلاقة بين عالم المسيحية وعالم اليهودية. وهى علاقة غالبا ما تولدت عنها الفظائع والأعمال الوحشية. بيد أن الحال لم يكن هو الحال نفسه. إذ كان يبدو أن هناك شيئا محددا تماما فى اللقاء بين عالم الإسلام وعالم المسيحية يتولد عنه العنف. وبدا أن السبب كامن تحت التفسيرات العادية ،وهو ما ترتكز عليه المنافسات السياسية والاقتصادية. والطموحات والتفاهات الشخصية. والفرصة والصدمة .

وقد اعتدت فى طفولتى على أن ألعب لعبة اسمها. الهمسات الصينية **Chinese Whispers**». فهناك قصة من أيام الحرب العالمية الأولى عن رسالة كان يتم الهمس بها فى أحد الخنادق تقول. «أرسل تعزيزات. إننا سوف نتقدم». ثم تظهر هذه الرسالة

بعد تناقلها عبر خط طويل من الجنود فى صيغة تقول. «أرسل ثلاثة أو أربعة بنسات. نحن ذاهبون إلى حفل رقص». يمكن أن يكون هذا بحسب نظرية الإيصال مثالا على التداخل والشوشرة والنشاز. وفى لعبتنا كان يقال. كرر ما سمعته. ولا تغيره أبدا عن قصد. مهما كان عابثا) قبل أن تهمس به إلى زميلك. ولم يحدث أبدا أن قلنا للتالى فى الصف إن الرسالة تبدو بلا معنى أو عبيطة. وربما كنا نرفع حواجبنا على الأكثر. ولكننا كنا نكرر ما نظن أننا سمعناه. ولكن أحدا لم يكن مسئولا عن التشويش عن عمد .

هذه المتوالية أو المغامرة غير المقصودة تتجلى واضحة فى أى فعل من أفعال الاتصال. فعندما وقف البابا أوربان الثانى خارج كاتدرائية كليرمون سنة ١٠٩٥م يدعو المسيحيين لإنقاذ القدس. لم تكن الحملات الصليبية فى ذهنه. لقد أطلق الفكرة فى الريح. وهو على ثقة من نعمة الرب. ولكن لم تكن لأوربان سيطرة على التأثيرات الناجمة عن كلماته. فقد ترددت أصداؤها على مر القرون وبعد موته بزمن طويل [١] . وهذا هو تاريخ اللاأفكار. الهمسات الصينية». بيد أن العواقب والنتائج فى لغة المصطلحات البشرية والتى نجمت عن هذه الرسائل الملبدة كانت مخيفة.. ويحاول هذا الكتاب أن يقتفى أثر قليل من الطرق التى تفوق الحصر التى رد بها الغرب المسيحى على الشرق الإسلامى. ولكن حتى الكلام عن المهمة والواجب كلام حافل بالتعقيد. إذ إن كلمات مثل «الغرب» و«الشرق» و«العالم المسيحي» و«أوربا» و«الإسلام» كلمات متعارضة بقوة لدرجة يصعب النفاذ وراءها. وعندما كنت أكتب أيا من هذه الكلمات لم أكن أشعر بالراحة. فقط لأننى كنت مدركا أكثر من اللازم أنها يمكن أن تفسر بطريقة خاطئة. ولا بد أن تفسر كذلك). ومنذ نزع إدوارد سعيد أحشاء الاستشراق» لا يستطيع أحد أن يكتب عن هذه الموضوعات بلا مبالاة. وهذه حاليا أمور لا يمكن أن نتحدث عنها بقدر من الثقة [٢]. وبالنسبة لى. كان الطريق للخروج من هذا يتمثل فى التركيز على. كيف» كان الاتصال بالكراهية. بدلا من متابعة «لماذا» كانت الإساءة والكراهية .

هذا الكتاب يغطى مساحة شاسعة. فى الزمان والمكان على السواء. فهو يبدأ فى القرن السابع الميلادى. ويمتد إلى القرن الحادى والعشرين. وحدوده جنوب

الجزائر. وفيينا فى الشمال والمحيط الأطلنطى غربا. وبحر العرب والمحيط الهندى فى الشرق. ويخرج أحيانا عن تلك الحدود، ولكن مركزه عالم البحر المتوسط. أى من حيث أبدأ. إذ يبدأ الجزء الأول بمعركة ليبانتو البحرية Lepanto أمام شواطئ اليونان سنة ١٥٧١م. ففى ذلك الوقت ظن كثيرون أنها لحظة تحول فى صراع كانت قد مرت عليه عصور بالفعل. ولم يكن كذلك. وأعود إلى النقطة الأولى فى الصراع. بفلسطين قبل تسعة قرون. أما الأجزاء الثانى والثالث والرابع. فيتناول كل منها على التوالى ثلاث مناطق. إسبانيا، وشرق المتوسط، والبلقان. حيث وجدت المسيحية والإسلام جنبا إلى جنب على امتداد فترة طويلة من الزمان. وتأخذ إسبانيا الأسبقية ولها فخر المكان. وربما يكون السبب أننى أفهم هذه البلاد أحسن من فهمى لشرق المتوسط أو جنوب شرق أوربا. ولكن بينما قصة الحروب الصليبية قصة ذائعة. وبينما ألقت الأحداث المأساوية ضوءا ساطعا على البلقان. يبقى تاريخ المسلمين فى إسبانيا قابعا فى الظلال. ومع هذا. فإن الكثير مما جرى فى إسبانيا ترك أصداءه وله صلة بأماكن أخرى على امتداد سواحل البحر المتوسط .

وأنا واع تماما أن مجلدًا بهذ الحجم، أو أكبر، يمكن أن يكتب عن كل هذه المناطق. بيد أنه لن يروى القصة كاملة على الرغم من هذا. ويتبع هذا الكتاب خيطا واحدا. يتعلق بالخصومة واللدد بين العالم المسيحى الغربى والعالم الإسلامى شرق المتوسط. وحتى فى هذه الحال فإن المساحة التى بمتناولى لا تسمح سوى بتأمل جانب واحد من جوانب القصة . وفى جزء أحاول تبيين كيف انتشرت الخصومة. وكيف استمرت حتى الوقت الحاضر .

وثمة مخاوف قوية أخرى كان بوسعى الكتابة عنها. أعنى مخاوف أهل الغرب من ذوى البشرة الداكنة أو الانحيازات المسيئة ضد نصف الجنس البشرى. أى النساء. وقد كانا سويا مصدر إغواء لى. هذه المخاوف أيضا. مثل الخوف من الإسلام. تغيرت على مر العصور ولكن حركة التنوير لم تستأصلها. وفضلا عن ذلك فإن الخوف هنا يبدو وكأنه ينسج ثوبه من الخصومة الطويلة ضد الإسلام. بيد أنه مع الإسلام كانت هناك نقطة بداية على الأقل. وتتابعت القصة على مر الزمان. مما يمنحها شكلا ما.

ذلك أن أحداثا. مثل اجتياح القدس سنة ١٠٩٩م، والاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، واستسلام غرناطة سنة ١٤٩٢م، ومعركة ليبانتو سنة١٥٧١م. وتفجير البرجين التوأم سنة ٢٠٠١م. كلها كانت لها عواقب ملموسة واضحة. يمكن أن نقرأها لنرى كيف أثرت على الخيال البشرى .

ويكمن جزء من «كيف» فى بنية اللغة نفسها وآلياتها. ذلك أن الجزء الأكبرمن اللغة عبارة عن تواصل واتصال بالصوت البشرى. أما الجزء الآخر فيكمن فى الخصائص المادية للنصوص. سواء كانت مكتوبة بخط اليد أو مطبوعة. كما أن الصور المطبوعة على الصفحة أو المعروضة على الشاشة تمثل شكلا آخر من أشكال اللغة. تختلف قواعدها تمام الاختلاف عن قواعد الكلمة المنطوقة أو المكتوبة. وفى الماضى كان انتقال سوء الفهم ينطوى على خليط من الثلاثة جميعا. والآن وفى ظل وجود الأفلام، والتليفزيون، والإنترنت، توجد تركيبة من الصوت والصورة والكلام والنص فى بعض الأحيان. بيد أن الأمر ما يزال غامضا بالنسبة لنا. لقد أخذت هذا المنظور من تاريخ أطول زمنا. وبدأت قصتى مع قوة الكلمة المنطوقة والنص المكتوب بخط اليد فى القرن السابع بقصد إنهاء هذه القصة فى عالم الكلمة المطبوعة والصورة المطبوعة فى نهاية القرن العشرين. بيد أنه منذ اللحظة التى نادتنى فيها زوجتى لمشاهدة البرجين المحترقين فى التليفزيون يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١م. شعرت أن هذا لم يعد ممكنا. ففى الأيام التى أعقبت هذا العمل الكارثى من أعمال القتل الجماعى. تمت إعادة إحياء هذا النمط من الاتصال العام الذى كان قد مات منذ زمن طويل. فقبل ذلك اليوم. كنا نتحدث عن مجموعة واحدة من الفروض ونكتب فى إطارها. وبعد ذلك اليوم. أخذنا نفعل الأشياء بشكل مختلف. وليس هذا حكم قيمة، وإنما هى ببساطة حقيقة يمكن ملاحظتها. لقد تحولنا باتجاه نوع جديد من التسجيل .

وكلمة «تسجيل». كلمة تصف نوعية الكلام أو الكتابة المناسبة لمواقف بعينها [٣] .ذلك أن الكلمات التى تتقافز حول غرفة خزانة تختلف عن تلك الكلمات التى يمكن أن تسمعها فى لقاء اجتماعى بالكنيسة. ولن يكون أى من شكل الكلمات المستخدمة فى

أحد الموقفين مناسبا للموقف الآخر. فالبشر يتوافقون بشكل غير عادى لاستخدام التسجيل الصحيح الذى يناسب مختلف الظروف. ومن ثم فالسؤال الآن هو. ماذا كان التسجيل الذى استخدمه الناس عندما ووجهوا بموقف غير مسبوق فى ١١سبتمبر ٢٠٠١م. فبالنسبة لموقف كارثى يشبه نهاية العالم. اختار رئيس الولايات المتحدة ومستشاروه تسجيلا كارثيا. كانت تلك نهاية العالم الذى عرفوه؛ فقد أقبل عليهم عصر جديد أشد ظلمة. وعلى أية حال. لم تكن لهذا التحول الغريزى فى الحوار النتائج التى كانت مستهدفة بالضبط. كما لم تنجح تماما أية محاولة لاحقة لاستخدام أدلة التسجيل الجديد. وكانت إحدى النتائج لهذه الحادثة أنها ارتبطت مباشرة بالذكريات الكامنة منذ زمن طويل. وهى الذكريات التى تشكل موضوع هذا الكتاب .

ما إن فرغت من الكتلة الرئيسية لهذا الكتاب وتعرفت على نقاط أخرى. حتى تم استثارة مفهوم نبوءة «نهاية العالم»، سواء عن عمد أو بالصدفة. لقد فكرت فى جلادستون سنة ١٨٧٦م وهو يردد مثل أنبياء العهد القديم فى الكتاب المقدس صارخا بأن التركى همجى. وفكرت أيضا فى أوربان الثانى وهو يخاطب ذلك الجمع الغفير فى كليرمون. وللكلمات أجنحة على حد تعبير هوميروس فى الإلياذة [٤]، ومع الإنترنت، والبريد الإلكترونى. والتليفزيون والراديو والأفلام، يمكن للكلمات أن تطير إلى مدى أبعد مما كانت تصل إليه أيام أن كانت المطبعة وحدها. وتزيد وسائل الإعلام هذه بوقود من خطاب نبوءة نهاية العالم القديمة يمكن أن تكون له عواقب لا يمكن التنبؤ بها. وقد أخبرنا الروائى دوجلاس آدامز **Douglas Adams** فى روايته **Hitchhinker's Guide to the Galaxy** :

«إن من المعروف جيدا بطبيعة الحال أن الكلام الذى يلقى على عواهنه يكلف البعض حياتهم، ولكن لا يتم تقدير الحجم الكلى للمشكلة دائما .

«فعلى سبيل المثال. فى اللحظة نفسها التى قال آرثر: «يبدو أن لدى صعوبة هائلة فى أسلوب حياتى» انفتح ثقب غريب فى نسيج استمرارية المكان. الزمان وحمل كلماته القهقرى بعيدا فى الزمان عبر مسافات لانهائية من الفضاء لتصل إلى مجرة

http://al-maktabeh.com

نائية بها كائنات غريبة محاربة تعقد اجتماعا فى مؤتمر على شفا معركة مخيفة بين النجوم .

.... فى اللحظة نفسها كانت عبارة «يبدو أن لدى صعوبة هائلة فى أسلوب حياتى» تسرى عبر طاولة الاجتماع .

ومن سوء الحظ أن هذه العبارة فى لغة الكائنات الغريبة كانت تحمل معنى أقصى إهانة مرعبة يمكن تخيلها، ولم يكن هناك من رد يوازيها سوى شن الحرب الرهيبة التى استمرت على مدى القرون ...»[٥] .

ومن منظور سنة ٢٠٠٣م يبدو أن مثل هذه الحرب الطويلة الممتدة المملة (ضد البشر) ربما تكون قد بدأت تدور رحاها. ليس فى الفضاء الروائى الرحب وإنما على الأرض .

وإذا كانت ثمة عبرة أخلاقية فى الأحداث التى وصفتها فى هذا التاريخ الطويل. فهى أن الكلمات والصور أسلحة. ولسنا نعرف أين ومن سوف تقتله هذه الأسلحة أو تجرحه حين نطلقها. تذكر القصة القديمة، لامعنى للقلق بشأن الرصاصة التى تحمل اسمك. وإنما يجب أن تقلق للغاية بشأن الرصاصة المكتوب عليها. لمن يهمه الأمر».

أندرو هويت كروفت

٢٠٠٢م-٢٠٠٣م

الجـزء الأول

(١)

" نحمدك أيها الرب"
- ليبانتو ١٥٧١م

فى يوم ١٤أغسطس ١٥٧١م مرت راية سفينة عملاقة من الحرير عبر شوارع مدينة نابولى المكتظة [١].كانت تلك الراية قد طرزت بناء على أوامر من البابا لكى تكون راية عالم المسيحية الغربية. ولكى ترفرف على أعلى صارى سفينة فى أسطول العصبة المقدسة الذى كان يستعد للإبحار متوجها إلى ساحة المعركة. كانت الراية البابوية. وبها شكل ذهبى ضخم للمسيح مثبتة بالمسامير فى الصليب الذى كان ينوء به كاهل الجنود الإسبان ذوى الأجسام الممتلئة وهم يحملونه فى موكب استعراضى انطلق من عتبات كنيسة سانتا كلارا. وبينما كانت الراية البابوية الزرقاء تتحرك بين جموع الناس فى المدينة. أمسكت حالة غير عادية من سكون الهواء بخناق جميع الذين كانوا يتفرجون عليها. وقبل ساعة من ذلك كان النبلاء داخل الكنيسة. ومعهم الرهبان والقساوسة. قد وقفوا صامتين بلا حركة وقد شخصت أبصارهم جميعا صوب قائد أسطول العصبة المقدسة دون جون حاكم النمسا. وانحنى الأدميرال الشاب. الذى كان متأنقا فى زى مهندم من الذهب والساتان القرمزى والمخمل الأبيض. أمام مذبح الكنيسة ليسلمه ممثل البابا. الكاردينال جرانفيل. العكاز الذى يرمز إلى مهمته وأشار إلى الراية الكبيرة من خلفه. وقال الكردينال وهو يحثه. «خذ هذه الشعائر التى ترمز للرب الذى تحول جسدا. هذه الرموز التى تشير إلى الديانة الحقيقية. ولسوف تمنحك النصر المجيد على عدونا الكافر وبيدك سوف تحط من كبريائه».

http://al-maktabeh.com

وتحت صليب المسيح كانت شعارات ملك إسبانيا والأب المقدس البابا بيوس الخامس. مع شارة جمهورية البندقية. وقد ربطت فيما بينها سلسلة ذهبية كبيرة. رمزا لقوة الإيمان الذى يربطهم سويا. ومن تلك السلسلة. كانت تتدلى حلية عرف الديك التى كانت الشعار الخاص بدون جون، بحجم أصغر نسبيا[٢]. لقد كانت تلك الشعارات علامة موجزة على لحظة اتحاد نادرة. فللمرة الأولى على مدى ما يزيد على قرن من الزمان اتحد العالم المسيحى [٣] بشكل قوى ليخوض معركة ضد العالم الإسلامى[٤]. لقد أضفيت القداسة على الحرب ليتم شنها تحت رعاية صورة المسيح الذهبية. وكان البابا قد أعلن أن أولئك الذين يحاربون فى هذه الحرب سوف ينالون الغفران، شأنهم شأن الصليبيين الأوائل الذين حاربوا من أجل الضريح المقدس. وسوف يعفى جميع من يموتون تحت راية هذه المعركة من أشد ضروب التطهر قسوة [٥].

وعلى مسافة ثمانمائة ميل شرقا. كان هناك احتفال مشابه. وإن كان أقل عمومية. قد انتهت مراسمه. فمن خزانة القصر السلطانى فى إستنبول أخرجت حزمة ضخمة ملفوفة فى الحرير مرسلة من السلطان سليم الثانى إلى على باشا قائد الأسطول العثمانى. وكانت تحتوى أيضا على راية، ولكنها كانت راية ذات لون أخضر حيوى بدلا من اللون الأزرق المسيحي. كان ذلك العلم أكبر من علم البابا بيوس الخامس وعهد به إلى قائده. وكان هذا واحدا من أقوى الشعارات والرموز فى العالم الإسلامي. فعلى سطحه كانت أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون قد طرزت بخيوط من ذهب. وكان مشهورا أنها تكررت أكثر من ٢٨٩٠٠ مرة. وكانت الحروف العملاقة بالخط الكوفى تحيط ببعضها البعض وتتداخل وهى تكرر هذه الأسماء نفسها بشك لانهائي. وبخط أصغر. وبحيث يبدو السطح الكلى للراية من بعد وكأنه شبكة لامعة من المصوغات الذهبية[٦].

كان القائدان نقيضين فى الرتبة والمكانة وتجربة الحياة. فقد كان دون جون الأخ الطبيعى المعترف به لملك إسبانيا. فيليب الثانى. والابن غير الشرعى من علاقة أشهر قليلة أمضاها الإمبراطور شارل الخامس مع أرملة شابة اسمها بربارا بلومبرج Barbara Blomberg فى المدينة الإمبراطورية ريجينسبرج. وكان دون جون قد جاء

إلى نابولى بعد أن خاض حربا وحشية فى جبال إسبانيا الجنوبية. لكى يقود أكبر أسطول جمعته أوربا المسيحية على الإطلاق. ولم يكن قد خاض من قبل أبدا حربا فى البحر. وعلى النقيض منه. كان القبودان. القبطان)على باشا. قائد الأسطول العثمانى. جنديا محنكا فى حروب البحر. وكان مرهوبا إلى أقصى حد فى غرب البحر المتوسط وفى بحر إيجه على السواء. كانت أصوله متواضعة. فقد كان ابن مؤذن[٧] ولكن القائدين. مع كل الاختلافات فيما بينهما. كانا يشتركان فى نواح عديدة. فقد كانا مثل توأم من الأمراء الموالين فى ملحمة شعرية. يتوقان للقتال. تزينهما خصال الفروسية والشرف. وقد اختار القدر لكل منهما مصيرا مختلفا عن مصير الآخر. فكان لأحدهما أن يموت من قذيفة بندقية فى الجمجمة. ثم قطعت رأسه ورشقت فوق سن رمح. وكان للآخر أن يعود منتصرا. لينال التكريم والحفاوة. وتحتفل بانتصاره التصاوير. وأعمال الحفر. والشعر. والعملات. والميداليات، والمقالات والبحوث المطولة. على مدى أكثر من أربعة قرون .

وقصص المواجهة بينهما وفيرة. بعضها يقترب من الحقيقة بدرجة كبيرة. ويتجمل البعض الآخر ليحكى حكاية أفضل. وما يزال من غير المؤكد أين ينتهى التاريخ وأين تبدأ الأسطورة. إذ إن المعركة التى خاضاها فى خليج ليبانتو ذات طبيعة مزدوجة. الحدث نفسه. ثم نموه وتطوره فيما بعد. هذه المرحلة اللاحقة. أى ليبانتو الأسطورية. قيض لها أن تكون الصورة البلاغية المعبرة عن الصراع بين العالمين الإسلامى والمسيحي. وربما نجد فى حل لغز ليبانتو. نقطة الدخول إلى تلك الأسرار العميقة. فقد كانت للصراع الأكبر جذور عميقة. فعلى مدى ألف سنة كان العالم المسيحى يشعر أنه تحت وطأة التهديد من جراء القوة الماثلة فى الشرق. وفى بعض الأحيان، مع الحروب الصليبية فى شرق المتوسط. مثلا. وفى صقلية وإسبانيا. كانت أوربا هى التى بدأت بشن الحرب على العدو. وعلى مر القرون. كان هناك إحساس يحتضن فكرة التهديد الإسلامى قد استولى على عقل العالم المسيحى وقلبه. وبحلول القرن السادس عشر تم تقبل الصراع باعتباره العلاقة الطبيعية والحتمية بين الشرق والغرب. ومثل إدراك طفل. كان هناك وهم بأن صعود الشرق يستدعى سقوط الغرب والعكس صحيح. وفى سنة ١٥٧١م كان هناك توازن بين الخصمين.

لقد فرض الباحثون من جديد الاعتقاد الشائع بوجود الخطر والشر النابع من الإسلام. ذلك أن المسلمين. كما يقول بيديه المبجل[*]. الذى كتب فى القرن الثامن الميلادى كانوا أبناء هاجر من النبى إبراهيم. ويعتقد كثير من المسلمين أنها هى وابنها إسماعيل مدفونان تحت الكعبة قبلة المسلمين فى صلواتهم. وعلى أية حال. فإن المسيحيين أيضا من نسل إبراهيم عن طريق إسحق. وما هو أسوأ من وصمة عدم شرعية بنوة إسماعيل. حسبما يزعم بيديه. أن هناك لعنة أشد إظلاما لحقت بشعوب الشرق. فقد استنتج المسيحيون أنه بينما ينحدر الناس جميعا من نسل آدم وحواء. فإن المسلمين جاءوا من نسل قابيل الذى طرد من حضرة الرب لأنه اغتال أخاه هابيل. وبسبب جريمة قابيل نالته الحسرة لأنه سيكون هاربا وهائما على وجهه فى الأرض ..... وكل من سيجدنى سوف يذبحنى»[٨][*] وقد أجبروا على السكن «شرق عدن».. ولم يكن ممكنا أن يكون هناك بين أبناء قابيل وغيرهم من بنى آدم، سوى الذبح والانتقام بسبب الجريمة الأولى التى قتل فيها الأخ أخاه. وهكذا نما الصراع من تراث ممتد فى رحاب الزمان من الحقد والكراهية بأثر رجعى بين أهل الغرب وأهل الشرق[٩].

كان معنى هذا على المستوى العملى أمرًا يصعب قبوله. فقد كان من الطبيعى. عادة. أن يهين المسيحيون أعداءهم فى المعركة ويسبونهم بأنهم أبناء قابيل وأنهم «أبناء سفاح». أو أبناء. «المسيح الدجال». أما المسلمون فكانوا يسبون أعداءهم بقدر مساو من الذم والإهانة. وبدا وكأن الصراع بين الشرق والغرب دائم وحتمى ومقدر سلفا فى عيون المسلمين والمسيحيين[١٠]. بيد أنه لم يدمر نسيج المصالح الاقتصادية والسياسية المتبادلة التى حكمت عالم البحر المتوسط والبلقان. وهى المناطق التى

(*) بيديه المبجل Bede The Venerable (٦٧٣-٧٣٥م) باحث إنجليزى من العصور الوسطى عاش فى أحد الأديرة. وكتب عدة مؤلفات أهمها كتاباته التاريخية. وقد كان الرجل من طراز أقل من المتوسط على الرغم من المبالغة الغربية المعتادة فى حجمه وتأثيره .(المترجم)

(*) تكوين. ٤. ١٤(المترجم)

تشكل الحدود والتخوم بين العالمين الإسلامى والمسيحى. فقد كانت المصالح التجارية تلعب دورها على الدوام. ولاسيما فى حالة البندقية وغيرها من الدول فى البحر الأدرياتى. والتى كانت تفضل التفاوض مع القوى الإسلامية بدلا من محاربتها .

كان لدى القوى المسيحية فى حوض البحر المتوسط الكثير مما تخشاه من الإمبراطورية العثمانية وأهدافها التوسعية [١١]. وتعدت الرغبة فى النصر حدود الحسابات السياسية. ولم يكن هذا وقفا على البابا مهندس التحالف الكبير. فبعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. بات كثير من المسيحيين على قناعة بأن الزحف الظافر للإسلام لا يمكن إلا أن يكون جزءا من خطة الرب. فقد كانت ويلات المسلمين وسيلة لكى تطهر الجنس البشرى وتجعله أفضل فى إحساسه بأخطائه وخطاياه [١٢]. فهل كان المسيحيون ينالون العقاب بسبب خطايا الإيمان الضعيف والانشقاق بينهم فى الأيام الأخيرة. لقد كانت أوربا المسيحية قد قاومت الهجوم الإسلامى على مدى قرن من الزمان. ولكنها لم تحرز سوى القليل من الانتصارات الحاسمة. فهل هناك علامة أفضل من ذلك على أن العناية الإلهية سوف تتجدد من خلال نصر عظيم مؤزر على قوات الظلام ؟

كذلك كان النصر يستحوذ بالقدر نفسه على عقول سليم الثانى ومستشاريه فى إستنبول[١٣]. فعلى الرغم من أن جيوش «الإسلام. كانت تواصل الزحف ضد الكفار. فإن سرعة التقدم كانت قد تباطأت. ذلك أن جد سليم وسميه. سليم الأول. كان قد فتح أراضٍ شاسعة فى مصر وشبه الجزيرة العربية وشرق المتوسط ووضعها تحت السيادة العثمانية، أما والده السلطان سليمان القانونى، فكان قد استولى على جزيرة رودس وقلعتها وبلجراد وبودابست. واستولى على السهل المجرى حتى وصل إلى أسوار فيينا. وكان سليمان قد دمر مملكة المجر فى معركة موهاكس Mo-hacs سنة ١٥٢٦م. بيد أنه كانت لسليمان نكساته أيضا. فقد أخفق مرتين فى الاستيلاء على فيينا. سنة ١٥٢٩م وسنة ١٥٦٦م. وكانت جزيرة مالطة قد صمدت فى وجه كل المحاولات التركية لحصارها واجتياحها. وفى البحر المتوسط. كانت المعركة البحرية

الكبيرة عند بريفيسا Prevesa سنة ١٥٣٨م. قد جرت أمام الأراضى اليونانية شمال خليج ليبانتو دون أن تسفر عن نتيجة حاسمة .

كانت الدولة العثمانية قائمة على أساس التوسع اللامحدود وشن الحرب سنويا لمد حدودها. فبغير الغزو سوف تضمحل. وفضلا عن ذلك. كان جميع المسلمين ملتزمين حقا بواجب الجهاد لمد حدود دار الإسلام. وكان هذا العبء أثقل ما يكون على السلطان سليم الثانى الذى كان قد ألزم نفسه بأن يمد حدود دار الإسلام بالاستيلاء على جزيرة قبرص التى كانت تحت حكم البندقية. وقد استغل ذريعة أن القراصنة الذين كانوا يبحرون من الجزيرة كانوا يعيقون تحميل سفنه ويزعجون المدن الساحلية فى الأناضول. ومع أواخر سنة ١٥٧٠م. بدا من المحتمل أن الجزيرة سوف تسقط فى أيدى جنوده. وحتى مع ذلك. فإنه كان يرغب فيما هو أكثر من الاستيلاء على جزيرة. فقد كان السلطان يطلب من قادة جيوشه تحقيق نصر مدو مثل ذلك النصر الذى تحقق فى موهاكس. وهكذا. كان قائد أسطوله على باشا يعرف أنه ينبغى أن يدمر الأسطول المسيحى تدميرا كاملا ويعود محملا بالغنائم والأسرى .

وحشد الخصمان قواتهما من مناطق نائية فى عالم البحر المتوسط. وطوال صيف سنة ١٥٧١م تحركت مجموعات صغيرة من السفن تجاه نقاط التجمع المحددة. وهى ميناء مسينا بالنسبة للمسيحيين الذين يقودهم دون جون. وبحر إيجة بالنسبة للأسطول الحربى السلطانى تحت قيادة على باشا. وكانت تلك سفنا حربية من النوع الذى بنى ليناسب الظروف الخاصة بالبحر المتوسط. ولسفن القتال فى البحر المتوسط عالمها الخاص الذى يختلف تماما عن عالم المعارك التى كانت تجرى بين السفن المبحرة فوق صفحة المحيط الأطلنطي. فهى سفن طويلة ترسو منخفضة على المياه كما أنها نحيلة بالمقارنة مع نظيرتها من السفن الشمالية الصلبة. وتبدو سفن القتال المسطحة قادرة على الحركة بغض النظر عن قوة الريح أو اتجاهها. وعلى الرغم من أن هذه السفن الرشيقة كانت مجهزة بشراعين أو ثلاثة أشرعة مثلثة. فإن قوتها المحركة الرئيسية كانت تتمثل فى صفوف من المجاذيف التى كانت تمتد إلى

http://al-maktabeh.com

الخارج مسافة أربعين قدما أو يزيد على كل من جانبى السفينة لتضرب بشكل يبدو وكأنه انقباضات إيقاعية. وهى بحد ذاتها. لو كان البحر هادئا والريح مواتية. تشبه سواقٍ مائية عملاقة تنزلق على سيقانها الطويلة فوق سطح الماء. وعلى الرغم من أن السفن المسطحة كانت أسرع إذا استخدمت الشراع منها إذا اعتمدت على المجاذيف فقط. فإن قوتها فى المناورة كانت تعتمد على قوة المجذفين. وكان معنى هذا أن السفينة لا تخاطر إطلاقا بأن تتلقى ضربة تقذف بها على الشاطئ الصخرى. وهو ما كان يمثل خطرا دائما على السفن التجارية ذات الأشرعة والجوف العميق ثقيلة الحركة. فقد كان بوسع السفينة المسطحة أن تتحرك إلى الخلف بنفس سرعتها إلى الأمام بغاطسها الضحل. ويمكنها أن تتخطى الأماكن الضحلة التى تعيق السفن من الأنواع الأخرى .

وعلى مدى القرون تطورت أشكال عديدة من السفن المسطحة. وكان بعضها لحمل البضائع. ولكن مع منتصف القرن السادس عشر كانت قد تطورت بحيث تصلح لغرض واحد فقط. الحرب. وكانت سفينة الحرب العاملة فى البحر المتوسط قد تم تعديلها على مدى عدة أجيال. من السفينة الإغريقية ثلاثية المجاذيف التى دمرت الأسطول الفارسى فى معركة سلاميس قبل ألفى سنة تقريبا [١٤]. وبعد سنة ١٥٠٠م. كانت لبعض السفن بنية متفوقة فى مقدمة السفينة ومؤخرتها. بحيث تؤوى المدافع والرجال المحاربين. بيد أن جوهر السفينة المسطحة بقى كما هو. وكما كان الحال فى بعض العصور الكلاسيكية. كانت السفن المسطحة مجرد منصات عائمة يمكن للرجال على متنها أن يصعدوا على ظهر السفينة الأخرى ويتغلبوا على طاقمها. باعتبارها درقة أساسية لحمل المجذفين والمقاتلين. وفى الأصل. كما كان الحال فى قوارب التجذيف الصغيرة. التى كانت موجودة فى جميع موانئ البحر المتوسط. كان كل رجل يأخذ مجذافه ولكن هذا بات خيارا مكلفا لأن المجاذيف صارت تصنع من أخشاب غالية الثمن يستورد معظمها من شمال أوربا. ومنذ منتصف القرن السادس عشر ظهر طراز جديد من التجذيف قلل من عدد المجذفين. فقد كان المجذفون ثلاثة أو أربعة. وقد يصل العدد أحيانا إلى خمسة رجال. يجلسون جنبا إلى جنب على مقاعد

طويلة. وكلهم يشدون المجاذيف مرة واحدة شدة جماعية طويلة. وكان من السهل بعد ذلك إضافة المزيد من الرجال لزيادة قوة المجاذيف .

كانت قوة سفينة الحرب المسطحة تكمن فى الأفراد العاملين عليها [١٥]. فعلى متن كل سفينة كان يجب أن يتواجد عدد من المقاتلين المحترفين المجهزين جيدا. هم طاقم القتال[١٦]. أما على السفن الإسلامية وسفن البندقية. فكان كثير من المجذفين مسلحين وينضمون إلى المقاتلين. وكان من بين المجذفين البنادقة. الذين كانوا من المتطوعين. أولئك الذين يجلسون على طرف كل أريكة من أرائك المجذفين ومع كل منهم سيف ورمح قصير فى متناول أيديهم. على حين كان الرجل التالى يحمل قوسا وجعبة من السهام. وعندما كانت السفن تقترب من بعضها البعض كانوا يتركون مجاذيفهم للرجل الثالث فى الصف ويتجمعون وهم على استعداد للاحتشاد والقفز على سطح السفن الى تقع فريسة لهم. ولم تكن هناك سفينة تجارية محملة بالبضائع تأمل فى أن تنجو من مخالب سفينة مسطحة تبحر بكامل سرعتها. وكانت معظم السفن التجارية تحاول الفرار لأن البديل كان فظيعا. فقد كان هجوم السفن الحربية المسطحة يشبه انقضاض الصقر على فريسته. إذ كانت مقدمة السفينة الحادة تقترب من السفينة التى تحاول الفرار أكثر فأكثر، وتقترب منها لدرجة أن طاقم السفينة التى تتعرض للهجوم كان يمكنه أن يرى المهاجمين وهم يتأهبون لاعتلاء متن سفينتهم. وعند تلك اللحظة كانت كثير من السفن تستسلم. وأية سفينة كانت تستمر فى محاولة الهرب كانت تتعرض لوابل من طلقات السهام أو طلقات البنادق ويتم قتل طاقمها. ولم يكن يتم استخدام المدافع الضخمة فى السفينة المهاجمة إلا نادرا لأسباب اقتصادية

كانت السفن المسطحة مثل الطيور الجارحة. تعيش على السفن الأضعف والأقل تسليحا :

« مثل الديناصور آكل اللحوم كانت سفينة الحرب المسطحة تتسيد بيئتها. ولكنها كانت مثل الديناصور تكبر فى حجمها باستمرار وتزداد قوة لكى تنافس أبناء جنسها حتى صارت. مثل الديناصور. غير قادرة على الحركة. لقد كانت القوة التكتيكية لسفينة الحرب المسطحة فى البحر المتوسط. بقوتها التى تشبه أسنان الديناصور التيرانوسوروس ركس وفكيه. تعتمد على المدد الدائم من اللحم والدماء» [١٧] .

وما لم تكن سفينة الحرب المسطحة تحمل ما يكفى من المجذفين فإنها لم تكن تستطيع البقاء. لقد كان الكثير من الإغارات والافتراس الذى لا يتوقف يهدف إلى الإمساك بالقوة البشرية وليس الاستيلاء على حمولات السفن. فعندما كانت إحدى سفن المسلمين تستولى على سفينة مسيحية. كان يتم استرقاق كل من على متنها من غير المسلمين. وغالبا ما كان الطاقم وأى مسافر يعتبرون الغنيمة ذات القيمة الأعلى. فقد كان يمكن الحصول على فدية البعض. ويتم بيع البعض الآخر بثمن جيد فى أسواق شمال أفريقيا أو إستنبول .

وإذا ما اعترضت سفينة مسيحية سفينة للمسلمين. كان من الضرورى أن يحدث الشىء نفسه بالضبط. إذ يقع جميع من هم غير مسيحيين فى الأسر ويتم استخدامهم فى العمل مجذفين. ولكن السفن الإسبانية والفرنسية والبندقية كثيرا ما كانت تنقض على سفن مملوكة لأمم مسيحية أخرى بالقدر نفسه. وكانت هناك أعذار كثيرة تتيح لسفينة حرب أن تستولى على إحدى السفن التجارية. وربما كانت تبحث عن سفينة مسيحية تقوم. بتهريب الممنوعات». زعما بأن الطاقم كان يتاجر مع العدو. فقد كان فرسان القديس يوحنا. الإسبتارية. الذين يبحرون من قلعتهم فى مالطا محل خشية الجميع من المسلمين والمسيحيين على السواء. وإذا أوقفوا سفينة مسيحية فى المياه الشرقية. كان لابد لهم من تفتيشها بدقة بحثا عن أى شىء فى حمولتها يمكن وصفه بأنه غير قانونى. وعندما لا يجدون شيئا واضحا كان من عادتهم البحث عن. قماش يهودى» فى أثناء التفتيش. ويشيرون إلى أن السفينة كانت تتاجر مع السكان اليهود فى الموانئ الإسلامية(*). وكان هذا مبررا كافيا للاستيلاء على الحمولة بكاملها. واسترقاق طاقم السفينة.

(*) من الأمور اللافتة للنظر بشدة فى هذا الكتاب. وغيره من الكتب الغربية. أنه يتم حشر اليهود واختلاق الفرصة للحديث عنهم دونما مسوغ علمى أو منهجى. ففى هذا الكتاب الذى يتناول العلاقة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية لا نجد مبررا لإقحام اليهود فى الموضوع خاصة وأنهم لم يكونوا كيانا سياسيا. أو حضاريا مستقلا. مثل الحضارة الإسلامية أو الحضارة الأوربية الكاثوليكية فى العصور الوسطى. فضلا عن أن اليهود أتباع دين. شأنهم شأن أتباع الديانات الأخرى- وليسوا أمة ولا أصحاب حضارة مستقلة . ولكنها أكاذيب الصهيونية التى تتسرب عبر المحررين فى دور النشر فى الغرب بشكل عام (المترجم)

فى غضون القرن السادس عشر. صارت سفن الحرب المسطحة أكبر حجما. على حين نمت التجارة على امتداد السواحل. وازدهرت القرصنة. وفى غالب الأحوال كانت هذه السفن على شاطئ شمال أفريقيا. أو من فيومى Fiumi المسيحية على رأس البحر الأدرياتى. منشغلة بالإغارة والنهب فقط . من موانئ مثل الجزائر الإسلامية. التى كانت أعظم ميناء على ساحل شمال أفريقيا. وبصورة متزايدة أخذ اقتصاد السفن يعتمد على العبيد أكثر من الاعتماد على الرجال الأحرار فى تكوين طواقم السفن. وبحلول منتصف القرن. كان المجذفون فى كل أسطول تقريبا. باستثناء أسطول مدينة البندقية. التى استمرت فى تجنيد الرجال الأحرار وحدهم. من العبيد أو من أسرى الحرب. أو من أرباب الجرائم. وعلى متن كل سفينة كان يوجد أكثر من مائة رجل. وكلهم مقيدون بالسلاسل فى أماكن التجذيف الخاصة بهم. وكانت تفك قيود عدد قليل من المجذفين أحيانا ليتحركوا داخل نطاق جسم السفينة الضيق. فقد كان معظمهم يعيشون فى نطاق مساحة قدمين مخصصة لكل منهم. إذ كانوا ينامون. ويأكلون. ويتبرزون. وينزفون. ويتقيحون. وغالبا ما يموتون على الأريكة نفسها. وكانت الفئران والصراصير تمرح فى فضلات الطعام العفنة المختلطة بالروائح الكريهة والبول الذى تجمع تحت أقدامهم. وكان قائد السفينة الحكيم الذى يعرف كيف يمكن للمرض الوبائى أن ينتشر فى مثل هذه الظروف. يأمر بغسل ما تحت أقدام المجذفين بانتظام فى سفينته [١٨]. وعندما كانت الفئران والقمل تتكاثر بطريقة لا يمكن السيطرة عليها. كان الحل النهائى وضع الطاقم على الشاطئ تحت الحراسة. وطى الأشرعة، ثم تملأ السفينة بالأحجار. ويتم تغطيسها فى المياه الضحلة بحيث تغمر المياه سطح السفينة وجسمها العلوى تماما. وتغرق الهوام والحشرات الضارة التى لا تستطيع ولا تريد أن تهجر السفينة الغاطسة.

فى بهيم الليل. وفى الضباب. أو فى شفق الفجر. كان وجود السفينة المسطحة ينكشف قبل رؤيتها بوقت طويل. إذ إن الرائحة المنبعثة من مقاعد المجذفين كان يمكن تمييزها على بعد مسافة قد تصل إلى ميلين. وكان يقال إنك يمكن أن تتعرف على عبد سابق على سفينة مسطحة أو جندى بحرى سابق. بسبب الرائحة النفاذة المنبعثة

منه. كما لو كانت هناك وصمة لذاكرة الشم تنبئ عن الأيام الشريرة السابقة. فعلى متن السفينة المسطحة التى نادرا ما كان يبلغ طولها أكثر من ١٥٠ قدما. كانت كل الدرجات الاجتماعية وفروقها تتوارى بفعل الأبخرة النتنة المتصاعدة من القذارة والوسخ. فلم يكن الجنود الذين يرتدون أنصاف الدروع. ورجال البنادق والمدفعجية، بل والضباط والقادة. منعزلين إطلاقا عن البشر الوضعاء الذين يسحبون السفينة بالمجاذيف صوب مقصدها .

على أية حال. كانت الخدمة فى مقاعد المجذفين بالنسبة للرجال المربوطين بالسلاسل. سواء كانوا عبيدا على السفن السلطانية العثمانية. أو القراصنة فى شمال أفريقيا. أو كانوا مساجين من أرباب الجرائم على السفن المسطحة لملك إسبانيا الكاثوليكي. أو ملك فرنسا المسيحي. نوعا من الموت الحى. وكان يمكن أن تأتى نهايتهم بطرق عديدة. لم يكن ممكنا أن يموتوا جوعا، لأنه لم يكن من صالح أى قبطان سفينة أن يخسر هؤلاء المجذفين المهرة دونما داع. فقد كان الفول والذرة والقليل من اللحم مع النبيذ على السفن المسيحية. القوت الرئيسي. على حين كان الماء العذب متاحا على الدوام عند كل أريكة لرى ظمأ المجذفين. وكان لكل رجل أن يشرب لترين يوميا فى عز موسم الإبحار الصيفى [١٩]. وما إن يتعود المجذف على هذه الحياة. ويبقى حيا فى غضون الأشهر القليلة الأولى. ويتواءم جسمه مع إيقاع المجانيف. فإنه كان يعيش ثلاثين سنة أو أكثر. وكان المرض هو الاحتمال الأكبر فى هذه المعاناة. لأن الجروح وتقطيع الجلد كانت حتمية فى مثل هذه الظروف. أما الضعيف والمريض المشرف على الموت. فقد كان يتم فك قيوده ليلقى ببساطة من فوق ظهر السفينة. وكانت الضربات فقط التى تؤدى إلى أداء أفضل. ذلك أن السوط فى يد قبطان السفينة كان يحدد السرعة التى تسير بها السفينة .

وفى أوقات الحرب بصفة خاصة لم يكن الطلب على المجذفين يتوقف. ولم يكن هناك أبدا من الرجال ما يكفى لملء مقاعد المجذفين. وكان كثير من عبيد السفن يروحون ضحايا الغارات التى لا تعد ولا تحصى على طول سواحل البحر. حيث كان البشر هم الجائزة الكبرى فقد كان يمكن لأحد الأساطيل العثمانية أن يقف قبالة الشاطئ

http://al-maktabeh.com

متواريا عن الأنظار ويأمر القبطان جواسيسه باستكشاف المستوطنات المحلية. وفى الليل ترسل مجموعة إلى الشاطئ. لحرق القرى. وقتل المسنين. وجلب الشباب. وحشد أكبر عدد ممكن من القادرين بدنيا يمكن أن يجدوهم .. ومع أول ضوء تنطلق السفينة. أو أحيانا كان ينزل أسطول صغير فى منطقة ما ليبقى فترات أطول، لينشر السلب والتخريب فى دائرة قطرها عدة أميال .

كان الرجال الذين يملأون مقاعد المجذفين على معظم السفن الحربية المسيحية إما من القرويين المسلمين أو من أسرى الحرب. ولكن كان من بينهم أيضا كثير من المسيحيين الذين صاروا من الحثالة بسبب آلية القانون. ففى إسبانيا كانت الديون وأعمال الفتنة والشغب. وحتى الجرائم التافهة. يمكن أن تؤدى إلى حكم بالعمل على مقاعد المجذفين فى السفن. وعندما تصاعد الطلب على المجذفين. كان فيض المجرمين الذين أدانتهم المحاكم وحكمت عليهم بالعمل فى سفن المجاذيف يزداد عددا [٢٠]. وغالبا ما كان يستمر احتجاز أولئك الذين أمضوا مدة عقوبتهم على سفن المجاذيف ووجب إطلاق سراحهم [٢١]. كان هؤلاء الرجال المقهورون **forzados** أحرارا من الناحية القانونية. ولكنهم فى جميع النواحى الأخرى كانوا يلقون المعاملة القاسية نفسها التى كانت تنالهم من قبل [٢٢]. وفى فرنسا كانت السلطات الكاثوليكية ترسل فيضا ثابتا من البروتستانت للخدمة على متن السفن الحربية ذات المجاذيف. على حين كانت السجون البابوية تفرغ بشكل منتظم لكى تملأ مقاعد المجذفين. بيد أن البعض الآخر كانوا يختارون حياة المجذفين برغبتهم. إذ إن قراصنة سواحل شمال أفريقيا كانوا فى الواقع بمثابة حملة الأسهم فى أحد مشروعات الأعمال التجارية. وكانوا يقدمون القوة العضلية ويخاطرون بحياتهم لقاء نصيب من الأرباح التى قد يجنونها فى إغاراتهم. لقد كان سلاف دالماشيا أحرارا يعملون تحت حماية الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكانوا يمتهنون مهنة قديمة لأن أعمال العصابات فى البحر كانت جزءا من الحياة فى عالم البحر المتوسط على امتداد ألف سنة [٢٣]. وهكذا ربما كانت الأريكة نفسها تجمع بين الملاح الحر. وأسير الحرب. والعبد. والمجرم الذى يمضى فترة عقوبته سنوات من الأشغال الشاقة فى التجذيف .

كان قباطنة البحارة يعتبرون أن طواقمهم مثل الحيوانات المدربة. يعرفون قدراتهم الفردية وجوانب القصور لديهم. وكان لابد من التوازن فى كل أريكة من أرائك التجذيف؛ لأن المهارة الأساسية لسفن التجذيف الحربية كانت تتمثل فى خلط الدماء الجديدة بالمجذفين المجربين. وكان يتم اختيار الرجال وفقا لأحجامهم وأوزانهم. وقوة كل منهم لكى ينتجوا القدر الأكبر من القوة، ومع هذا الهدف. على الرغم من أن ظروف الحياة كانت صعبة ومهينة. فإن عددا قليلا من القباطنة كانوا يتعمدون إساءة معاملة طواقمهم. وكان المدفع فى الأسطول فى القرن السادس عشر مميتا فى مرمى مائتى ياردة تقريبا. ولكن سفينة المجاذيف التى تسير بأقصى سرعة كان يمكنها قطع المسافة فى نصف دقيقة. وهو وقت أقل كثيرا من وقت إعادة شحن المدفع [٢٤]. ولم يكن بوسع طاقم أية سفينة تجذيف أن يحتفظ بالسرعة القصوى لأكثر من عشرين دقيقة وكان المجذفون المحبطون والمرهقون يصمدون وقتا أقل. وكان من المعروف جيدا بين القباطنة أن سفن البندقية وشمال أفريقيا كانت أسرع كثيرا وأكبر كثيرا وأكثر رشاقة من سفن إسبانيا وفرنسا. وكان السبب فى هذا يرجع فى جزء منه إلى التصميم والوزن الميت [الذى لا فائدة منه]لأعداد الأطقم الكبيرة التى كانت السفن الإسبانية والفرنسية تحملها. ولكن هناك عامل الروح المعنوية الذى كان له تأثيره أيضا. ففى السفن الإسبانية. التى كان الأسرى وأرباب الجرائم فقط يقومون بالتجذيف فيها. كانت هذه السفن تستهلك الرجال بلا رحمة مثل مناجم الفضة فى بوتوسى **Potosi** التى كانت توفر الأموال اللازمة لبناء هذه الكثرة من السفن. ولم تكن السفن ولا المناجم مصممة باعتبارها شكلا من أشكال العقاب أو السيطرة الاجتماعية. بيد أن هذا كان هو الحال الذى آلت إليه. أما فى البندقية والأراضى الإسلامية. فكان يمكن للمجذف الحر أن يصير رجلا غنيا بفضل أموال المكافآت أوالغنائم. وفى الجزائر أو إستنبول. كان يمكن للعبد المسيحى الذى يعمل فى سفينة تجذيف لو «صار تركيا». أى اعتنق الإسلام. أن ينتهى به الحال لأن يصير قبطانا. بل كان يمكن له أن يصبح قائد الأسطول السلطانى [٢٥].

كانت كل سفينة سلطانية عثمانية تحمل عددا إضافيا من مشاة الإنكشارية ذوى التدريب الراقى. بعضهم مسلح بالسيوف. أو السيوف التركية. وبعضهم مسلح بالقوس التركى الشهير الذى كان يمكنه أن يخترق كل الدروع تقريبا على مسافة مائة ياردة. وكان بوسع رامى السهام الماهر أن يطلق ستة أسهم فى الدقيقة الواحدة. وبدقة شديدة. كان التدريب على ثنى القوس واستخدامه يستغرق عدة سنوات. ثم بدأ الإنكشارية يستخدمون البنادق التى كان أعداؤهم يستخدمونها. ولم يكن الإنكشارية عادة يتوقعون أن يقاتلوا على سفن الأعداء. فقد كانت السفن المسطحة تستخدم عادة بوصفها وسيلة لنقلهم ليتم إنزالهم على الشاطئ لخوض معركة برية أو لفرض الحصار على قلعة ما. كان بعضهم يلبسون الزرديات. أى الدروع الواقية للجسم المصنوعة من السلاسل الصلب. ، ولكنهم كانوا يحتقرون الدروع المعدنية والخوذات الصلب التى كان الجنود الإسبان يرتدونها. ففى أى رسم يصور معارك تلك الفترة يمكن تمييز القوات المسيحية عن قوات المسلمين بقدر كبير من اليقين. إذ كانت الخوذات الصلب والدروع التى تحمى الصدور فى جانب. على حين كانت العمامة والثوب الفضفاض فى الجانب الآخر. وقد تطورت هذه الفروق بفعل المتطلبات التكتيكية والاستراتيجية. كما تطورت بفعل المواقف المختلفة من الحرب .

لقد كان المسيحيون يمتلكون سلاحا مذهلا له قوة النار الإغريقية التى عرفتها القرون السابقة[٢٦]. وفى الأسطول الذى كان يتجمع ببطء فى مسينا كانت هناك ست سفن لا تشبه أى سفن فى الأسطول العثماني. فمن خلال خبرة البندقية الطويلة فى البحر المتوسط كانت قد طورت من خلال التحسينات السلاح الذى قيض له أن يبرهن أنه السلاح الحاسم. فقد كانت هناك ست سفن طويلة ثقيلة يعلون فوق جميع السفن الأخرى الراسية فى الميناء. وهى مختلفة تماما عن السفن الحربية الملساء التى كانت تحيط بها. كانت هذه سفنا حربية ضخمة مصنوعة من ألواح عريضة تسير بالشراع وبالمجاذيف الضخمة التى يشد كلا منها سبعة رجال أو أكثر. كانت السفن الحربية الضخمة هجينا من السفن الحربية فى البحر المتوسط والسفن الشراعية فى المحيط الأطلنطى[٢٧]. وفوق السطح المخصص للمجذفين. على امتداد الجانبين كان يوجد

صف من المدافع الثقيلة التى يمكنها أن تهشم بقذيفة جانبية سفينة مسطحة أخف فى بنائها. لقد كانت هذه قلاعا عائمة. وكانت سلاحا تنفرد به البندقية .

ولم تكن السفن الحربية الضخمة قد جربت بعد فى ساحة المعركة. بيد أن السفينة الواحدة من هذا النوع كانت تعادل فى قوة نيرانها خمس سفن مسطحة عادية. وكان دون جون مقتنعا بأن السفن الست فى أسطوله ستوفر له التفوق على العثمانيين. إذا ما سارت الأمور على ما يرام [٢٨] وعندما أبحر الأسطول الكبير أخيرا من مسينا. أصدر أوامره بأن تسير السفن كلها بالسرعة البطيئة التى تسير بها السفن الضخمة حتى لا يدخل المعركة دون أن يستفيد من ميزة هذا السلاح السري. أما السبب فى أن البنادقة وحدهم قد طوروا سفينة يمكنها أن تدمر أقوى سفينة عائمة فسيبقى مجهولا إلى الأبد. وربما كان السبب ببساطة أن المواد التى صنعت منها كانت فى متناولهم. كانت فى الترسانة عشر سفن تجارية كبيرة. لم تعد تستخدم فى التجارة مع الشرق. كذلك كان لدى البنادقة وفرة من المدافع البرونزية. وبمزيج من السفن والمدافع صنعوا السفن الحربية الضخمة .

ومن غير المحتمل أن يكون العثمانيون قد طوروا سفنا حربية ضخمة لأنفسهم. على الرغم من أنهم لم يلبثوا أن بنوها عندما شاهدوا قوتها فى ميدان المعركة. ولم يكن السبب راجعا إلى نقص المهارة والمعرفة. فقد كان رماة المدافع ومدفعية الحصار التركية من نوعية راقية. وإنما كان السبب أنهم كانوا يعرفون أن طريقتهم فى الحرب كانت الأكثر تفوقا. إذ كانت مرتبطة بقوانين الشرف التى لا توازيها. بشكل فضفاض سوى مفاهيم الفروسية الأوربية. ففى الغرب كان الشرف مفهوما يرتبط فقط بالطبقة المتربعة على قمة المجتمع. إذ كان معظم الناس خارج نطاق قوانين سلوك الفروسية. وكان يعد من قبيل العبث لأى واحد لا يرتبط بالأصول العريقة النبيلة أن يدعى لنفسه المزايا والخصال التى كانت للفرسان وحظوتهم. ولذلك كان لابد لميجيل سرفانتس **Migel de Servantes** . والذى كان من بين الآلاف الذين كانوا فى انتظار دون جون فى مسينا. وكان من سوء حظه أن فقد ذراعه فى معركة ليبانتو البحرية، أن يجعل

بطله دون كيخوته Don Quixote رجلا مجنونا فى عيون جيرانه[٢٩] وتمثل جنونه فى أنه عاش وفق القوانين القديمة للفروسية التى لم تكن لتنطبق عليه. ولكن فى أسطول على باشا. كان حتى أكثر المحاربين المسلمين تواضعا يعتبر رجلا منكرا لذاته. لقد وقع دون كيخوته فى فخاخ شبكة الشرف العنكبوتية. الولاء للعائلة. والعشيرة. والرب. وهى الشبكة التى كانت تكبح جماح كل حركة يقوم بها. لقد كان الأسطول المسيحى المتجمع فى مسينا قد أسبغ عليه صفة مقاتلى الحرب المقدسة بمقتضى المرسوم البابوى فقط. وهو حدث جدير بالملاحظة لأنه كان أمرا نادر الحدوث للغاية. ففى الغالب الأعم لم تكن الحرب. حتى لو كانت قد شنت لأسباب جيدة. تحظى بهذا الوزن الذى تكفله الموافقة المقدسة [٣٠]. بيد أن كل جندى وبحار مسلم. كان مكلفا مدى حياته بالجهاد فى سبيل الله. كما أن المسألة لم تكن مسألة غايات وإنما كانت مسألة وسائل أيضا. فالقرآن الكريم الذى كان كثير من المسلمين يحفظونه عن ظهر قلب يخبرهم صراحة. « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ[٣١] «سورة الصف. آية٤». وكان أدنى جندى من جنود المشاة يحظى بالتكريم وتخليد ذكراه. بوصفه شهيدا. بسبب كيفية خوضه الحرب وليس فقط لأنه انتصر[٣٢] .

لقد كان مقدرا للمعركة التى جرت فى ليبانتو أن تكون علامة على نقطة فاصلة فى النضال بين عالم المسيحية الغربية وعالم الإسلام. فعلى الجانب المسيحى. كانت الحرب تتحول إلى مسألة علمانية بشكل متسارع. فحيثما كان البابا قد أصدر مرسوما (بلا فاعلية. لمنع استخدام القوس الذى يشبه الصليب فى القتال فيما بين المسيحيين. كانت كافة القيود على آلات الحرب. مهما كانت مخيفة قد رفعت [٣٣]. كانت السفن الحربية الضخمة تستلفت النظر لا بسبب التكنولوجيا المستخدمة فى بنائها فقط. وإنما بسبب السهولة التى بنيت بها. ثم أخذها واستخدامها فى المعركة فى التو. وعلى النقيض كان الأمر فى صفوف المسلمين. إذ كان كل ابتكار يمكن أن يكون محل جدل دينى شديد بل يتعرض للمقاومة. فقد كانت الحرب النبيلة ما زالت تشن بالأسلحة المعروفة التى ورد ذكرها فى القرآن. كالسيوف. والرماح. والحراب والأقواس والأسهم. وكان الجندى المسلم الصالح هو الذى يقفز داخل الفجوة أو على

http://al-maktabeh.com

سطح سفينة العدو دون درع على جسده ولا يحميه سوى قوة سلاحه وذراعيه. كانت البنادق والمدفعية ضرورية، بيد أنها لم تكن من دلائل الشجاعة. وربما لهذا السبب لم يظهر سوى القليل من التطور والابتكار وتكنولوجيا المدافع فى العالم الإسلامى [٣٤]. لقد كانت هناك عقيدة كامنة ضمنيا وإن لم تكن معلنة بصورة علنية مؤداها أن من الأفضل أن تقاتل بطريقة نبيلة وتخسر المعركة بدلا من أن تحارب بغير شرف. وربما كان الأوربيون يكثرون من الحديث عن التقاليد والطهارة والشرف. ولكنهم كانوا يسقطونها تماما فى الواقع. فقد تناولت أساطيرهم مناسبات كان الضباط فيها يدعون عدوهم يطلق النار أولا. على سبيل المجاملة. وهى أمور كانت نادرة تماما [٣٥]. وعلى النقيض من ذلك. ربما كانت جيوش الإسلام تستخدم أسلحة جديدة ولكنها كانت مقيدة بأخلاقها القديمة بشكل متزايد .

* * *

استغرق الأمر ما يزيد على ثلاثة أسابيع حتى يتمكن دون جون من أن يجعل أسطوله الضخم الصعب يمضى فى طريقه. فقد عبر من نابولى إلى ميناء مسينا يوم ٢٥ أغسطس ١٥٧١م. وكان وصوله ذريعة لإقامة احتفالات وطقوس كبرى استمرت وتواصلت. وكانت صقلية قد عقدت العزم على ألا تتفوق عليها مدن الداخل فى إيطاليا . وثمة بناء ضخم من الرخام المزخرف تزينه صور رمزية موحية بالنصر والنعمة الربانية تم تشييده على وجه السرعة ليشغل معظم مساحة الأرض الفضاء أمام المرسى. وكان مربوطا تحت عقود هذا البناء وأقواسه حصان حرب مجهز بالسرج والركاب المطلى بالفضة. واعتلى هذه الهدية الفاخرة المقدمة من المدينة «دون جون» وشق مسينا عبر الجماهير المحتشدة لتحيته بالهتافات حتى وصل كاتدرائية لانونزياتيلا **La Nnunziatella** . تتبعه حاشيته على مسافة منه. وبين مسافة وأخرى. على امتداد الشوارع، كانت ترتفع أقواس النصر. كما كانت الزهور المتساقطة من الشرفات تمطر موكبه بغزارة. مما جعل الأرض تختفى تحت طبقة لزجة جميلة

الرائحة. ثم انتهت الاحتفالات. وانتظر دون جون بقدر متزايد من الإحباط وصول آخر قادة السفن العاملين تحت قيادته .وكان قد بذل جهده لإعداد الأسطول للحرب. واكتشف دون جون أن لا أحد يعرف المكان الذى كان الأسطول العثمانى قد تجمع فيه. ولهذا جرد فيلقا من السفن تحت قيادة قبطان إسبانى موثوق به لكى يكتشف مكمنه. وكان الظن أن العدو قد تجمع فى مكان ما قبالة الساحل الشرقى الطويل للبحر الأدرياتى والبحر الأيوني. بيد أنه لم يكن هناك أحد واثق تماما من مكان الأسطول العثماني. أو عدد السفن التى ستواجه أسطول العصبة المقدسة .

وبينما كان القائد الشاب يحاول توحيد السفن الإسبانية مع الفرقة البابوية تحت قيادة مارك أنطونيو كولونا **Marc Antonio Colona**. ومع سفن البندقية التى يقودها المقاتل المحنك سباستيانو فنييرو **Sebastiano Veniero** . سرعان ما أدرك أن التحالف الهش قد لا يتحمل عبء الانتظار الزائد عن حده .فقد كانت هناك مشاجرات يومية تدور فى الشوارع بين المقاتلين الوافدين من مدن مختلفة أو ينتمون لأمم متنوعة. وعلاوة على ذلك. فمع وجود حوالى ثمانين ألف مقاتل داخل نطاق المدينة والميناء. كان يوجد باستمرار خطر الأمراض الوبائية التى قد تنهش الصفوف. ومع هذا. فإنه لم يجرؤ على الرحيل حتى اكتملت قوة أسطوله. فقد كانت السفن الجديدة تأتى يوميا. إذ دخل الفيلق البندقى القادم من كريت إلى ميناء مسينا. وكذلك جاء المزيد من السفن الإسبانية التى كانت تحمل القوات التى تم تجنيدها من ألمانيا. ومن بين آخر الواصلين كانت اثنتان وعشرون سفينة مسطحة تعمل بالمجاذيف التى استأجرها ملك إسبانيا من مدينة جنوا تحت قيادة. جيان أندريا دوريا **Gian Andrea Doria**» والسفن الثلاث الكبيرة المملوكة لفرسان مالطا .

وفى الأسابيع التى انقضت فى مسينا. اكتشف دون جون أن البنادقة لم يكونوا يريدون الجنوية ولا يثقون فى الإسبان. ومستائين من فرسان مالطا. فقد كان كل تعيين يقوم به يتسبب فى الحال فى إثارة مشاعر الاستخفاف والغضب فيما بين أولئك الذين لم يقع عليهم الاختيار وتثور همهمات بأنه يحابى الإسبان حتما. وأنه يؤجل

التقدم. بحيث يتيح للعثمانيين الفرصة لنهب ممتلكات البنادقة. وكان كل يوم إضافى للتأجيل سبب ترسيخ مشاعر التحزب والفرقة بمزيد من القوة. وكان من دواعى الراحة أنه صدرت أوامر يوم ١٦ سبتمبر بالإبحار عندما عادت سفن الاستطلاع وكان الطقس جميلا. وكتب دون جون إلى مستشاره ومعلمه. الجندى المحنك «دون جارثيا الطلطلى Don Garcia de Toledo» يقول إن العدو :

« أقوى منا فى عدد السفن. ولكنه ليس كذلك على ما أظن فى نوعية الرجال أو نوعية السفن. ولهذا سوف أبحر بمشيئة الرب إلى كورفو الليلة. ومن هناك سوف أقرر حسبما يتناهى إلى سمعى من أخبار. ومعى ثمانى سفن مائتان . وعدد القوات ستة وعشرون ألفا. وست سفن حربية ضخمة وأربع وعشرون سفينة حربية ضخمة وأربع وعشرون سفينة إمداد. إننى واثق أن ربنا سوف يمنحنا النصر عندما نواجه العدو».

كان البابا قد أرسل الأسقف «أودشكالتشى Odescalchi» إلى مسينا لكى يطلب من الرب التوفيق لسفنه. وقد جلب الأسقف معه تحصينات روحية للمقاتلين فى (الحرب المقدسة. عبارة عن حلوى مصنوعة على صورة حمل يرمز للمسيح Agnos Dei وهى حلوى أو بسكويت مخلوطا بدهن البلسان والزيت المركز «ذات حجم كبير وجمال عظيم». ولم يكن البابا يبارك سوى عدد محدود من قطع الحلوى هذه وفى السنة الأولى من بابويته فقط. ثم كل سبع سنوات بعد ذلك. وكانت مختومة بصورة حمل. متكئا على كتاب ويحمل راية عليها علامة الصليب ويحيط بها إطار من كلمات تقول. يا حمل الرب يا من تمحو خطايا العالم. اشملنا بنعمتك»[٣٦]. كانت هذه فى ظنهم تعويذة مسيحية قوية تمنح من يحوزها الحماية من العواصف فى البحر. والزلازل. والبرق. والطاعون. والمرض. والموت المفاجئ والشياطين. كما حمل القاصد الرسولى (سفير البابا) وثائق تتضمن نبوءات متفائلة مختلفة كتبها إيسيدور الإشبيلى الذى عاش فى القرن السابع. تقول إن العصبة المقدسة يجب أن تتشكل تحت قيادة قائد إسبانى سوف يهزم أعداء إسبانيا والمسيح ويفرقهم شذرا. وجلب معه أيضا تأكيدا

وضمانا من البابا بأن القائد الشاب سوف يربح مملكته الخاصة بلا شك مكافأة له على النصر. ولكن على الرغم من هذه التأكيدات بالمساندة المقدسة والحماية الربانية. كانت هناك بعض الشكوك التى تراود دون جون حول إمكانيات أسطوله .

فعند وصول كل فرقة كان يقوم بالتفتيش عليها. وعلى الرغم من تأكيداته لدون جارثيا التطيلى. فقد اكتشف أن هذه السفن لم تكن كلها من النوعية الأفضل. ولا كانت الطواقم المقاتلة كلها على الدرجة نفسها من القوة التى كانت توحى بها أعدادهم. كانت أفضل سفنه الحربية هى السفن الحربية الإسبانية. التى كانت أكبر قليلا. وأثقل وزنا. ومبنية من الخشب الجيد مما أكسبها قدرا من الصلابة الذى جعلها تتفوق على السفن البندقية والبابوية. فقد كانت أسطحها تزدحم بالمشاة الإسبان والألمان ذوى التدريب الراقى والتسليح الثقيل. أما السفن البندقية فكانت تبدو رائعة. بخطوطها الانسيابية. وبسرعتها التى تسبق بها حتى أسرع السفن العثمانية. بيد أن شهرة البندقية لم تكن فى محلها تماما. فقد كان بوسع ترسانة البندقية بناء هيكل السفينة فى يوم واحد. ولكن ملكة البحر نادرا ما تمتلك ما يكفى من مخزون الصوارى والمجاذيف وقماش الأشرعة الذى يجعلها تعمل بكامل قوتها. وكانت سفن البندقية غالبا ما تبنى على وجه السرعة من أخشاب الدرجة الثانية ويتم إنهاؤها بشكل غير مناسب. كان نقص عدد المتطوعين فى المعركة مصدر الخطر الأكبر، وهو ما جعل من الصعب على مدينة البندقية. التى لم تكن تستخدم الأسرى المسلمين على متن سفنها. أن تشكل طواقم السفن أو أن تقدم فرقة كاملة من الجنود. ومن حسن حظ دون جون أنه كان قد استأجر قوات إسبانية تزيد عن حاجته وأقنع فنييرو أن يأخذهم على متن سفنه. وفى الأيام السابقة على معركة ليبانتو. كان قبول طاقم معركة إسبانى يعتبر اعترافا مخزيا بالضعف بالنسبة لأى قائد بندقي. ولذلك لم يقبل فنييرو سوى بعد كثير من التردد .

وأخيرا. فى الصباح الباكر من يوم ١٦ سبتمبر ١٥٧١م. بدأ الأسطول يتحرك خارجا من من مسينا. وبينما كانت سفن العصبة المقدسة تخرج من الميناء. وقد رفرت

عليها رايات الحرب، والأعلام والرايات المثلثة. وحيث طواقمها القاصد الرسولى والمجموعة القليلة من القساوسة الذين كانوا يقفون على حافة سور الميناء. وعندما كانت كل سفينة تمر. كان كبار رجال الكنيسة يرسمون علامة الصليب. ويباركون المشروع. وكانت الجماهير ترد على هذا بالهتافات. ومثل النحل المنطلق من الخلية. بدا أن طابور السفن بلا نهاية حتى توقف على مسافة قريبة من الميناء، ليشكل أعظم أسطول تجمع على الإطلاق باسم العالم المسيحى لكى ينطلق فى رحلته إلى الشرق أخيرا. وبينما اتجه الأسطول جنوبا لكى يدور حول رأس بورتو سالفيو **Cape of Salvio** الصغير، لكى يلقى مراسيه فى الليلة الثانية قبالة رأس سبارتيفنتو **Cape of Spartivento**. تلقى الأسطول أول أخبار محددة عن الأتراك.

وثمة سفينة صغيرة. كانت تبحر من قرية جاليبولى **Gallipoli** فى شبه جزيرة برنديزى الضيقة عند الكعب الإيطالى. جاءت إلى جوار سفينة القيادة التى كان دون جون على متنها وأخبرته أن أربعا وعشرين سفينة إسلامية كانت قد احتلت ميناء سانتا ماريا على ساحل البحر الأدرياتى، جنوب أوترانتو **Otranto** على الجانب الإيطالى. على حين كانت فرقة أكبر حجما قد أغارت على كورفو. ولكن موقع القوة الرئيسية للسفن العثمانية كان مايزال سرا. فهل كان الأسطول العثمانى قد تراجع إلى ميناءه الرئيسى فى بريسيفا إلى الجنوب مباشرة من المضايق على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتي. أم أنه انفصل فى عدة فرق للإغارة على موانئ البلقان أو كريت أو الجزر والشواطئ الإسبانية. التى كانت كلها بلا حماية آنذاك ونهبها. وتحرك الأسطول المسيحى مسافة أبعد صوب الشرق. وفى الأذهان أنه قد يتعرض للهجوم فى أية لحظة من جانب بعض السفن الإسلامية أوكلها. وفى يوم ٢١ سبتمبر. توقف الأسطول عند رأس كولون **Cape of Colonne**. فقد كانت السفن متقدمة بسرعة خمسين ميلا بحريا تقريبا فى اليوم وكان يعوقها الحاجة للحفاظ على سفن الإمداد الأبطأ سرعة مع السفن الحربية الضخمة العاملة ضمن القوة الرئيسية للأسطول. وهناك علم القباطنة أن القوة الرئيسية للأسطول العثمانى كانت ما زالت راسية فى بريسيفا. انتظارا لتعليمات السلطان لتحديد مكان الهجوم .

http://al-maktabeh.com

ومع وجود العدو على مسيرة أيام قليلة فقط. أراد دون جون أن يستحث السفن على الإبحار إلى الأمام بأقصى سرعة ممكنة عبر البحر الأدرياتى إلى كورفو. بيد أن أحوال الطقس ساءت وباءت جميع محاولات السفن لاجتياز مضيق أوترانتو بالفشل. واصطدمت بعض السفن بالصخور التى أحدثت بها بعض الثقوب. وفقد بعضها الآخر صواريها وأشرعتها. وعلى الرغم من أن السفن استطاعت آنذاك أن تسير بالمجاذيف عكس الريح. فإن هذا أنهك قوة المجذفين وكان آخر ما يريده قبطان أى سفينة أن يصل إلى مسرح المعركة بمجذفين أرهقهم العمل ونال من معنوياتهم. ولم يحدث أن عبر الأسطول المسيحى الممر البحرى الضيق حتى يوم ٢٧ سبتمبر ليلقى مراسيه فى النهاية فى القناة التى كانت تفصل بين كورفو والأراضى الداخلية. واكتشف الأسطول أن المدينة قد صارت خرابا.

كانت هناك فرقة بحرية تركية تشن الإغارات فى البحر الأدرياتى وصولا إلى جزر البندقية الخارجية وخربت كورفو فى أثناء عودتها نحو الجنوب. وقد نهبت المدينة الرئيسية فى الجزيرة، ودمرت الكنائس. وكسرت رءوس التماثيل. ولكن الأتراك لم يؤثروا فى القلعة التى كان البنادقة قد بنوها على مدى قرنين من الزمان. وبعد عدة هجمات بلا طائل. وفقدان ثلاث سفن. واصلوا إبحارهم. وعلى أية حال. عرف أهالى الجزيرة فى الوقت الذى كان يجرى تدمير منازلهم أن الأسطول التركى كله لم يكن فى ميناء بريسيفا. وإنما كان على بعد مسافة نحو الجنوب فى المياه المفتوحة بخليج ليبانتو. وأرسل «دون جون» القبطان جيل دى أندراد **Gil de Andrad** فى الحال مع سفنه الاستكشافية للتأكد مما إذا كان الأسطول العثمانى ما زال راسيا هناك. ولمعرفة حجمه. ثم استدعى مجلس حرب للاجتماع على متن سفينة القيادة ريال **Real** . وكان يميل إلى الاندفاع قدما والمخاطرة بكل شىء فى معركة سريعة ضد الأسطول العثمانى. ولكن مجلس الحرب كان منقسما على نفسه. إذ كان بعض أعضائه لا يرحبون بالمخاطرة بكل شىء فى مغامرة المعركة، وكانوا يفضلون فرض الحصار على بعض القلاع والحصون التركية الكبرى. واقترح آخرون أن يحاولوا سحب أسطول العدو من الميناء الذى يحتمى به فى خليج ليبانتو إلى المياه المفتوحة. وبينما كان المجلس

ما يزال مجتمعا جاءت الأخبار من أندراد بأن الأسطول التركى قد ضربه الوباء ولم يكن فى كامل قوته. وطلب دون جون التصويت فوافق الجميع على أن يشن الأسطول المسيحى كله هجومه فى الحال ويدمر العدو فى خليج ليبانتو .

فى ظل التشابهات الغامضة التى أحاطت بأحداث سنة ١٥٧١م. كان القبطان العثمانى على باشا يعقد فى اللحظة نفسها أيضا مجلس حرب مع قباطنة سفنه. وكانت آراؤهم منقسمة بالطريقة نفسها تقريبا. وتحدث حسن باشا الذى كان باى الجزائر نيابة عن الغالبية الساحقة. واعترف بأن رجال الاستطلاع أخبروهم أن هذا كان أكبر أسطول شاهدوه على الإطلاق. ولكنه تذكر الكيفية التى تبعثر بها أسطول الكفار فى بريفيسا. سنة ١٥٣٨م. وفى جزيرة جربة قبالة طرابلس(*) (فى سنة ١٥٦٠) تحت وطأة الهجوم التركى. كان يعتقد أنهم جبناء. لاعزيمة لهم وأنهم سوف يفرون هنا كما فروا من قبل فى الماضى القريب. وطرح الرأى المعاكس حامد بك الذى اقترح أنه سيكون من الخطأ التقليل من شأن قوة المسيحيين أو الاتحاد فيما بينهم. كما أن «دون جون». على الرغم من كونه شابا غير محنك. قد أثبت جدارته ضد الموريسكيين فى سلسلة جبال البوخاراس **Alpujarras** جنوب إسبانيا. وكان من رأيه أنه يمكن للأسطول التركى العثمانى أن يكسب كل شىء بلعبة الانتظار. تحت حماية مدافع قلعة ليبانتو .

أما على باشا نفسه فكان يفضل الهجوم فى الحال. وكان عزمه قد توطد بسبب الأوامر التى طال انتظارها من السلطان. فقد أمر سليم أسطوله بالاستيلاء على السفن المسيحية وجلبها فى الحال غنائم حرب لتصطف فوق صفحة مياه القرن الذهبى. تحت قصر الحريم الجديد الذى كان قد بناه فى إستنبول. ولم يكن النظام يسمح بأى انشقاق وتم إسكات كل من كانت قد راودتهم الشكوك. وتوصل المجلس إلى نهاية مندفعة غير متروية. وعاد القباطنة إلى سفنهم لكى يستعدوا للمعركة. وبسرعة أمدت

(*) جزيرة جربة تجاه السواحل التونسية وهى ضمن الأراضى التونسية (المترجم).

القيادة العثمانية التى تميزت بالكفاءة مئات السفن بالطعام والماء. وبكميات كبيرة من البارود والذخيرة. على حين استدعى على باشا المزيد من القوات من الحاميات المجاورة. وعلى وجه السرعة أضاف عشرة آلاف رجل من الإنكشارية وأربعة آلاف من القوات الأخرى إلى طواقمه المقاتلة .

فى الوقت نفسه، تحرك أسطول العصبة المقدسة باتجاه الجنوب. وبحلول يوم. أكتوبر كان قد وصل قبالة بريفيسا، بيد أن أمواج البحر العالية والرياح المعاكسة التى هبت من الجنوب أعاقت تقدمه. ومضى يوم. وأكتوبر فى حال من الجمود، ومحاولة الصمود فى العاصفة. وبينما كان الأسطول راسيا جاءت سفينة صغيرة كانت تبحر شمالا من جزيرة كريت صوب البندقية تحمل أخبارا مرعبة غير متوقعة .

كان كل بندقى يعرف أن العثمانيين يحاصرون ميناء فاماجوستا فى قبرص. أما عاصمة الجزيرة نيقوسيا. فكانت قد سقطت قبل عدة أشهر بعد غزو سنة ١٥٧٠م. وكان قد تم ذبح عشرين ألفا من السكان عندما اقتحمت القوات التركية المدينة. واستسلم بقية سكان الجزيرة لكى يجنبوا أنفسهم هذا المصير التعس. وكانت مدينة فاماجوستا وحدها التى رفضت الاستسلام وصمدت على أمل أن تجيئها النجدة من البحر. وفى غضون ساعات فقط من سقوط نيقوسيا كان الخيالة الأتراك يمتطون خيولهم حول أسوار فاماجوستا ساخرين مستهزئين من السكان ويلوحون برءوس أعيان مواطنى نيقوسيا التى رشقوها على أسنة حرابهم. وعلى أية حال. كان مارك أنطونيو براجادينو **Marcantonio Bragadino** قد جهز قيادته للصمود فى مواجهة حصار طويل الأمد وكان واضحا أن المدينة سوف تقاوم. على الرغم من المصير المرعب الذى حاق بنيقوسيا. ومع أوائل ربيع سنة ١٥٧١م كان أكثر من عشرة آلاف تركى قد احتشدوا حول فاماجوستا [٣٧]. وبدا أنها لن تستطيع الصمود وقتا طويلا. ولكن على مدى أربعة أشهر. صد المدافعون الذين كان عددهم أربعة آلاف جميع الهجمات حتى تمكن الهجوم الذى حدث فى يوليو سنة ١٥٧١م من إحداث ثغرات فى ستة مواقع بالأسوار، ولم يكن قد تبقى لدى قوات القبارصة سوى آخر برميل بارود[٣٨]. وعندما

عرف براجادينو مصيره المؤكد. سعى إلى الحصول على استسلام مشرف. وكانت الشروط التى تم الاتفاق عليها مع القائد العثمانى «لالا مصطفى» مواتية بدرجة غير عادية. فقد ضمن البنادقة الحماية لمن بقى من المواطنين على أن يتم إعادة إجلاء الحامية إلى جزيرة كريت التى كانت من أملاك البندقية .

كان الأتراك قد فقدوا أكثر من خمسين ألف رجل للاستيلاء على نيقوسيا وفاماجوستا. وكانت الشروط التى منحت للمدافعين لافتة للنظر. لاسيما بعد المذابح التى جرت على أهل نيقوسيا، وفى يوم أغسطس استدعى «لالا مصطفى» براجادينو وقيادات جيشه إلى معسكره. وكان القائد البندقى يرتدى الثوب الأرجوانى الدال على رتبته السناتورية. وركب خارجا من فاماجوستا تحت مظلة مطرزة. لحمايته من حرارة الشمس. على رأس ضباطه ومعه أربعون من الحراس الشخصيين من حملة البنادق. وتقول السجلات إنه كان هادئا .... ولم يكن خائفا أو متكبرا». وفى اللقاء اتهمه القائد العثمانى بخرق الاتفاقية المتعلقة باستسلام المدينة وطلب الرهائن. ورد براجادينو بأن هذا لم يكن ضمن الشروط. ثم اندفع الإنكشارية. عند إشارة متفق عليها. إلى داخل الخيمة وتغلبوا على البنادقة. وفى الخارج كان قد تم تجريد حراس السناتور من سلاحهم .

كانت الأحداث التالية قد جرت لصالح الجيش العثمانى الذى احتشد بأعداد غفيرة حول معسكر «لالا مصطفى». ولا يبدو من المحتمل أن براجاندينو كان يتوقع النجاة بسبب استسلامه أو يأمل فى احترام الاتفاقية. فقد كان من عادة العثمانيين أن يردوا على المقاومة بالموت. ولذلك كان سماحهم للمدافعين بالتراجع وأسلحتهم فى أيديهم ورایاتهم خفاقة أمرا لم يسبق له مثيل[٣٩]. ففى مناسبات سابقة كان العثمانيون يذبحون العدد الأكبر من أسراهم أو يستعبدونهم، ولايبقون منهم سوى عدد قليل طلبا للفدية. أو لكى ينقلوا الأخبار السيئة إلى أعدائهم [٤٠]. فبعد معركة موهاكس. كان السلطان سليمان قد جلس على عرش ذهبى على حين كان جنوده يطيحون برءوس آلاف الأسرى. لقد لعب البنادقة دورا كئيبا ولكنه مفهوم تماما فى

دراما دموية تقليدية. لقد كان «لالا مصطفى» مصمما على أن يكون العرض أمثولة وعبرة للجميع. وأن يرضى السلطان فى إستنبول بأن الحصار الطويل لم يكن عبثا. وضربت أعناق ضباط براجادينو وأركان حربه أمام ناظريه. لدرجة أن الدماء فاضت على شكل جدول عبر الأرض الجافة ليصل إلى قدميه. وتم تشويهه وقطع أنفه وأذنيه مثل أى مجرم عادى .

قام الجراحون بتضميد الجراح لوقف نزيف الدم وتأكدوا أن الجروح لم تتقيح. ووضع براجادينو تحت العناية والرعاية على مدى أسبوعين حتى استعاد قوته [٤١]. وفى الوقت نفسه. كانت قواته التى لم تكن قد عرفت بما جرى على زعيمهم. قد خرجت من فاماجوستا إلى السفن استعدادا للرحيل إلى كريت بحسب الاتفاقية. وعند الميناء وقعوا أسرى. ليوضعوا والأغلال فى أيديهم وأرجلهم على مقاعد المجذفين فى السفن العثمانية. وكان القصد من هذا التصرف الأخير السخرية من البنادقة وتجريد قائدهم من جميع مزايا الشرف. وبعد صلاة الجمعة يوم ١٧ أغسطس جمع الجيش العثمانى معدات الحصار التى كانت تحيط بالمدينة. وأحضر براجادينو أمامها. وهو ما يزال مرتديا ثوبه السيناتورى الأرجواني. وأجبر على الوقوف على أربع. على يديه وقدميه. ووضع سرج بغل على ظهره. وركب له لجام ووضعت شكيمة اللجام فى فمه. وتم تحميل سلتين ثقيلتين مملوءتين بالتراب على ظهره فوق السرج. بحيث كان ينوء تحت ثقلهما. وقد حملهما لإصلاح الثغرات التى حدثت فى السواتر العثمانية من جراء نيران مدافعه. وطوال الصباح كان يتم تحميله جيئة وذهابا أمام قواته. خارج الخيام وداخلها. وهو ينال الإساءة من جمهور الجنود. وفى كل مرة كان يمر أمام خيمة القائد العثمانى. كان يتم إجباره على أن يطرح نفسه أرضا ويأكل ملء فمه من الأرض المتربة .

فى وقت لاحق من ذلك اليوم انتقل المشهد إلى الميناء. وتم تقييد السيناتور فى أعلى الصارى بإحدى السفن أمام جميع جنوده السابقين الذين صاروا عبيدا فى السفينة فى ذلك الحين وكان معلقا فى السلاسل بغير أنف وأذنين. متأرجحا فى

http://al-maktabeh.com

أعلى الصارى تحت الشمس الحارقة ثم أنزل إلى الأرض واقتيد إلى السوق وربط فى مكان الضرب بالسياط بحيث يمكن لكل أهل فاماجوستا رؤية إهانته. وعندما مالت الشمس للمغيب. وبعد أن كان معلقا من كعبيه مثل الشاة. بدأ جزار تركى سلخه حيا وأزال جلده» [٤٢]. وتحكى الحولية التاريخية أن براجادينو مات عندما وصلت سكين الجزار. أعلى سرة بطنه». وتمت المهمة المريعة ولكن الجزار كشط الجلد لتنظيفه من الشحم. وكان «لالا مصطفى» وجنوده يشاهدون العملية كلها فى صمت. وفى اليوم التالى تم حشو جلد براجادينو بالقش وخيط بدقة مثل دمية ضخمة. ووضع فوق حصانه ليعرض فى الشوارع تحت مظلته السيناتورية. وركبت الدمية المحاكية لبراجادينو فى محاكاة ساخرة لرحيله من المدينة يوم. أغسطس. وبعد ذلك علق جلده متدليا من عارضة سفينة «لالا مصطفى» وظل عالقا هناك مثل الراية. وعندما عاد فاتح قبرص المنتصر إلى مياه القرن الذهبى، كان الجلد قد تمت دباغته بفضل الطقس. وكانت محطته النهائية سجن العبيد فى إستنبول حيث تم تعليقه ليكون بمثابة تحذير صامت لكل من تسول له نفسه أن يقاوم أو يتمرد .

كان مسرح القسوة هذا فى جزء منه. «تشجيعا للآخرين» على حد تعبير المفكر الفرنسى فولتير «**pour encourager les autres**» . ومن الناحية الطقوسية لم يكن العثمانيون قد حطوا من قدر جسد براجادينو وحده وإنما أهانوا مقام البندقية نفسها[٤٣]. ذلك أنهم بإظهار قوتهم وسلطانهم عليه وسحبه من مركز السلطة إنما يكونون قد أهانوا عدوهم. وكان الجميع يعرفون أنه لا يمكن محو هذا العار سوى بفعل مساو لهذا الفعل. فعندما حدث قبل ست سنوات من هذا الحادث. فى حصار مالطا. أن انتزع الأتراك الملابس عن جثث الفرسان وعوموا الجثث العارية باتجاه القلعة فوق طوافات. رد قائد المالطيين لافاليت **La Vallette** ردا من النوع نفسه. فقد جلب عشرات من الأسرى الأتراك إلى شرفات القلعة. وأمر بقطع رءوسهم على مرأى من زملائهم. وقذفت من مدفع لافاليت داخل صفوف الأتراك. لقد كانت هذه إهانة فى مقابل إهانة. ولكن بعد فاماجوستا لم يكن هناك رد مناسب بعد .

كان هذا هو الخبر الذى جىء به إلى أسطول العصبة المقدسة المنتظر تحت ستار الضباب بين جزر كيفالونيا **Cephalonia** وإيثاكا **Ithaca**. وقد أخمد الشكوك الباقية حول ضرورة المعركة التى كان يمكن آنذاك أن تنتقم لموت براجادينو وترد الإهانة أضعافا مضاعفة. وما إن ارتفع الضباب بالقدر الكافى لتحرك الأسطول بأمان. فى الساعات الباكرة من يوم. أكتوبر. حتى تحرك الأسطول كله ليدخل البحر المفتوح. فى مدخل خليج باتراس **Patras** . وعلى مسافة نحو أربعين ميلا من مدخل ميناء ليبانتو جيد الحماية. وعندما رأى دون جون ساحل الأرض الرئيسية أرسل سفينتين سريعتين إلى الخليج لكشف ما إذا كان الأسطول العثمانى ما زال راسيا. فإن كان الأمر كذلك. فإنه لن يتسلل من بين السفن المسيحية الكثيرة التى كانت تبحر لتضييق الخناق على الخليج صوب المضايق قبل ليبانتو .

وإلى الشمال. حيث كانت السفن المسيحية تندفع فى غمرة موجة من الرياح الشديدة. كانت جبال أكارنيا **Acarnia** المرتفعة تقع إلى الشمال. وأرض المورة المنخفضة تقع إلى الجنوب. وجاءت الريح من الجانب وقد غيرت اتجاهها من خلف ومن قدام. ومن ثم لم يكن ممكنا استخدام أشرعة السفن الضخمة. وتباطأ الأسطول حتى يتماشى مع سرعة تلك السفن البطيئة. وبعد الفجر بوقت قصير توقف الأسطول ليتحرك فى تشكيل المعركة الذى وضع خطته دون جون .وقد أعطى أوامره أيضا بقطع كل الكباش أو المهاميز المركبة على مقدمات السفن الحربية. والتى كانت عبارة عن تركيبات خشبية صلدة صممت لكى تضرب أجناب السفن المعادية. وتوفر منصة يمكن التقدم من فوقها. بيد أن المهماز كان يجعل من الصعب المناورة بالمدافع التى كانت وحدها كفيلة بشل حركة أى سفينة معادية. فقد كانت استراتيجية دون جون قائمة على تدمير الأسطول العثمانى وليس الاستيلاء عليه. وكان قصده أن يستخدم المدافع الثقيلة لسحق الهياكل العليا فى السفن العثمانية. والصعود على متنها عند الضرورة. على أن يعمل فى البداية على إرسال أكبر عدد ممكن من السفن وطواقمها إلى قاع البحر. ولكن رجاله فهموا من هذه الأوامر رسالة أعمق مغزى. إذ كان قطع المهاميز يساوى التخلص من أغماد السيوف. وهو ما يعنى أنها لن تعود إلى أغمادها ثانية دون أن ترتوى بالدماء .

لم يكن هناك أحد له تجربة سابقة فى قيادة مثل هذا الأسطول الكبير فى المعركة. علاوة على أن السفن الحربية الست الضخمة كانت سلاحا جديدا لم تتم تجربتها بشكل كلى. وكان مقيضا للصراع المرتقب ألا يكون شبيها بأى صراع آخر فى البحر. ولكن دون جون خطط لكى يحارب فى مياه خليج باتراس المفتوحة تماما كما لو كان يخوض معركة بالفرسان على الأرض. وعلى أية حال كان القياس شاسعا. فقد امتد الأسطول فى طابور طوله أربعة أميال تقريبا. وقسم دون جون مئات السفن إلى أربعة أقسام. المركز الذى أشرف عليه هو شخصيا، وجناحين، والاحتياطى وراء هذا الصف الذى تولى قيادته إسبانى موثوق به. وكان القصد منه سد أية ثغرة يفتحها العدو. وكانت تكتيكات المعركة بسيطة. ففى المقدمة ستكون السفن الست الثقيلة. وسوف تسير سفن العصبة المقدسة بسرعة تتزايد بثبات من خلفها. وما إن يبدأ القتال بالأسلحة النارية، حتى يرفع معدل التجذيف لتغطى مئات السفن المسافة الأخيرة فى أقل من نصف دقيقة لكى تسحق خطوط العدو وتتقدم أيضا بكل سرعتها. ثم تختفى كل مظاهر الاستراتيجية فى خضم القتال يدا بيد. وكان الخوف من أن السفن العثمانية السريعة القادرة على المناورة قد تقتحم الصف وتدور حول السفن المسيحية من كل جانب بالطريقة نفسها التى يتبعها الفرسان الأتراك على الأرض بحيث يهزمون الفرسان المسيحيين المدرعين بفضل أعدادهم الكبيرة .

وعلى الرغم من أن دون جون لم يسبق له أن حارب فى البحر أبدا. فإنه كان يعرف عدوه. فقد حارب فى البوخاراس من بيت إلى بيت. ومن قرية إلى قرية. وقد علمته تجربته أنه حتى الفلاحين المسلمين يفضلون الموت على الاستسلام أو التقهقر[٤٤]. وكان الدرس المستخلص من المعارك البحرية التى لا تعد ولا تحصى أنه ما إن يستحوذ المقاتلون المسلمون الأشداء على موطئ قدم فوق متن سفن الأعداء. فإن فرص النجاة ستتضاءل حينئذ. وكان تصرفه الأخير قبل المعركة أن أعطى أوامره بتجهيز كل سفينة بشباك تحول دون الصعود على السفن. ولتكون بمثابة السور على امتداد الجوانب فوق أماكن المجذفين. ولم تكن الشباك لتمنع تسلق السفينة. ولكنها كانت لا بد وأن تبطئ من حركتهم. مما يوفر الفرصة لطاقم المدافعين لكى

يحتشد. وكانت الحماية الفعالة الوحيدة ضد اندفاعة الإنكشارية هى نيران البنادق. وعلى سطح السفينة ريال كانت هناك مدربة قوامها ثلاثمائة رجل. مسلحين ببنادق إسبانية ثقيلة. وقد تم تدريبهم على إطلاق النار بغزارة إذا ما نجح العدو فى اعتلاء سطح السفينة .ولكن فى النهاية لم يستطع دون جون التحكم فى مسار القتال على متن سفنه. وكان لابد للنجاح أن يعتمد على الروح المعنوية لرجاله. وفى ضوء الصباح الباكر. كان ينتقل فى فرقاطة صغيرة سريعة بين السفن المتمركزة فى الصف جيئة وذهابا ويصيح مشجعا الطواقم والجنود. ويقول لهم إن الرب معهم. ويذكرهم بمصير براجادينو الذى يجب أن ينتقموا له على أجساد عدوهم. وكانت الهتافات تتعالى عند مروره بكل سفينة .وكان قد أمر بتحرير كل مجرم مسيحى مدان من المجذفين بحيث يمكنهم الانضمام إلى الحملة الصليبية. على أن تضاعف السلاسل التى يقيد بها المجذفون من الأسرى المسلمين، فى أيديهم وأرجلهم على السواء .

ولم يكن هناك من يبارى العثمانيين سوى أفضل جنوده. وكانت الميزة لعلى باشا بقواته الجديدة المرتاحة، والتى نعمت بطعام جيد. وكانت تتوق إلى خوض المعركة. لقد كان انتصار دون جون فى ليبانتو بفضل تفوق المدافع[٤٥]. إذ كان قد وضع السفن الضخمة الست فى مقدمة صفوفه على مسافات محددة. واثقا من أن قوة نيرانها سوف تخلخل خط المعركة العثماني. ومثلما حشدها بالمدافع الثقيلة. حشدها أيضا برماة البنادق. وتبين الصور التى رسمت للمعركة فيما بعد السفن مدججة ببراميل البارود التى ظهرت مثل الشوك على ظهر القنفذ. ولابد للنجاح أن يعتمد على مدى استعداد العثمانيين للدخول فى منطقة القتل بين القلاع العائمة. ولكن إذا تقهقر العثمانيون ليستدرجوا سفن دون جون داخل الخليج باتجاه مدافع قلعة ليبانتو. فلابد للحركة أن تتغير. وكانت هناك بالفعل ريح شديدة وكان البحر ضد السفن المسيحية. وكلما أرهق المجذفون أنفسهم. زادت فرصة تحول الموقف لصالح الأتراك. وكما هو الحال فى كل المعارك. كانت الفرصة والعناية تتمثل فى القيادة .

ومنذ انبلاج ضوء النهار. على أية حال. تجلت دلائل النعمة الربانية. فقد كان اليوم يوم أحد، عيد سانت جوستينا **St. Justina** . وكان على كل سفينة راهب أو قسيس

ليقدم الدعم الروحى. إذ كان دون جون قد أمر منذ وقت طويل أن يقام القداس قبل الدخول فى أية معركة. وعلى متن كل سفينة وقف الرجال بدروعهم ومعهم أسلحتهم. ثم ركعوا لصلاة القداس. وتصاعدت روائح البخور من جميع السفن. لتعطر الجو قبل أن تحملها الريح بعيدا. وعندما بدأ القداس ظهرت السفن العثمانية فى الأفق للأسطول المسيحى الكبير. وعندما لاحظ العثمانيون هدوء السفن الراسية فى المياه وسكونها. ظنوا أن الرعب قد أمسك بتلابيب الأسطول الغربى. وفوق متن سفن على باشا. التى امتدت فى صف طويل مثل السفن المسيحية المعادية. بدأت الطبول تدق وبدأ آلاف الجنود المنتظرين يهتفون بصوت واحد «الله أكبر». ودقوا بأرجلهم. وضربوا بسيوفهم على دروعهم. وعلى متن السفن التى كان بها موسيقيون. انضمت أصوات الصنوج والطبول والأبواق لتزيد من صخب الصوت .

وتقارن كتب التاريخ الغربية التى كتبت عن هذه الدقائق بين الصمت الدينى المحترم من جانب الأسطول المسيحى. «الصخب» الأجش الصادر عن السفن العثمانية. بيد أن الحقيقة أن الأحداث كانت متشابهة تماما على الجانبين. فعلى متن السفن الغربية كانت أصوات القساوسة الفردية تقود الصلوات. وقد أحاطت بهم الجموع فى صمت. وعلى السفن العثمانية. كانت جماعة المؤمنين يصنعون «موسيقاهم الخشنة». وعلى أية حال. كان كل من الاحتفالين يعزز عقيدة واحدة. فقد كان من المعتقد لدى كل من الجانبين أن مآل من سيموت فى القتال الوشيك سيكون الجنة. فالمسيحيون. حسبما ذكرَهم قساوستهم. قد حصلوا على شهادة من البابا أنهم سوف يعفون من آلام المطهر. أما المسلمون. فكانوا واثقين بفضل آيات القرآن الكريم التى ترن أصداؤها فى آذانهم. من أن الجنة فى انتظارهم. ولكن بالنسبة للمسيحيين المستغرقين فى صلواتهم كانت الضجة المنبعثة من السفن التى لا تبعد سوى ميل أو نحو ذلك عبر المياه تبدو بربرية ووحشية. تلك الكتب التاريخية نفسها التى حكت عن بربرية الأتراك هى التى أوردت أيضا قصة تصرف تنم عن الشرف والفروسية من جانب على باشا. فبينما كان دون جون قد أمر بربط المجذفين من الأسرى المسلمين على السفن فى مجاذيفهم بالسلاسل. حتى يعيشوا أو يموتوا مع

سفنهم. نزل القائد العثمانى إلى السطح الذى كان فيه المجذفون فوق سفينة القيادة الخاصة به «السلطانة». ليقف بين المجذفين من الأسرى المسيحيين على متن السفينة. وتحدث معهم بالإسبانية قائلا. «أيها الإخوة إننى أتوقع منكم اليوم أن تقوموا بواجبكم نحوى لقاء المعاملة الطيبة التى عاملتكم بها. وأعدكم إذا ما كتب لى النصر أن أمنحكم الحرية. وإذا لم أنتصر فإن الله سوف يهبكم إياها»[٤٦] .

حتى فى هذه اللحظات الأخيرة وقبل أن يصدر على باشا أوامره بالتقدم. جادل بعض قادته. مثل ضباط دون جون عندما سمعوا روايات عن قوة الأسطول وحجمه. أنهم يجب أن يتجنبوا المعركة. وقال الضباط العثمانيون إن من الحكمة أن يتراجعوا تحت حماية مدافع ليبانتو وأن يستدرجوا المسيحيين للقتال داخل مياه الخليج الضيق. ولكن على باشا كان قد عقد العزم على الإبحار خارج الخليج والاشتباك مع العدو فضلا عن أنه جعل ذلك قتالا مباشرًا مع دون جون. ولما كانت الريح خلفه. قبل الظهر مباشرة. أمر السفن بأن تجذف إلى الأمام بسرعة صوب صفوف العدو وكانت سفينته تتجه مباشرة نحو السفينة «ريال» التى كانت ترفع علم العصبة المقدسة آنذاك .وعندما اقتربت السفن العثمانية من مرمى نيران السفن الضخمة بدأت المدافع فى قصفها. وتغير اتجاه الريح. وفى ذلك الحين كانت الطواقم العثمانية تجذف بهمة فى بحر ثقيل عكس الريح، على حين كانت السفن المسيحية محمولة إلى الأمام. بأنفاس السماء» [٤٧]. وغاصت السفن التركية تحت قصف السفن الضخمة. فى بداية الأمر من مدافع المقدمة فى هذه السفن. ثم من مدافعها الجانبية. ولما رأى على باشا حجم الدمار. أمر سفنه بالابتعاد بيد أن هذا أدى إلى تفكك التشكيل العثمانى. عندما دخلت السفن بين الثغرات بين السفن الضخمة [٤٨]. وبدلا من طابور سفنه الذى كان يقتحم السفن المسيحية دفعة واحدة. تبددت القوة الدافعة .

وعلى امتداد ميل تقريبا فى وسط المعركة كانت السفن تتقارب وتتصارع .وفى بعض الأحيان كانت مقدمات السفن العثمانية المزودة بالكباش الحديدية تصطدم بسفن العدو. وفى أحيان أخرى كانت الصوارى والأشرعة تتشابك. وكان الجنود يصبون

النار على خصومهم. وكانت كثير من السفن المسيحية مرصعة بالسهام التركية. على حين كانت أسطح السفن العثمانية قد ثقبت بفعل طلقات البنادق. كما كانت شباك عرقلة الصعود التى كان دون جون قد أمر بتركيبها قد برهنت على جدواها وامتلأت بالقتلى العثمانيين وبالذين يعانون الموت بعد أن وقعوا فى فتحات الشباك. فقد قفز الإنكشارية فوق الشباك. لكى تصيبهم الحراب والطلقات وهم يقطعون الحبال المدهونة بالقار بالسيوف القصيرة أو بالسكاكين. وكان المزيد منهم يقعون فى براثن الموت الأكيد. واستمروا فى تمزيق الشباك حتى صارت خرقة بالية فى نهاية الأمر. ووجد المسيحيون الذين صعدوا على السفن العثمانية أنه لم تكن هناك شباك لدى العدو ولكنه كان قد فرش ممرات السفن بزيت الزيتون أو العسل. كان الأتراك يحاربون وهم حفاة مما جعلهم ثابتين على سطح السفينة بشكل أفضل من المشاة الإسبان أو الألمان الذين كانوا يرتدون الدروع والأحذية المتينة. وكانت السهام المنطلقة من الأقواس التركية التى تعد بالآلاف مميتة من المسافات القصيرة مثل نيران البنادق. وكـان أى مسيحى ينزلق ويسقط يتم الإجهاز عليه بخنجر أحد البحارة العثمانيين أو الجنود غير النظاميين وسط المعمعة .

كان على باشا قد أخفق فى الضغط بميزته الأولية وتبددت لدغة الهجوم العثمانى. ففى الحروب البحرية عادة ما كان الانطباع الأول والهجوم الأول على درجة كبيرة من الأهمية. وفى ذلك الحين كانت سفينتا القائدين قد اشتبكتا إحداهما مع الأخرى. فقد كانت «سلطانة» راسخة قبالة السفينة «ريال». ولكن على الرغم من أن على باشا كان قد تردد فى اللحظة الأولى. فقد كانت لديه خطة للتغلب على قوة النيران الأكبر لدى غريمه. فخلف سفينة القيادة التركية كان هناك أسطول صغير من السفن والسفن الشراعية الصغيرة التى غصت أسطحها بالإنكشارية. وتم ربطها سويا بالحبال وألواح الخشب. وكان ذلك يوفر التعزيزات داخل ساحة القتل على متن السفينة «سلطانة». ومهما كان عدد الرجال الذين كان يمكن لرماة البنادق صرعهم. كان يصعد على السفينة المزيد والمزيد من الأتراك. كان كل من القائدين يظن أن حصاد المعركة النهائى سوف يتوقف على المواجهة الشخصية بينهما .إذ كان على باشا.

ومثله دون جون. قد اختار قوة من الرجال المسلحين ليكونوا بمثابة قوة الصدمة لديه. على حين كان هو نفسه واقفا على السطح المرتفع فى مؤخرة السفينة. ومعه قوس كبير منحنٍ يقذف به ببرود على السفينة «ريال». وكان يشاهد دون جون. فى درعه الأسود المطلى بالفضة. يهبط إلى سطح سفينة قيادة أسطول العصبة لكى يقود رجاله من حملة البنادق وحملة السيوف. وقذفوا ألواح الخشب للعبور من الفجوة الضيقة إلى السفينة «سلطانة». بعد إخلاء السطح من الجنود العثمانيين بموجات متتابعة من طلقات البنادق. ثم تسلقوا السفينة .

ولكن حدث عندئذ أن جاءت جمهرة كبيرة جديدة من الإنكشارية. واندفعت إلى الأمام وأجبرتهم على العودة إلى سفينتهم. وتجمع المسيحيون مرة أخرى وشنوا هجومهم. وبينما كان الإنكشارية فى اضطرابهم. نزل على باشا إلى سطح المركب لكى يشد من أزر رجاله. وفى غمرة الاضطراب نالته ضربة سطحية من طلقة بندقية وسقط. واندفع المسيحيون مرة أخرى إلى الأمام، وقطع رأس القائد العثمانى واحد منهم. تعرف عليه من ملابسه الفاخرة. وأخذها إلى دون جون الذى كان محصورا فى وسط القتال بالنيران فى كل مكان آخر فوق سطح السفينة. وفى ثوان كانت رأس على باشا المهشمة قد وضعت على رمح. ورفعت عاليا لكى يراها الجميع. على حين كان المحاربون الإسبان المحنكون يشقون طريقهم للأمام ضد الأتراك الذين تدهورت معنوياتهم فى تلك اللحظة. كانت المنطقة المحيطة بالصارى آمنة. وتمزق علم المسلمين ذو اللون الأخضر وأنزل من مكانه. وأحضرت راية مثلثة ضخمة عليها علامة الصليب من السفينة «ريال» وربطت فى قمة الصارى فى السفينة سلطانة .

وبينما كان قلب الأسطول العثمانى قد خرج من القتال فى الوسط. كان القتال ما زال دائرا بوحشية متزايدة على الجناحين. ودارت معارك يائسة على أسطح السفن عندما تشابكت فى بعضها البعض. وراح آلاف الرجال حصادا للموت. واصطبغت مياه الخليج بحمرة الدم. ولاذت بعض السفن العثمانية بالفرار من البنادقة الذين كان من الواضح أنهم لن يظهروا أية رحمة باتجاه الشاطئ. وطاردهم البنادقة على

الشاطئ وقتلوا جميع الهاربين. وهناك رجل لم يجد ما يقتل به خصمه على الأرض سوى عصا غرسها فى حلقه حتى سكن تماما. وفى أغلب الأحيان كانت السفن تقف وتغرق أعداءها بإطلاق النار. وهم يتفرجون على حين يغرق كل الذين على متن سفن الأعداء. وفى حرارة مابعد الظهر. بدأت الجثث الطافية فوق المياه تنتفخ بفعل الغازات وتتقافز مثل الفلين .

وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر كانت المعركة قد انتهت. ولقى أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة مسيحى مصرعهم. ولكن خسائر العثمانيين تعدت العشرين ألفا. وتم تحرير أكثر من خمسة عشر ألف أسير مسيحى من المجذفين على سطح السفن العثمانية. ولم يتبق من معظم السفن التى كانوا يجذفون عليها سوى هياكلها [٤٩]. وهربت عدة سفن قليلة من الجناح الأيمن العثمانى تحت قيادة عليش باشا. الذى كان مسيحيا قبل أن يعتنق الإسلام. ولكن مصير بقية الأسطول الضخم كان الغرق. أو التدمير أو الأسر كان هناك كثير من الأسرى وكمية هائلة من الغنائم والأسلاب. وفى الحال بدأ المسيحيون يتذكرون علامات المؤازرة الإلهية. فقد كانت راية العصبة المقدسة. التى رفرفت على سفينة القيادة التى قادها دون جون بلا خدش، ولم تمسها طلقة أو يصبْها سهم. على الرغم من أن الصارى ومحيطه من القوائم الخشبية قد نالته الثقوب. وعلى النقيض من ذلك. كان العلم الأخضر الكبير فى سفينة على باشا «سلطانة» قد تمزق إلى قطع صغيرة تقريبا. لدرجة أن معظم الكتابة الكوفية صارت مستعصية على القراءة. ولم يكن هناك بين القتلى أو الجرحى على السفن الإسبانية قسيس واحد ولا راهب. على الرغم من أنهم كانوا فى حومة القتال. وتذكر الجميع كيف أن الريح التى كانت قد هبت فى وجوههم سكنت فجأة ثم عكست اتجاهها لتحملهم إلى الأمام فى اللحظة الحاسمة، ولم يلحق أذى بأى من علامات الصليب العديدة على السفن على الرغم من أن طلقة بندقية انطلقت بالقرب من إحدى هذه العلامات. وتذكر آخرون ما كان دون جون قد قاله لهم فى الساعة السابقة على المعركة. «يا أبنائى. نحن هنا لننتصر أو نموت حسبما تقرر السماء. لا تدعوا عدونا الكافر يسألنا. أين ربكم. « قاتلوا باسمه المقدس سواء واجهتم الموت أو فزتم بالنصر فإنكم للخلود رابحون»[٥٠]

هكذا. منذ اللحظة التى انتهت فيها المعركة بدأت صناعة الأساطير. وبينما كان الأسطول المسيحى يسحب غنائمه. مبحرا ببطء عائدا صوب مدخل الخليج ليلقى مراسيه فى بتالا **Petala** كان قد خلف وراءه مشهدا من مشاهد الدمار والخراب .

«على امتداد أميال حول الأسطول الظافر كانت الأمواج على نحو ما أكد شهود العيان. قد اكتست اللون الأحمر بسبب الدماء، وكانت محملة بألواح الخشب المكسورة والصوارى والقوائم والمجاذيف. وأجساد الرجال وأطرافهم. والدروع والأسلحة، والعمائم، والصديريات، والبراميل، وأثاث الكبائن. وكوفيات الفرسان الغالية. وثياب الباشا الغالية. وزينة الإنكشارية الزاهية. والأسمال الرثة للعبيد. وكافة أصناف غنائم الحرب. وكانت القوارب تتحرك هنا وهناك بين البقايا الطافية. لإنقاذ كل ما يبدو أن له قيمة باستثناء حياة الهالكين»[٥١] .

ومن الأسطول الراسى. أرسل دون جون سفينة سريعة لتنقل الأخبار إلى الملك فيليب. ومعها العلم الأخضر المزق الذى كانت ترفعه السفينة «سلطانة». وبعد ذلك تم إرسال علم السلطان الشخصى إلى البابا وأرسل إلى البندقية والإمبراطور فى فيينا تقريرًا مفصلا عن النصر الكبير، بيد أن الملك فيليب لم يكن أول من تلقى الخبر حسبما كان دون جون قد خطط. ففى يوم ١٧ أكتوبر. دخلت سفينة ميناء البندقية. وهى تطلق مدافعها. وتسحب الأعلام فى الماء. ثم ألقت مراسيها قبالة ميدان سان مارك. وكان بوسع المشاهدين الذين تطلعوا فى فضول أن يروا الأتراك يسيرون فوق سطحها. وساد الذعر برهة. لأن الناس ظنوا أن الأتراك عادوا إلى مهاجمة المدينة. ولكن سرعان ما اتضحت الحقيقة. فقد كانوا من البنادقة الذين لبسوا الثياب التركية التى حصلوا عليها من غنائم النصر. وفى الحال سرت الأخبار فى جميع أرجاء المدينة. وبدأت الاحتفالات التى استمرت على مدى أربعة أيام. ودقت أجراس الكنائس بشكل متواصل آناء الليل وأطراف النهار وأوقدت نيران كبيرة فى الشوارع. مع تقديم الطعام والنبيذ للناس.

http://al-maktabeh.com

وأعلن العيد السنوى لليبانتو. وهو عيد سانت جوستينا. يوم عطلة بصفة دائمة. وبسرعة كتبت مئات القصائد وألفت القطع الموسيقية وألقيت الخطب. وكانت تلك أول القطر فى سيل جارف من الأشعار والذكريات فى العديد من اللغات الأوربية. ومنذ تلك اللحظة صارت المعركة قصة رمزية أخلاقية. حيث اكتسبت كل تفاصيل الصراع مغزى إضافيا. وفى هذه العروض سمع الجمهور كيف دمر دون جون ونبلاء البندقية الذئب الكاسر. والعجل الهائج. والتنين المخيف. وهيدرا الشرق. لقد قتلوا الوحش. وعندما انتشرت أخبار المعركة. تذكر الناس حوادث إعجازية جديدة(*). ففى الساعة الرابعة بعد الظهر. فى اللحظة نفسها التى شهدت نهاية المعركة. كان البابا. فى روما. قد توقف عن عمله فجأة. ومشى نحو النافذة وفتحها وأنصت باهتمام. ثم قال لأمين خزانته وهو يغلق النافذة. « ليكن الرب معك. ليس هذا وقت العمل. ولكنه وقت شكر الرب. لأن أسطولنا انتصر فى هذه اللحظة» (٥٢)

وقيل إن الملك فيليب الثانى كانت لديه منذ البداية أخبار عن المعركة وصلته بواسطة مبعوث من البندقية يوم ٢٩ أكتوبر. عندما كان يراقب صلوات المساء من القاعة المغطاة بالستائر والمطلة على كنيسة القصر. وبمرور الزمن تم تجميل هذه اللحظة لكى تعطى وزنا للمعنى الأعمق الذى كان قد ارتبط بالمعركة. وفى سنة ١٦٠٥م. أى بعد ست سنوات من موت الملك. نشرت حكاية تحكى كيف كان الملك فيليب فى صلاة المساء فى كنيسة سانت لورنزو الكتدرائية.

«دخل دون بدرو مانويل. الذى كان رجلا راقيا. من غرفة النوم وهو مشوش فى نظرته وتصرفاته. مما دل على أن أمرا جللا قد وقع. وقال بصوت عال لجلالته. « سيدى. إن جندى المراسلة الخاص بدون جون النمساوى موجود هنا. ومعه أخبار عن نصر عظيم». لكن الأمير العظيم لم يغير وقفته ولم يظهر أية انفعالات. فقد

(*) لا يتدخل المؤلف هنا فى عرض الأساطير التى نمت حول معركة ليبانتو على الرغم من أنه لا يتبناها أو يصدقها. المترجم

كانت إحدى مميزات البيت الملكى النمساوى، من بين مزايا أخرى. ألا يفقد الواحد منهم أبدا. ومهما حدث. صفاء محياه وجاذبية سلوكه الإمبراطورى. وعندما انتهت صلوات المساء. نادى رئيس الرهبان وأمره بإقامة صلاة الشكر وإنشاد «نشكرك أيها الرب **Te Deum Laudamus**». مع الصلوات الكنسية المناسبة»[٤٣].

وقد أقحمت تفاصيل هذه الظروف. وأسماء الرجال المحترمين فى الغرفة الملكية. والموقع داخل كنيسة سان لورنزو المشيدة على الطراز الباروكى. أقحمت كلها فى القصة إقحاما. ويشير المرشدون السياحيون فى القصر إلى الكرسى الذى كان الملك يشغله فى اللحظة التى وصلت إليه الأخبار. بيد أن الكنيسة لم تكن قد تكرست فعلا حتى سنة ١٥٨٦م. أى بعد ست عشرة سنة من معركة ليبانتو .

وعندما تلقى الملك فى النهاية تقرير دون جون مساء يوم ٢٢ نوفمبر فى الأسكوريال. كانت حوله عائلته وحاشيته. وكان الرسول دون لوب دى فيجويروا **Don Lope de Figueroa**. قد سافر على مهل. لأنه كان قد أصيب بجرح خطير. كما أنه كان محل حفاوة فى كل مدينة مرّ بها[٤٤]. ولم يكن الفرح الشعبى بليبانتو قاصرا على الأمم التى شاركت فى المعركة بشكل مباشر. بل إنه حتى فى فرنسا حيث كان الملك المتدين يحتفظ بعلاقات طيبة مع العثمانيين لأسباب سياسية. كانت هناك مواكب وصلوات فى الكنائس بأصغر المدن والقرى. وفى إنجلترا البروتستانتية كانت هناك أيام من الاحتفالات الصاخبة فى لندن وخرجت المدن الألمانية عن وقارها من فرط السرور. وربما كانت تلك المرة الأخيرة التى كان فيها الإحساس بالمشاركة العالمية فى حرب مقدسة قد تجاوزالانشقاق بين الكاثوليك والبروتستانت وتخطاه[٤٥] .

* * *

فى غضون أيام بعد رواية القصة للمرة الأولى فى الأندلس. كانت حكاية «ليبانتو» تصاغ من جديد فى شكل مسرحى فى كهوف سكرومونتى **Sacromonte**

فى غرناطـــة[٤٦]. وفى مثل هذه. الروايات» كانت الحقيقة الأخلاقية أهم من المحاكاة الفعلية للأحداث[٤٧]. فما حدث فى ليبانتو كان قد تم تكوينه من الحدث نفسه فى جزء منه. ومن الأساطير اللاحقة التى أدخلت عليه فى جزء آخر. فقد صارت التفاصيل الدقيقة للمعركة معروفة على نطاق واسع. بسبب المذكرات والكتيبات. أو من خلال القصص التى كان الرحالة والمسافرون يحكونها. وكانت بعض أعمال الحفر على الخشب والتى انتشرت فى كافة أنحاء أوربا تلتزم بالحقيقة الواقعية إلى درجة لافتة للنظر. وكان هناك كتاب متداول فى ألمانيا بعد شهور من المعركة على غلافه رسم لسفينة حربية فى بداية القتال. وكانت مدافعها الكبيرة تنفث الدخان من جانبيها. وكانت شباك منع الصعود والدروع المصنوعة من الجلود المغلية فى مواضعها. وتبدو السفن التركية مهشمة إلى قطع. والبحر ملىء بأشخاص معممين ودروع خشبية مرسوم عليها الهلال تطفو على سطح المياه [٤٨]. لقد كانت الاستجابة للمعركة والمعانى المستفادة منها. أى أصداؤها ممتدة وواسعة المدى. سواء من حيث المكان أو من حيث الزمان. وبالنسبة للسير ريتشارد لفلاس **Richard Lovelace** . الذى كتب بعد مرور قرن على معركة ليبانتو. كانت المعركة اسما دالا. أو اختزالا، يدل على النصر المسيحى. « عندما كان البحر المريض يغص بالعمائم .... كان هذا هو الإكليل. وهذا هو النصر».

كان إحياء ذكرى ليبانتو يتم بطرق متعددة. فقد احتفلت روما بعودة مارك أنطونيو كولونا بانتصار يليق بقيصر. إذ ركب إلى مبنى الكابيتول على صهوة حصان أبيض. تتبعه صفوف طويلة من الأسرى الأتراك. وقد قيدوا بالسلاسل اثنين اثنين وهم يجرون السلاسل الثقيلة. كل منهم يرتدى زيه الأحمر أو الأصفر [٤٩]. كما أن هناك كولونا أورورا تو **Colona Ororato** الذى تحتفل فيه المدينة التلية الصغيرة سيرمونيتا **Sermonetta** بذكرى بطولته فى المعركة سنويا. وقد حيّت مسينا الأسطول العائد بالمباريات والمنصات الجنائزية الضخمة لتكريم قتلى المعركة. كما نصبت تمثالا هائلا مطليا لدون جون صنعه المثال أندريا كالاماش **Andrea Calamach** . وما يزال تمثال الأدميرال قائما إلى اليوم. وقدمه اليمنى فوق رأس مقطوعة معممة لتركى ميت.

على حين يحكى قصة ليبانتو كلها يحكيها لوح برونزى يدور حول قاعدة التمثال. وقد عهدت حكومة البندقية إلى كل من تينتوريتو Tintoretto. وبييترو لونجو Pietro Longo وأندريا فنسنتينو Andrea Vincentino وأنطونيو فاسيلاتشى Antonio Vassilachi بعمل سلسلة من الرسومات للقاعة المسماة Sala dello Scrutinio فى قصر دوج البندقية. وفى كنائس المدينة. وترسانة، السفن. أحيت ذكرى العصبة المقدسة والنص الذى منحه الرب فى هياكل الكنائس. والرسوم واللوحات التذكارية الرخامية، وقد خضع تيتيان Titian الذى كان قد انحدر به الحال إلى درجة إنتاج لوحات تذكارية عن مدينة البندقية. للملك فيليب الثاني. وفى لوحة فخمة. القصة الرمزية لليبانتو. يبدو الملك فى مظهر الشخص المسيطر على اللوحة. وهو يقدم ابنه القاصر دون فرديناند (الذى ولد فى الشهر التالى لمعركة ليبانتو) إلى الرب فى السماء، على حين تضع يد ربة النصر المجنحة أكاليل الغار على المنتصر. وفى مقدمة اللوحة يظهر تركى مقيد بحزام. وقد ألقيت أسلحته وعمامته على الأرض بجواره. وفى الخلفية سفينة حربية تحترق إشارة إلى النصر العظيم .

ثم تعززت الذكرى الرسمية للمعركة. ففى شهر مارس سنة ١٥٧٢م أصدر البابا مرسوما بأن يتم الاحتفال بعيد التسابيح فى الذكرى السنوية لمعركة ليبانتو. وفى كتدرائية طليطلة كانت تعرض راية استولى عليها المسيحيون فى ليبانتو كل عام فى يوم المعركة. ثم تقام صلاة الشكر. وفى الكنائس بشتى أنحاء العالم المسيحى الغربى ظلت احتفالات إحياء ذكرى معركة ليبانتو تقام بعد أن طوى النسيان تفاصيل المعركة بزمن طويل. لقد كانت للمعركة جاذبية شديدة بوصفها «موضعا للذاكرة». فقد بينت الوحدة المسيحية الأوربية(*). ومن ثم كانت نجدة فيينا من الحصار العثمانى سنة ١٦٨٣م هى التى أوضحت فقط أن استجابة العالم المسيحى جاءت. بصوت موحد

(*) يتحدث المؤلف باستمرار عن أوربا المسيحية بعبارة «العالم المسيحى» متجاهلا المسيحيين العرب وغيرهم فى العالم (المترجم).

مثلما حدث فى ليبانتو. وإذا كان البروتستانت لم يشاركوا فى ليبانتو. فإن قلة منهم فقط أدانوها باعتبارها نصرا للكنيسة الكاثوليكية. لقد كان لها بطل شخصى وعدو شيطانى. وربما كان هذا هو السبب فى أنها استمرت فى كراسات الدعاية وكتيباتها على مدى أكثر من قرن من الزمان بعد حدوثها .

وفى عمق زمنى أبعد. كتب الأديب الكاثوليكى شسترتون G.K. Chesterton ملحمة «ليبانتو» التى فيها. حرر دون جون قومه «لا ليصحح أخطاء زمانه فحسب. وإنما قدم أيضا رسالة للمستقبل :

يحفل الشمال بالأشياء والنصوص المتشابكة والعيون الموجوعة

وجميع الأبرياء أماتهم الغضب والمفاجأة

والمسيحى يقتل المسيحى فى غرفة ضيقة متربة

والمسيحى يفزع من المسيح الذى جاء بوجه جديد ليوم الدينونة والهلاك

والمسيحى يكره مريم التى قبلها الرب فى الجليل.

ولكن دون جون أمير النمسا على صهوة جواده يمضى صوب البحر

وينادى دون جون بالنفير وبكسوف الشمس

يصيح بالبوق. بوق شفتيه ممتدحا الرب المجيد

كان موضوع الاستمرارية هذا. أى استمرارية المعركة ضد عالم الإسلام. قد جاء فى سياقه المناسب سنة ١٩١١م .فقد نشرت ملحمة. ليبانتو» التى ألفها شستراتون فى الذكرى السنوية لمعركة ليبانتو. وبعدها بستة أيام هبط الجيش الإيطالى على أرض ليبيا للاستيلاء على ما تبقى من ممتلكات الدولة العثمانية فى شمال أفريقيا. وقبل ذلك بأيام قليلة. وهناك بعيدا فى البحر الأدرياتى. كان الأسطول الإيطالى قد هاجم سفينة مدفعية تركية فى بريفيسا وأغرقها. وهو موضع آخر للذكرى. لأن هذا كان

المكان الذى أرسى فيه دون جون فى الأيام التى سبقت معركة ليبانتو[٦٠]. ومع اتفاقية أوتشى **Ouchy**. التى جرى توقيعها يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٢م. أعادت إيطاليا. الاسترداد» المسيحى إلى شمال أفريقيا. فقد بسطت الأمم الأوربية سيادتها على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط بأسره. من مصر حتى المغرب. كانت ليبانتو. فى نظر شستروتون على الأقل. حملة صليبية نشطة ومتواصلة. ولم تكن مجرد حادثة انتزعت من سياق ماض ميت بشكل عشوائى[*].

كذلك ارتبطت ليبانتو فى مرونة بالخيال الشعبي. فقد كانت المواكب التى تضم من يقومون بدور المسيحيين ومن يقومون بدور المسلمين تحتفل بالانتصار المسيحى على مدى القرون فى المدن والقرى على ساحل إسبانيا الشرقى وفى كورسيكا [٦١]. إذ كان يتم إحياء الذكريات القديمة أو يعاد بناؤها مثلما حدث فى الاحتفال الضخم الذى أقيم تحت اسم موريسكا **Moresca** فى فيسكوفاتو **Viscovato** بكورسيكا سنة ١٧٨٦م تكريما للحاكم الجديد. كونت ماربيف **Marbeuf**. وفى هذا الاحتفال قام مائة وستون راقصًا وراقصة بتمثيل رواية ملحمية عن الانتصار المسيحى[٦٢].

لم يكن هناك نظير فى العالم الإسلامى لدورة الاحتفالات وذكرى النصر. فقد ساد هناك الحزن على كارثة ليبانتو واعتبرت مشيئة إلهية. فقد كتبت حولية معاصرة عن المعركة بشكل مقتضب أن. الأسطول السلطانى واجه أسطول الكفار الملاعين. وشاءت إرادة الله أمرا آخر»[٦٣]. وعندما سمع السلطان بما جرى استشاط غضبا وكاد يأمر بإعدام كافة المسيحيين فى مملكته. بيد أنه اقتنع فى سهولة بالرجوع عن هذا. لدرجة أننا قد نشك فى أنه كان يقصد هذا أساسا. ولم يكن من تقاليد العثمانيين أن يخلدوا نصرا ما الذكرى الدائمة. أو أن يعاقبوا أنفسهم بذكرى الهزيمة. كان النصر أو الهزيمة أمورا بيد الله. بل إن الوزير الأعظم للسلطان سليم الثانى. «محمد

(*) وضع المؤلف كلمة reconquista بين علامتى تنصيص لكى يبين أن هذا كان المفهوم الأوربى عن احتلال بلدان العالم الإسلامى. (المترجم)

سوقللو» ذكر للمبعوث البندقى الذى قابله بعد أيام قليلة من وصول أخبار المعركة إلى إستنبول، أن النصر المسيحى كان بلا معنى :

« لقد رأيت كيف أننا نتحمل سوء حظنا. ولكننى سوف أجعلك تعرف الفرق بين خسارتكم وخسارتنا. فعندما انتزعنا منكم قبرص حرمناكم ذراعا وعندما هزمتم أسطولنا حلقتم ذقننا فحسب. وعندما تقطع الذراع فإنها لا تنمو ثانية. ولكن الذقن الحليقة سوف تنمو بشكل أفضل من ذى قبل بفضل الموسى» [٦٤]

ومن بين جميع الانتصارات التى أحرزتها الجيوش العثمانية. كان الاستيلاء على القسطنطينية على يدى محمد الثانى الانتصار الوحيد الذى يجرى الاحتفال به ويتم إحياء ذكراه على طريقة احتفال الغرب بليبانتو. ولم يكن هناك فى احتفال العثمانيين ذلك التدفق فى الصور والنصوص التى تولدت عن النصر المسيحى فى ليبانتو. ونتيجة لهذا لم يحتل النصر العثمانى بفتح القسطنطينية مكانة راسخة فى مملكة التاريخ والذاكرة .

أما بالنسبة للمسيحيين فقد كانت حكايات ليبانتو تحتوى على رسالة مزدوجة عن الإسلام. فمن ناحية كان هناك «لالا مصطفى». القائد فى حملة قبرص. تجسيدا للعقاب القاسى والوحشى الذى نزل ببراجادينو. وكان ذلك مثالا على المفهوم المسيحى عن المسلمين ولكن من ناحية أخرى. كان على باشا القائد العثمانى فى ليبانتو. تجسيدا للعدو النبيل. فقد كان هناك تراث مسيحى طويل يرجع إلى زمن الحروب الصليبية والقصص المتواترة عن خصم ريتشارد الأول ملك إنجلترا الفارس الشهم صلاح الدين الأيوبي. يدعو إلى احترام العدو القوى. وكان السلاطين العثمانيون من أمثال سليمان القانونى يحظون بالتكريم أيضا بسبب فضائلهم المادية والحضارية. حتى لو كانت تلك الفضائل تقف على قدم المساواة مع القسوة. ولكن بخلاف صلاح الدين والسلطان سليمان. لم يكلل على باشا بالنجاح. فقد أخفق وكان نبله فى السلوك مسألة شخصية ولم يكن نتيجة دوره أو وظيفته. فعندما نزل بين العبيد المجذفين على متن سفينته ونطق بالكلمات التى بعثت الراحة فى نفوسهم. كان يتصرف وفقا لما كان

ينبغى على المسيحى أن يفعله. ومن الواضح أن هذا الافتراض غير المعلن كان كامنا فى الحكايات الغربية التى سجلت سلوك على باشا .

وقد عامله دون جون باحترام. فأخذ ولدى على باشا الصبيين اللذين أسرا على متن سفينة القيادة «سلطانة» تحت حمايته الشخصية. وأرسل مربيهما الذى نجا هو الآخر إلى إستنبول ومعه خطاب إلى أمهما قائلا إنهما سالمان ويحظيان برعاية جيدة. وأخيرا بعد أن مات أحد الصبيين من جراء مرض عارض. أعاد دون جون الصبى الآخر إلى عائلته دون دفع الفدية الكبيرة التى كان دفعها أمرا تقليديا. ولم تكن هذه مجرد لياقة منتظرة من قائد تجاه قائد آخر. وليس بوسعى التفكير فى أية حالة أخرى فى القرن نفسه يمكن أن تشبه هذه الحالة. لقد كان دون جون. مثل على باشا. يتحرك متخطيا حدوده الشخصية وحدود العلاقات الموضوعة لكل من المسلمين والمسيحيين على السواء .

كان الأكثر امتنانا لهذه الملابسات من «دون جون». «على باشا» هو ميجيل دى سرفانتس، الذى كان محاربا قديما فى لانافال **La Naval** (وهو الاسم الذى أطلق على المعركة فى إسبانيا فيما بعد. فقد كانت ليبانتو مجرد بداية مواجهة سرفانتس للعالم المسلم. وفى سنة١٥٧٥. وقع فى أسر قرصان جزائرى على مرأى من الساحل الفرنسى تقريبا. وصارت تجربته فى سجن العبيد بالجزائر على مدى خمس سنوات لب روايته الطويلة دون كيشوته **Don Quixote**". حكاية أسير. ولكن الأهم من الأحداث التى وصفتها الرواية هى طريقة سرفانتس فى القضاء على الإحساس بالعلاقة قتالية الطابع بين أرض الإسلام والعالم المسيحى. فهو يقدم نفسه فى هذه الرواية على أنه فقط الكاتب الثانى لرواية دون كيشوته. والقارئ الأول لها أيضا. وكشف النقاب عن الكاتب الأول وعن عثوره بمحض الصدفة على نص المسودة. عندما التقى فى طليطلة مصادفة بغلام يبيع حزمة من الأوراق القديمة :

« وقتها كان يحركنى الميل القوى لقراءة هذه القصاصات التى كانت تتطاير أحيانا عبر الشوارع. قادنى هذا. أى فضولى الطبيعى. إلى أن أنحنى لأرى بعض

الأوراق. فوجدتها مكتوبة بالعربية. التى لم أكن قادرا على قراءتها على الرغم من أننى أعرف الحروف. وبحثت عن واحد من مسلمى البرتغال يمكنه فهمها. والواقع أنه على الرغم من أن اللغة كانت أكثر طلاوة وقديمة. فإننى ربما وجدت من يفسرها لى».

وقرأله المفسر العنوان بصوت عال. « تاريخ دون كيشوته تأليف السيد حامد بن ننجلى. مؤلف عربى .Don Quixote de la Moncha. by Cid Hamet Bennengli . An Arabic auther

ودفع له سربانتس لكى يترجم له النص. وهو ما استغرق ستة أسابيع. ودفع مقابله ربعين من الزبيب ومكيالين من القمح. ولم يكن السيد حامد الغامض الخفى هذا مجرد شفرة يتم استخدامها فى موضعها. مثل تلك الشخصيات الغريبة من الأتراك والفرس التى كان يتم استخدامها للتعليق على العالم المسيحى من منظور خارجى منفصل إلى حد ما[٦٥]. ويعاود المؤلف العربى التجوال فى داخل النص بين الحين والحين. وهو الذى يكتب مرثية دون كيشوته :

« من أجلى فقط ولد دون كيشوته كما أننى ولدت من أجله وحده. ولد هو لكى يفعل وأنا ولدت لكى أسجل. وبعبارة أخرى كان كل منا قدر الآخر ... فلترقد عظام دون كيشوته المتعبة والمتآكلة فى قبره. أى لا تكتبوا المزيد لتكملة قصة حياته. .... وبعملى هذا سوف تتسقون مع عقيدتكم المسيحية حين تسدون الخير لأولئك الذين يفعلون الشر ضدكم. وسوف أستريح راضيا هانئا مسرورا برؤية نفسى المؤلف الأول. الذى استمتع للغاية بثمرة كتاباته. وبنجاح ما هدفت إليه. لأن قصدى لم يكن أكثر من أن تلهم روايتى البشر حتى يمقتوا القصص الزائفة غير المحتملة التى ترويها كتب الفروسية. التى اهتزت بالفعل من جراء مغامرات صاحبى دون كيشوته الحقيقية والأصلية والتى سوف تغوص فى طى النسيان. وداعا».

هل كان هذا أكثر من مجرد حيلة أدبية جسورة. إن سرفانتس لم يشارك فى الصورة النمطية التى كانت شائعة عن المسلم. ولنأخذ. على سبيل المثال. تقديمه لميولى

مالك فى المسرحية التى تحمل عنوان **The Dungeons of Algiers**. والتى كتبها سنة ١٥٩٠م تقريبا.

« إنه مسلم مشهور

وفى طائفته وقانونه الشرير

كان ضليعا متمكنًا ومخلصا للغاية ؛

يعرف لغة الترك

كما يتحدث الإسبانية والألمانية

وكذلك يعرف الإيطالية والفرنسية. وينام

فى سريره. ويأكل على المائدة

جالسا على الطريقة المسيحية ؛

وهو فوق هذا وذاك جندى عظيم

كريم. حكيم ورابط الجأش

تزينه من الفضائل ألف فضيلة[٦٦]

وكذلك لم يفعل وليم شكسبير. المعاصر لسرفانتس والذى شاركه تاريخ وفاته. عندما رسم شخصية أوثيللو **Othello**. مسلم البندقية .وربما كان «ميولى» النموذج الذى نسجت على منواله شخصية أوثيللو[٦٧]. لكنه بينما كان ميولى مغربيا خالصا. كان أوثيللو رجلا مزدوج الهوية. فلا شك فى أنه كان مغربيا مسلما. ولكنه كان أيضا يعمل فى خدمة البندقية المسيحية. ولكن عندما يكتب سرفانتس عن السيد حامد بن ننجيلى. وينسب إليه تأليف روايته. فإن هذا الأمر يبدو معقولا فقط عندما نفهم السياق التاريخى المحدد. إذ كان الجزء الأول من دون كيشوته قد نشر سنة ١٦٠٦م. ونشر

http://al-maktabeh.com

الجزء الثانى سنة ١٦١٥م. وفيما بين هاتين النشرتين. كانت إسبانيا قد تخلصت نهائيا من أحفاد المسلمين. الموريسكيين. فبعد طرد الموريسكيين من مملكة غرناطة بعد أن سحق دون جون تمردهم. تم تشتيتهم فى جميع أنحاء إسبانيا. وتحملوا عبء اللوم على كل ما حاق بإسبانيا من المصائب والنكبات. وفى عمل نهائى من أعمال التطهير العرقي. أرغموا على التوجه سيرا إلى الموانئ البحرية سنة ١٦٠٩م حيث حملتهم السفن إلى المغرب الإسلامى .

كان سرفانتس عندما أقدم على جعل المسلم السيد حامد. « مؤلف روايته الأول». قد قام بحركة خارقة للعادة وغاية فى الجسارة فى نظر أهل ذلك الزمان. فقد أدرك سرفانتس من خلال الأحداث التى مرت بها حياته، الحرب، والعبودية. والعوز والإملاق، والسجن والنجاح. ثم الاستعداد أخيرا للموت فى مسوح الرهبان. إن تقسيم العالم إلى مسيحيين أخيار ومسلمين شيطانيين. إنما هو تقسيم زائف تماما. ولم يكن يساوره شك فى الفجوة التى تفصل بينهما. أو فى أن كلا منهما كان يعتبر الآخر. كافرا». بيد أنه لقى فى فترة عبوديته فى الجزائر معاملة أفضل من تلك المعاملة التى لقيها فى وطنه إسبانيا. كما عومل أحيانا معاملة أسوأ من المعاملة التى عومل بها فى بلاده. لقد ضربت روايته بجذورها فى تربة تجربته الخاصة حقا. ولكن حتى أولئك الذين لم تطأ أقدامهم أرضا إسلامية قط كان عليهم أن يناضلوا إزاء موضوع الكافر الذى يتحلى بالفضائل :

« أولئك العرب يميلون كثيرا للسارق الناهب

ذى الوحشية الطبيعية. وصاحب السلوك الدنىء

ولكن الملك هاللا [ملك المغرب. كريم ومعتدل وحكيم

وينافس أفضل الأبطال قبولا واستحسانا

فهو مجامل. وإنسانى النزعة. يسهل التعامل معه

هذا الملك ينجد بالمروءة عند المصائب

مع أن هذا الأمير العظيم يرفض عقيدتنا المقدسة

فإن فضائله الأخلاقية تتلألأ واضحة جلية

فهو مثل بعض من حملوا صولجان روما

ويبز معظم الملوك الذين يزين المسيح عقولهم[١٨] .

لم تكن ليبانتو فى قلب اللغة من المعانى المتشابكة. فقد كانت نصرا مذهلا. لكنها كانت حسبما تنبأ الوزير التركى سوقوللى. نصرا ذا قيمة عسكرية وسياسية عابرة. فبعد سبعة أعوام من المعركة. قتل جيش مسلم تعززه الإنكشارية ،عند القصر الكبير فى المغرب. ملك البرتغال دوم سباستيان **Dom Sebastian** ابن أخى دون جون ومعه معظم النبلاء البرتغاليين[١٩]. بيد أن معركة القصر الكبير تلاشت من الذاكرة الجماعية. على حين تم تجميل معركة ليبانتو وتعزيزها على مر السنين. لقد كان لقاء دون جون وعلى باشا. بحضور الآلاف من الجانبين. هو الذى قدم أكثر من أية مواجهة أخرى فى القرن السادس عشر. بين عالم الإسلام المسيحية الغربية الجمع بين الضدين والالتباسات التى لا تنتهى عن العلاقة بين هذين العالمين .

هوامش الفصل الأول

١- أربعة وعشرون قدما طولاً فى ثلاثة عشر قدمًا عرضًا .

2. Cited in Rodgers, *Naval Warfare*, p. 179.

٣- على الرغم من أن الفرنسيين لم يكونوا حاضرين ، فإن العواطف الشعبية فى فرنسا كانت فيما يبدو مع قوات العصبة المقدسة. وفى الدول البروتستانتية ، يبدو أن التعاطف كان أيضا مع جيوش أوربا الكاثوليكية.

٤- كل من مصطلح **Chistendom** ومصطلح **Islam** مصطلحان مركبان ، وربما يصفهما كثير من المنظرين بأنهما «خطابان» . ومن المؤكد أننى استخدمت «مصطلح العالم المسيحى **Christendom**» بهذه الطريقة ، وليس باعتباره مصطلحًا يعنى مجتمعًا مسيحيًا خالصًا، وهو ما لم يوجد أبدًا منذ الأيام الأولى للمسيحية، وإنما لوصف الثقافات المأخوذة من التاريخ الطويل للدين المسيحى. والإسلام ليس ما يمكن مقارنته بالضبط فى بنيته بالعالم المسيحى ، ولكن ليست لدينا كلمة مفردة فى الإنجليزية تحتوى على هذا الخطاب أيضا. وعبارة «دار الإسلام» قد ترجمت بأشكال مختلفة إلى الإنجليزية . والنقطة الأساسية هى أنه بالنسبة للمسلم الورع يوجد كل ما هو خير وضرورى فى دار الإسلام ، على حين أن كل ما هو خارجها نظام أدنى قدرًا. ولكن كل ما هو بالخارج يمكن جلبه إلى الداخل ويصير خيرًا . عن هذه الموضوعات انظر **Hentsch، Imagining** .

5. They escaped, by this papal decree, 200 years of Purgatory.
6. The banner, which was long kept as a trophy in Spain, was destroyed by fire in the nineteenth century.
7. Ali had formerly been second in command to Piali Pasha.
8. Genesis 4:14. The traditional explanation, that the Arabs descended from Ishmael, the elder son of Abraham, and his concubine Hagar, elided with the legend of Cain, also the elder son, and also cast out. For the instability and mutability of these legends of origin, see Freedman, *Images*, pp. 89–96.
9. The leader of the poor warriors of the First Crusade, the King of the Tafurs, called Muslims 'sons of whores and of the race of Cain'; see Cohn, *Pursuit*, p. 67. The people of the West, it was believed, were descended from Adam's third son Seth, via Noah and his lineage.
10. See, for example, Christian Augustus Pfaltz von Osteritz, *Abominatio desolationis Turicae*, Prague: Carl-Ferdinand Druckerei, 1672, pp. 81–3.
11. France adopted the alternative approach of seeking alliance with the Ottomans, and Spain also sought an accommodation after 1580.
12. The paradox and ambiguity between Islam as part of God's intended plan – to bring his people to self-awareness – and Islam as pure evil was never properly resolved. Many writers embody both attitudes.
13. Some, like the Grand Vizier Sokullu, preferred to use diplomatic means.
14. So-called from the three banks of oars on each side.
15. Increasingly, also in the artillery carried aboard. This proved to be a decisive advantage for the Christian ships in battle. But the guns could only sink or disable an enemy ship. Like infantry ashore, a galley battle usually depended on hand-to-hand fighting.
16. This numbered about sixty-five soldiers in the Spanish galleys of the 1530s, but this had risen markedly by the 1570s. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 227.
17. Ibid., p. 221.
18. This practice was especially common among the Maltese captains.
19. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 63.
20. See I. A. A. Thompson, 'A Map of Crime in Sixteenth-century Spain', *EHR* Second Series, XXI, No. 2 (August 1968), pp. 244–67.
21. Often false 'debts' were created to allow them to be kept at the oar.
22. See Ruth Pike, *Penal Servitude in Early Modern Spain*, Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1983.
23. See Bracewell, *Uskoks*.
24. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 99.
25. This was the case with Ulch Ali, or Kulic ('the Sword') Ali; a Calabrian, kidnapped from his village, he became the Kapudan Pasha after Lepanto.
26. This was a form of flammable liquid (like napalm) devised by the Byzantines that would burn even under water. Its exact formula remains unknown to this day.
27. The first forms were Venetian merchant galleys adapted to carry cannon. Later forms evolved towards becoming longer and broader in beam.
28. See Guilmartin, *Gunpowder and Galleys*, p. 234.
29. Strictly speaking, he lost the use of his arm.

30. For example, the sixteenth-century French jurist and philosopher, Jean Bodin (now best remembered for his writings on political sovereignty), denied that it was a sufficient cause for a just war.
31. Qur'an, Surah 61:4.
32. See Renard, *Islam*, pp. 43–65.
33. The Patent Number 418 of 15 May 1718 for Puckle's machine gun, however, shows that it was designed to fire round bullets at Christians and square bullets at Muslims. This was perhaps the last effort at this kind of control on sectarian grounds. See W. H. B. Smith, *Small Arms of the World*, Harrisburg, PA: Stacpole Publishing Company, 1957, p. 92.
34. Artillery *was* used in innovative fashions, as, for example, Mehmed the Conqueror employing siege artillery to destroy the walls of Constantinople, but it was manufactured by renegade Hungarian Christians.
35. As, notably, at the battle of Dettingen in 1743.
36. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, p. 385, citing Don John to Don Garcia de Toledo, 16 September 1571.
37. Ibid., pp. 384–5.
38. The 100,000 men included new contingents that arrived in early spring. See Beeching, *Galleys*, p. 175.
39. Ibid., p. 176.

٤٠- على أية حال سمح السلطان سليمان القانونى لفرسان القديس يوحنا بإخلاء رودس بعد حصار دام خمسة أشهر كلف الأتراك ما بين خمسين ألف ومائة ألف قتيل. ولكن فى تلك المناسبة تم تبادل الرهائن بين الجانبين الذين نفذا شروط المعاهدة حرفيًا .

(p.363)

٤١- انظر : **Bohnsetdt, "The Infidel Scourage" , p. 19**

وصف كاتب ألمانى هو **Velt Dietrich** الأتراك على هذا النحو : "ليست لديهم رحمة ، ولا يضاهيهم أحد فى الاغتيال الوحشى طوال التاريخ ، ولا حتى الوثنيين باستثناء أفعال الإسكيثيين وغيرهم من البرابرة حين يتملكهم الغضب . ولكن التركى يفعل مثل هذه الأشياء فى كل وقت ، لا لسبب سوى أن الشيطان يسوقه ضد المسيحيين" .

(p. 364)

http://al-maktabeh.com

42. Some sources suggest that he was whipped every day. My account is based on Stirling-Maxwell, who in turn bases his reconstruction on Paolo Paruta, *Storia della guerra di Cipro*, part of his contemporary *Historia Venetiana*, published in 1605, and on Nestor Martinengo, taken prisoner at Famagusta, and whose *Relazione di tutto il suceso di Famagusta*, was published in Venice in 1572. All these sources reflect viewpoints acceptable to Venice, but there is no reason to doubt their accuracy. I have not been able to find an Ottoman source that covered these events in any detail. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, p. 370.

43. C. D. Cobham (ed.), *The Sieges of Nicosia and Famagusta: With a Sketch of the Earlier History of Cyprus*, edited from Midgley's translation of Bishop Graziani's *History of the War of Cyprus* (1624), London: St. Vincent's Press, 1899, p. 17; and *The Sieges of Nicosia and Famagusta in Cyprus Related by Uberto Foglietta*, trans. Claude Delaval Cobham, London: Waterlow and Sons, 1903.

٤٤ – كان ينظر إلى سلخ الجلد باعتباره إهانة بالغة ، جزئيًا بسبب قسوته ولكن أيضا بسبب نزع الهوية البطيء . وكان سلخ الجلد نادرًا بين العثمانيين، على حين كانت هناك عقوبات قاسية أخرى أكثر شيوعًا. ولم يكن هناك شك أنه رغبة فى إحداث تأثير الصدمة أمر لالا مصطفى بهذا الشكل المخيف من الموت . وثمة نقطة المرجعية هنا هى قصة أوفيد **Metamorphoses** عن أبوللو الذى أمر بسلخ جلد منافسه مارسياس. وقد رسم المشهد على يد تيتان حوالى سنة ١٥٧٥م . وكان الرعب الذى بثته عملية سلخ الجلد واضحًا فى ترجمة آرثر جولدنج سنة ١٥٦٧م.

Jonathan Sawday , the Body Emblazoned : Dissection and the Human Body in Renaissance Culture, London: Routledge ١٩٩٥, pp. ٧-١٨١ .

وكان من الملاحظ أن براجادينو لم يصرخ ولكنه غمغم بالكلمات حتى سقط صامتًا.

45. See the dispatch from Don John to Philip II, describing the taking of Galera, reprinted as Appendix I in Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. 2, pp. 364–71: 'In the place itself the defence was so obstinate that it was necessary to take it house by house and the taking of it lasted from nine in the morning, fighting going on the whole while in the houses, in the streets and on the roofs, the women fighting as well and bravely as their husbands.'

46. This was Stirling-Maxwell's conclusion about the battle: 'Although in numbers, both of men and vessels, the Sultan's fleet was superior to the fleet of the league, this superiority was more than counterbalanced by other important advantages possessed by the Christians. The artillery of the West was of greater power and far better served than the ordnance of the East.' See ibid., vol. I, p. 423.
47. My translation from M. Antonio Arroyo, *Relación del progresso della Armada de la Santa Liga* (Milan, 1576), cited in ibid., vol. I, p. 410. Maxwell translates *Hermanos* as 'Friends', but 'Brothers' makes better sense.
48. Putti blowing on to the Christian ships to fill the sails were shown in paintings of Lepanto.
49. Some of the commanders on the wings had already made the decision for themselves and gave the galleasses a wide berth.
50. Of the 170 Ottoman galleys captured most of them were so badly damaged as to be useless. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, pp. 430–31.
51. Ibid., p. 407, citing Girolomo Diedo, *Lettere di Principe*, vol. III, p. 266.
52. See Stirling-Maxwell, *Don John*, vol. I, p. 427.
53. Ibid., pp. 445–6.
54. Fray Josef de Sigüenza, *Historia Del Orden de San Geronimo* (1605), cited in ibid., p. 448.

٥٥ – حسبما كتب إلى دون چون بعد ستة أيام «فكرت فى أننى لا يجب أن أصل قط ولكن كنت قد دخلت إلى مكان الذخائر المقدسة فى إيطاليا وفرنسا بوصفى رجلا أرسله سموك» . وبرباطة جأش مدروسة لم يسأل الملك عن المعركة فى البداية. «وعلى مدى نصف الساعة الأولى لم يفعل شيئا غير الأسئلة : «هل أخى بخير حقًا؟ « وكافة أنواع الأسئلة المخاتلة التى تطلبتها الحال. ثم أمرنى أن أحكى كل شىء حدث منذ البداية، دون حذف أية تفاصيل ، وبينما كنت أتحدث، أوقفنى ثلاث مرات ليسألنى عن المزيد من التفسيرات؛ وعندما انتهيت ، نادانى مرة أخرى كما يحدث غالبًا لكى يسأل عن تفسيرات أخرى؛ عن رعاية سموك للجرحى وكيف تخليت عن نصيبك من أموال الغنائم للجنود، وهو ما أثر فيه كثيرًا" انظر :

.Rosell, Historia , Appendix xiv, p. 208.

56. See Christopher Tyerman, *The Invention of the Crusades*, Basingstoke: Macmillan, 1998, pp. 101–6.
57. See Rosell, *Historia*, p. 208, for the report of Don Lope de Figueroa.
58. I owe this observation to John Brewer.
59. Reproduced in Göllner, *Turcica*, vol. 1, p. 234.
60. This was recalled in an etching of the Triumphal Entry made in the mid nineteenth century. Now in the Museo de Roma, Gabinetto Comunale delle Stampe.
61. It had been also, of course, the site of the inconclusive battle of Prevesa in 1538.
62. The traditional puppet theatre of Sicily also enacts these stories.
63. See Musée de la Corse, *Moresca*.
64. Cited in Lewis, *Discovery*, p. 43.
65. See Joseph von Hammer-Purgstall, *Histoire de l'Empire ottoman: depuis son origine jusqu'à nos jours*, trans. J.-J. Hellert, 18 vols, Paris: Bellizard, Barthès, Dufour, 1835–43, vol. 6, p. 434.
66. As in Montesquieu's *Lettres Persanes* (1721).
67. *The Dungeons of Algiers*, act 3.
68. Muley Malek was modelled on reality, from a Moroccan prince, Muley Maluco, living in Spain.
69. *Alfred, An Epick Poem*, 'In Twelve Books' by Sir Richard Blackmore, London, 1723, bk I, p. 24.
70. The last early modern Mediterranean 'crusade' was not Lepanto, but this Portuguese expedition that ended in disaster on 4 August 1578 not far from Tangier. See Braudel, *Mediterranean*, pp. 1178–9, and Hess, *Forgotten Frontier*, pp. 96–8.

(٢)

الاتصال الأول

هذا الكتاب يدور حول العداوة. كيف خلقت. وكيف بقيت. ومع أن المسلمين لم يكونوا أول أعداء العالم المسيحى الغربى ولا أعداءه الوحيدين. فإنهم سرعان ما صاروا بؤرة الخوف والكراهية الأولى بالنسبة للغرب. وفى النهاية صارت الكلمات المستخدمة لوصفهم نفسها هى رموز الإساءة الشائعة[١]. ففى زمن معركة ليبانتو كان المسيحيون يسيئون لبعضهم البعض باستخدام مصطلحات مهينة تنطبق على المسلمين. وفى بافاريا القرن السادس عشر كان البروتستانت يصفون أعداءهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية بأنهم. الجزويت والمماليك». وفى إنجلترا أبدى وليم تايندال William Tyndale أسفه لأن كثيرا من مواطنيه الكاثوليك قد صاروا هم. المسيح الدجال من مماليك روما». ومن الصفات التى كانت شائعة فى أوربا القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين عبارات مثل. «التركى الفاجر». «عرب الشوارع». «المللا المجنون». ولكنها مصطلحات تعود بأصلها إلى الأفكار التى كانت منتشرة عن الشرق والتى تطورت بصورة ثابتة منذ القرن السابع عشر فصاعدا[٢] .

يفوق اهتمام المسيحيين بالإسلام وانشغالهم به. إذا ما حكمنا من خلال حجم النصوص المكتوبة والكتب وتفاسير الكتاب المقدس والأوصاف. والمجادلات. والقصائد والملاحم –اهتمام المسلمين بعالم المسيحية الغربية بدرجة كبيرة [٣]. ويجب أن نميز هنا بين الإسلام والمسيحية. الديانتين اللتين يؤمن بهما أتباعهما من المسلمين والمسيحيين. و «الإسلام» و«المسيحية» اللتين فى تصور كل من الفريقين

لديانة عدوه. فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى، كان ينظر إلى «الإسلام» على أنه العدو الخارجي للعقيدة المسيحية الحقة. ولم يدانه فى خطورته المميتة سوى العدو الداخلي. أى الهرطقة. وعلى مر الزمان صارت صورة الإسلام بوصفه عدوا. ومنافسا. وخصما رئيسيا. صورة أكثر تعقيدا وقوة. وتم تعديل الفجاجة الأولية التى اتسمت بها الصورة لتصير أكثر حذقا من خلال إضافة أبعاد جديدة حسب تغير الظروف. والتخلص من تلك الأبعاد التى لم تعد مناسبة فى الصورة. وهكذا بدأت السخرية الفجة من النبى محمد تتلاشى على حين بدأت تتكاثر أوصاف أكثر تنميقا لخطورة الإسلام .

هذه القدرة على «بناء» الأعداء. وجعلهم شيطانيين فى قوتهم. شاملين فى خصومتهم. لا يبارون فى حقدهم. هى التى تغلغلت فى مجتمع أوربا الغربية. وقد امتدت هذه القدرة فى الكثير من المناسبات. وبرهنت على فعاليتها ضد جميع أنماط الأجانب الغرباء عن المجتمع. وكافة أصناف الأعداء السياسيين والعرقيين والاجتماعيين[٤]. ومن ثم، فإنه ينبغى علينا ألا نأخذ ما قيل عن «الإسلام». أو «الهرطقة». أو «اليهودية»، كما هو أو بقيمته الظاهرية. وإنما علينا أن نحاول أن نرى. أولا وقبل كل شىء. كيف كانت المعانى تنمو وتتكاثر. فمنذ البداية فوجئ الغرب بسرعة تقدم الإسلام. فقد ولد النبى محمد سنة ٥٧٠م تقريبا. أى بعد خمس سنوات من موت الإمبراطور جستنيان الذى كان قد أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) وعاد بها إلى أقصى اتساع بلغته منذ القرن الثانى بعد الميلاد. بيد أنه فى غضون جيل واحد بعد وفاة النبى نفسه سنة ٦٣٢م. كان محاربو الصحراء من جنود الإسلام يفرضون الحصار على القسطنطينية. عاصمة جستنيان. وحسبما لاحظ إدوارد جيبون. «لابد أن العرب الأوائل اندهشوا من سهولة انتصاراتهم وسرعتها عندما خرجوا من الصحراء» .

قبل ظهور الإسلام كان العرب يتفاخرون بحروبهم القبلية. وبطولاتهم البدوية. وكان الوصف اللاتينى الذى استخدم لوصفهم فيما بعد ferox يوحى بالاندفاع الوحشى العنيد. لقد كان اللاتين يعنون ضمنا القوة الحيوانية. ولكن العرب كانت لديهم

http://al-maktabeh.com

صورة إيجابية عن الذات إلى حد كبير. على حين كانت صورتهم بالنسبة للمسيحيين مرادفا للبربرية[٥]. ولم تكن جيوش الإسلام التى خرجت من المنطقة الخالية الواقعة وراء فيلادلفيا الرومانية (عمان الحديثة فى الأردن) والمدن الرومانية الأخرى الواقعة على حافة الصحراء. والمعروفة إجمالا باسم المدن العشرة **Decapolis**. تبدو جيوشا مختلفة عن أية جيوش قبلية أخرى. فلم تكن لديهم أية مهارات مكتسبة بالتدريب أو الأسلحة جيدة الصنع التى كانت بحوزة أفضل الجيوش البيزنطية أو الفرسان الفرس ثقيلى التسليح. ففى أفضل الأحوال كانوا محاربين قبليين اعتادوا الحياة الشاقة. ويمكنهم الازدهار فى البيئة الصحراوية حيث لا يمكن للفرسان ذوى التسليح الثقيل أو المشاة المتثاقلين أن يبقوا أكثر من أيام قليلة. ولم تهتم أى من الإمبراطوريتين. روما وفارس. كثيرا بالهامش الصحراوي. وكانتا تستأجران عربا آخرين لحماية مدنهما من المغيرين الصحراويين. وكانت تلك هى الوسيلة التى تبنتها الإمبراطورية الرومانية الغربية على مدى قرون عديدة قبل ذلك إزاء «البرابرة» عندها .

كانت هذه مشكلة عسكرية مختلفة بالنسبة لروما فى أوربا حيث كانت الحدود أو **limines** تجرى على امتداد الحدود الطبيعية. مثل الأنهار أو الجبال. ولكن على امتداد هامش الصحراء الشرقية كان التناقض بين الحضارة والبداوة أكثر حدة وتطرفا. فقد كانت الحضارة تعنى الزراعة المنظمة. والاستقرار فى القرى والمدن. وكانت البرية تبدو خالية من الحياة. وكان بوسع عرب الصحراء أن يشنوا الحرب فى الأراضى الأكثر تحضرا. ولكن كان من الصعب منطقيا أن تقوم القوات النظامية للإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية بشن حملة بعيدا عن قواعدها. ونادرا ما شن عرب الصحراء أكثر من غارة واحدة عبر الحدود غير الثابتة. كانت القبائل قليلة العدد ولم يكن هناك من الأسباب ما يدعوها لمهاجمة عدو قوى. وحشدت العقيدة البازغة جيشا جديدا قويا كما وفرت له هدفا وقصدا للحرب. وفى خلال سنة بعد وفاة النبى محمد كانت جميع القبائل الكبرى قد توحدت تحت راية الإسلام. وتمت مطاردة المرتدين وقتالهم. وخضع أولئك الذين التزموا الحياد. وقد حرم الدين الجديد الحرب بين المسلمين الإخوة. وهكذا تحول اتجاه ثقافة الغزو نحو الخارج. فيما وراء شبه الجزيرة العربية .

وغالبا ما حققت المجتمعات القبلية. ولا سيما تلك التى ظهرت فى آسيا. مثل الهون والمغول. توازنا مثاليا وفر ما يكفى من التماسك الاجتماعى والسياسى دون أن يحد من طاقاتهم الحربية وقوتهم. ويبدو أن التحول والانتقال نفسه قد حدث فى قلب جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادي. إذ وفر الإسلام من خلال تعاليمه التماسك والاتجاه على السواء. كما وفر القدرة على تعبئة المجموعات القبلية التى كانت محصورة قبل سنوات قليلة فى الحروب التى كانت تنشب فيما بينها. ومن بعدها أظهروا كل القوة وسرعة الحركة والطاقة البدائية التى لاحظها المؤرخون والباحثون بعد ذلك فى جيوش الشرق الأقصى. وعلى أية حال. كان هناك اختلاف واحد. فقد كانت الجيوش الآسيوية تتمركز حول الحصان. على حين كان العرب ما يزالون فى الغالب جنودا مشاة. وكان لديهم. بطبيعة الحال بعض الخيالة. وكانوا يستخدمون الإبل فى تحركاتهم .ولكن، على خلاف التصورات اللاحقة، لم يكن هذا جيشا يمتطى الخيول العربية الفاخرة. أو جيشا من الفرسان الذين يقاتلون فوق ظهور الخيل. فقد كان العرب قوما فقراء وكانوا مسلحين بالحراب. وكانوا يسيرون بلا تعب ويستخدمون من المياه ويستهلكون من الطعام قدرا أقل مما يستهلكه أى حيوان. وكانوا يحاربون قبل ذلك الحين فى مجموعات صغيرة وحيدة. ولكنهم كانوا آنذاك يسيرون تحت قيادة القادة المسلمين بأعداد تعد بالآلاف(*).

(*) هذه الصورة التى يرسمها قلم المؤلف للجيوش الإسلامية تتناقض بشكل واضح مع الصورة التى ترسمها المصادر التاريخية والدراسات الحديثة عن الفتوح الإسلامية. فلم يكن العرب كلهم من بدو الصحراء. فقد كان القادة كلهم تقريبا من أبناء قريش ومكة التى كانت مدينة. دولة لها مؤسساتها وتقوم بدور مهم فى التجارة العالمية بين عالم المحيط الهندى وآسيا من ناحية. والمنطقة العربية وأوربا من ناحية أخرى. كما أن معظم جيوش الفتح كانوا من أبناء اليمن صاحب الحضارة العريقة. فضلا عن أن العرب يعتزون كثيرا بالحصان فى تراثهم. كما أن مؤرخا مثل هيو كينيدى الذى كتب الدراسات العديدة عن الفتوح العربية لا يذهب إلى ما ذهب إليه مؤلفنا الذى يبدو أن معلوماته التاريخية فى هذا الموضوع بحاجة إلى مراجعة. المترجم)

وقد تجاهل البيزنطيون. وأعداؤهم الفرس. أو لم تكن لديهم معلومات كافية. عن الهبّات التى شهدتها الصحراء. وعن سنوات المعارك والمناوشات التى جرت بين المسلمين والقبائل القوية التى كانت تحيط بهم. ولكن فى منتصف صيف سنة ٦٣٣. ظهر جيش صحراوى كبير فجأة أمام مدينة الحيرة الفارسية المسورة على الحدود الصحراوية جنوب نهر الفرات. وفى الوقت نفسه الذى شهد التقدم الإسلامي. كانت فارس تعانى الضعف. أولا بسبب سنوات الصراع ضد البيزنطيين. وثانيا بسبب الحرب الأهلية التى نشبت فيما بين أفراد الأسرة الحاكمة. وفى غضون عدة أشهر كانت الطوابير العسكرية الإسلامية سريعة الحركة قد تقدمت صوب الشمال لتدمر الحاميات الفارسية المنعزلة. وتقتل أولئك الذين قاوموها. إما بالصلب أو بالسيف[٦]. وقضوا على أعدائهم كما جندوا الذين اعتنقوا الإسلام من بين المزارعين وواصلوا تقدمهم. كانوا يأخذون الضرائب ولا يستقرون فى البلاد التى فتحوها[٧](*).

وهكذا بسط العرب سيادتهم على المناطق الحدودية. شأنهم شأن رجال حرب العصابات الريفية على مرِ التاريخ. فقد كانت الصحراء التى تدين لهم بالخضوع مثل البحر الذى تضرب مياهه شواطئ مناطق الاستقرار فى بلاد الشام وفلسطين وعلى امتداد السهل الخصيب الواقع فيما بين نهرى دجلة والفرات. وكانوا يتحركون بالسرعة التى تربك أعداءهم من الفرس والبيزنطيين. إذ كان الجيش الإسلامى الذى يحارب شرق نهرى العراق الكبيرين يغير وجهته فجأة ليزحف إلى الجنوب الغربى

(*) يبدو أن المؤلف فى حاجة لمراجعة معلوماته التاريخية عن حركة الفتوح الإسلامية. فالمصادر التاريخية لا يمكن أن تسانده فيما ذهب إليه. ومن يتأمل كتب الفتوح. مثل البلاذرى والطبرى وابن عبد الحكم وغيرهم. سوف يجد تناقضا صارخا بين ما ذهب إليه وما ورد فى هذه المصادر التاريخية. بل إن المصادر التاريخية البيزنطية المعاصرة. وهى معادية للإسلام والمسلمين بطبيعتها. لم تخترع مثل هذه الأحداث. وما ذكره يوحنا النقيوسى. مثلا. وهو أسقف قبطي معاصر لفتح مصر ومعاد تماما للمسلمين. يكشف عن تهافت كلام المؤلف. فقد كان العرب المسلمون فى كثير من الأحيان يأخذون المدن المفتوحة صلحا. مثلما حدث فى فتح بيت المقدس وفتح مصر. ولم تكن جيوشهم فى غالب الأحوال تزيد أعدادها عن عشرين ألف مقاتل. (المترجم)

حول بادية الشام. ثم يتجه شمالا نحو باميرا. وفى إحدى المراحل. كان على جيش المسلمين أن يعبر خلال منطقة قاحلة تماما تخلو من الواحات أو منابع المياه. وهنا لعب تراث الصحراء عند رجال القبائل دوره عندما بحثوا عن النباتات الصحراوية التى تشير إلى وجود المياه تحت السطح مباشرة. وكانوا أيضا قد جعلوا الإبل تشرب حتى امتلأ جوفها بالماء فى آخر واحة مروا بها. ثم كانوا يذبحون فى كل يوم أربعا من الإبل. ويشقون جوفها الملىء بالمياه لتشرب خيولهم القليلة الثمينة[٨].

وفى الوقت نفسه. كانت هناك قوة عربية أخرى. قوامها ثلاثة آلاف فرد على الأقل. وربما كانوا تسعة آلاف. وهو رقم ضخم بمقاييس حملات الصحراء. تشق طريقها صوب شمال غرب شبه الجزيرة العربية باتجاه ساحل البحر المتوسط. وكان الإمبراطور البيزنطى هرقل. وهو محارب قديم محنك عركته المعارك ضد الفرس على مدى عشرات السنين. مدركا للخطر الذى يشكله عرب الصحراء فى ذلك الحين. وجرد جيشا ميدانيا من حمص فى بلاد الشام لكى يحول دون تقدم المسلمين المتجهين شمالا من بئر سبع. وكان جيش المسلمين قد ذاق حلاوة النصر بالفعل، وأخذ يزيح جانبا القوات المحلية التى كان يقودها حاكم غزة. وثمة حولية سورية كتبت بعد الأحداث بفترة من الزمان وصفت حصاد المواجهة كما يلى. « هرب البيزنطيون وتخلوا عن القائد... وذبحه العرب. وقتل حوالى أربعة آلاف من القرويين المساكين من المسيحيين واليهود والسامرة. ودمر العرب القصر تماما»[٩]. وكان هرقل قد أرسل جمهرة جيشه جنوبا على امتداد الشريط الساحلى المنبسط. ومرَ الطابور الرومانى ببلدة الرملة. متجها صوب الجيش العربى. وجاءته الأخبار بأنهم ما زالوا قرب غزة. وقد تحركت قوة بهذا الحجم ببطء. وحافظت على قربها من البحر لضمان وصول الإمدادات إليها من الأسطول البيزنطى قبالة الساحل. ولم يكن هؤلاء مجرد جنود محليين ذوى تدريب متواضع. وإنما ضموا نواة من المشاة المدرعة الثقيلة. والخيالة رماة السهام، والفرسان المدرعة الثقيلة .

وعند نقطة ما جنوب الرملة وقع البيزنطيون فى كمين أعده العرب. فقد كان جيش المسلمين قد تقدم مسافة شمالا أبعد مما كان هرقل أو قادة جيشه قد توقعوه.

ومن غير المعروف على وجه الدقة الموقع الذى جرت فيه هذه المعركة التى عرفت باسم معركة أجنادين. بيد أن نتيجة هذه المعركة التى نشبت يوم ٣١ يوليو سنة ٦٣٤، كانت نصرا حاسما للمسلمين. كانت القوات البيزنطية تسير جنوبا بحيث تتحاشى جبل نابلس. وكانت الأرض مسطحة منبسطة. ولم تكن هى الأرض الوعرة أو الوهاد أو الوديان العميقة التى يفضلها المحاربون غير النظاميين. وكانت الميزة الوحيدة لدى المسلمين تتمثل فى سرعتهم فى المناورة وحماستهم المندفعة. وطوال اليوم كان الفرسان العرب القلائل يهاجمون العدو. ويحاولون إغراءه بمهاجمتهم. ويستنفدون رخات السهام من رماتهم. وكان على قائدهم خالد بن الوليد أن يذكّر رجاله بأن يدخروا جهدهم حتى المساء[١٠]. ولكنهم ما إن كسروا صفوف العدو فى وقت متأخر بعد الظهر. حتى فقد الجيش البيزنطى ميزته المتمثلة فى العدد الكبير والتسليح الأفضل . فقد تمكن المسلمون من طعن خيول أعدائهم بسكاكينهم ورماحهم. وتمكنوا من مداهمة المشاة الثقيلة المدرعة. وفى الوقت نفسه تلاشى ضوء النهار ليجعل الأهداف غير واضحة أمام رماة السهام البيزنطيين .

وبينما كان العرب يهاجمون ويطعنون. ويقطعون رءوس أعدائهم وأطرافهم بسيوفهم. وحناجرهم تدوى بصيحات الحرب. تمزق تماسك أعدائهم وتبعثروا. وتوقفت القوات البيزنطية عن إطاعة الأوامر. وأخذوا يطحنون بعضهم بعضا وهم يحاولون صد هجوم أعدائهم الذين ركبوا أقفيتهم. وما إن انكسرت القوة الدافعة للبيزنطيين حتى حول العرب هذه المحاولة إلى هزيمة نكراء بمناورة قاموا بها. وهربت القوات البيزنطية باتجاه الشمال وطاردهم العرب فترة من الوقت. ثم عادوا لكى يجردوا جثث الجنود القتلى من أسلحتهم ومعداتهم. وفى ذلك الحين تسلح رجال القبائل الذين لم يكونوا يحملون سوى الحربة والسيف ومعهم خيولهم. وأدى النصر إلى ارتفاع معنويات العرب المسلمين فزحفوا ضد المدن والبلدات. وأغلقت القدس أبوابها. ولكن خارج البوابات. حسب رواية صفرونيوس بطريرك بيت المقدس.

كان رجال القبائل «... ينهبون المدن. ويتلفون الحقول. ويحرقون القرى. ويخربون الأديرة المقدسة ...»(*). والحقيقة أن المسلمين كانوا أكثر اهتماما بتوطيد سلطانهم. ولأنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تخريب الأرض بشكل همجي. فقد أصدروا الأوامر بأن يدفع السكان جزية سنوية قدرها دينار واحد سنويا ويسلمون نسبة مئوية من محاصيلهم (١١)

كانت كارثة أجنادين غير متوقعة بالمرة وأطاحت بكافة خطط الإمبراطور وألقت بها في خضم فوضى عارمة. لقد كان قد هزم كثيرين من الأعداء الأقوياء بحيث كان من غير المصدق أن يحط حفنة من رجال القبائل العربية من قدره على هذا النحو في ذلك الحين. وعلى أية حال. فقد أظهرت التقارير التي تلقاها أن هؤلاء الغزاة الصحراويين. بملابسهم الخشنة. أشباه العراة أحيانا، والمسلحين بسكين طويل ورمح. كانوا في خطورة الجنود الفرس المهرة الذين كان قد حاربهم طوال نصف عمره. وانسحب من حمص بسرعة. لأن الغزاة العرب كانوا مصدر تهديد محتمل لها، وسار باتجاه الشمال نحو أنطاكية الآمنة. لكي يعاود بناء جيشه. وقد دفع للقبائل العربية المسيحية التي كانت تتولى من قبل حماية الحدود الأموال لكي يحاربوا معه مرة أخرى. واستدعى الأرمن الأشداء من جبال الأناضول. وفي الوقت نفسه. ركز المسلمون قواتهم في موقع جديد بالقرب من مدينة درعا السورية على نهر اليرموك.

(*) كان صفرونيوس من أكثر الكتاب المسيحيين إساءة للمسلمين وللإسلام. ولا غرابة في ذلك فهو من رجال الدين المسيحي الذين كانوا وما يزالون من أشد الفئات تعصبا ضد الإسلام الذي أفقدهم مكانتهم في البلاد التي خضعت للحكم الإسلامي. ومن ناحية أخرى. فإننا لا نملك مصادر محايدة تؤكد مزاعم هذا الأسقف المتعصب الذي يكذب نفسه بنفسه عندما يمتدح الخليفة عمر بن الخطاب الذي جاء من المدينة المنورة على راحلته. في رحلة شاقة لكي يتسلم المدينة المقدسة من صفرونيوس الذي حصل هو وأهل المدينة على عهد الأمان من الخليفة العظيم الذي رفض أن يصلي في كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمون مسجداً من بعده. والحقيقة أنه ليس مطلوبا من المؤلف أن يتبنى وجهة النظر الإسلامية في هذا الشأن على الرغم من أنه كثيرا ما يحاول رصد الحقيقة التاريخية. (المترجم).

واستطاعت الجيوش البيزنطية القادمة من الشمال أن تقترب منهم من الجهة الأمامية فقط. فقد كانت الأرض على يسارهم مليئة بالوهاد والوديان العميقة الضيقة. على حين كانت هناك على اليمين مساحة من اللافا البركانية التى تخلفت عن بركان قديم.

وكانت المجموعات الصغيرة فقط من المحاربين هى التى تستطيع أن تشق طريقها عبر هذه الأراضى الوعرة. ولكن لا يوجد جيش نظامى يمكن أن يختار القتال فى مثل هذه الظروف. وأقام البيزنطيون معسكرا جيد التحصين إلى الشمال مباشرة من الموقع العربى. وقد حال هذا بين العرب وبين التقدم داخل بلاد الشام . وكان القادة البيزنطيون على ثقة من أن أعداءهم المتوحشين سوف يموتون بالآلاف أمام التحصينات جيدة البناء إذا اختاروا الهجوم .

وعلى أية حال. لجأ المسلمون إلى المناورة التقليدية فى حرب الصحراء. هجوم بالحشود من جميع الجوانب. وقامت مجموعات صغيرة بالزحف عبر الوديان الضيقة فى اليرموك. واختبأوا خلف الموقع البيزنطى. وعبرت مجموعات أخرى على ظهور الخيل والجمال منطقة صخور اللافا الرمادية. وأخذوا يشنون هجماتهم على خطوط المواصلات البيزنطية تجاه بلاد الشام. ووقف الجيشان فى مواجهة أحدهما الآخر على مدى أربعة أشهر ونفدت المؤن والأقوات من البيزنطيين. كان خط الحياة بالنسبة لهم هو الطريق الذى يؤدى إلى مينائى صور وصيدا. بيد أنه كان لابد من عبور جميع الإمدادات فوق جسر قائم على نهر اليرموك الذى لم يكن يبعد سوى أميال قليلة عن المعسكر الكبير. وفى منتصف شهر أغسطس ظهر المسلمون المختبئون فى الوديان العميقة واستولوا على الجسر الذى كانت عليه حراسة خفيفة. وقد أدى هذا إلى عزل البيزنطيين عن الساحل. ولم يبق لهم سوى التقهقر عن طريق الصحراء صوب دمشق. وفى الصباح الباكر يوم ٢٠ أغسطس بدأت الريح تهب من الصحراء. محملة بالرمال والأتربة بحيث تحولت السماء إلى اللون البرونزى الكئيب. ومع مرور النهار ازداد الظلام. وثقل الهواء المحمل بالأتربة للدرجة التى جعلت التنفس صعبا. واستحالت الرؤية على بعد ياردات قليلة. وبينما كان البيزنطيون يكافحون ضد

هذه العوامل. إذا بهم يفاجأون بهجوم عربى شامل. كان الوقت متأخرا بعد الظهر، ولم يلبث الليل أن أرخى سدوله قرب الساعة السادسة. وكان المسلمون قد اخترقوا الصفوف فى عدة نقاط. وفشلت كافة محاولات تنسيق الدفاع. وفى أثناء الليل ذبحت القوات البيزنطية فى أماكنها. ومع انبلاج نور الفجر. كان قتلاهم مكدسين فى أكوام ضخمة على الأرض. والعرب يجردونهم من كل ما يمكن استخدامه. ثم هجروا أرض المعركة وتركوها للغربان وغيرها من آكلات الجيف .

ولم ينجح فى الهروب سوى آلاف قليلة من القوات البيزنطية فى مجموعات صغيرة حملت معها الأخبار بالهزيمة المروعة إلى الإمبراطور فى أنطاكية. وبعد أن كانت مدن الإقليم قد سقطت الواحدة تلو الأخرى فى أيدى المسلمين استنتج الإمبراطور فى النهاية أنه لا يمكن الاحتفاظ بشرق المتوسط كله. من مصر حتى جبال طوروس عند حافة الأناضول. وانسحبت قواته الباقية عبر الممر الضيق الذى يسمى «بوابات قليقية». بعد تدمير جميع المدن والقرى فى دائرة قطرها عدة أميال[١٢]. ومنذ ذلك الحين فصاعدا. كانت حدود الإمبراطورية البيزنطية تقع فوق هضبة الأناضول المرتفعة وليس فى الأراضى الخصيبة فى شرق المتوسط .وتخلى الإمبراطور البيزنطى عن القدس مثلما فعل النصارى العرب الذين كانوا من مصادر دعمه فى المنطقة. وعلى أية حال. فإن صورة الهزيمة مثقلة بالمبالغة. فقد كانت الحروب من أجل شرق المتوسط قد نشبت بين البيزنطيين والفرس منذ أيام الإمبراطور جستنيان. وكان الإمبراطور هرقل والبيزنطيون قد استعادوا السيطرة الكاملة على الأرض المقدسة من الفرس قبل عشر سنوات فقط من قدوم المسلمين. وفضلا عن ذلك. كان كثير من المسيحيين يعتبرون من المنشقين والهراطقة فى نظر السلطات الأرثوذكسية فى القسطنطينية التى كانت تضطهدهم بلا هوادة ولا رحمة. وهذا أحد أسباب تضارب الروايات المسيحية حول الفتح الإسلامى. فقد كان الأرثوذكس البيزنطيون هم الذين لعنوا المسلمين وسبوهم بوحشية أكثر من غيرهم. إذ لم تكن كافة الجماعات المسيحية الأخرى ترى فى المسلمين أعداء ألداء .

فى السنة التالية لمعركة أجنادين. اندفع المحاربون العرب إلى مسافة أبعد شمالا حتى وصلوا قبالة أسوار دمشق. وأطاحوا بالجيوش البيزنطية التى أرسلت ضدهم. وعلى مسافة أميال قليلة من المدينة هزموا القائد البيزنطى بانيس **Baanes**. وكان هذا القائد قد جرد المدينة من حاميتها. واثقا من أن جيشا صحراويا هزيلا فى إمكانياته لا أمل له فى الاستيلاء على مدينة كبيرة مثل دمشق. بيد أن أحد الأساقفة المونوفيزيتيين. أتباع مذهب الطبيعة الواحدة. من السوريان. كان البيزنطيون قد عاملوه باعتباره مهرطقا. أخبر القائد المسلم خالد بن الوليد أن البوابة الشرقية ضعيفة التحصين ودفاعاتها واهنة. بل إنه أمد المسلمين بالسلالم اللازمة لتسلق الأسوار. وما إن علم البيزنطيون بالاختراق حتى سارعوا بالاتفاق مع القائد المسلم أبى عبيدة بن الجراح الذى كان يعسكر على الجانب الآخر من المدينة. وتقابلت القوتان المسلمتان فى وسط المدينة. وأصر أبو عبيدة على أنه يجب احترام المدينة وعدم وضع السيف فى أهلها. فقد كان جزء من المدينة قد فتح صلحًا واستسلم وتم فتح الجزء الآخر عنوة. ولبعض الوقت. كان نصف كاتدرائية يوحنا فى دمشق قد صار مسجدا والجزء الآخر يستخدم للعبادة المسيحية. وفصل بين الديانتين حائط رقيق أقيم على وجه السرعة .

وقد نسب ابن خلدون. الذى كتب فى القرن الرابع عشر. نجاح قبائل الصحراء إلى روحهم الوحشية. بيد أنهم أثبتوا قدرتهم المدهشة على التوافق والمواءمة. فقد امتلك المشاة الفقراء الخيول وتقلدوا السيوف ولبسوا الدروع البيزنطية. وفى سنة ٦٣٦. أنشأ المسلمون المدن العسكرية التى باتت العنصر الرئيسى فى تقدمهم بعد ذلك. وكانت القبائل تعسكر فى هذه المدن ويجتمعون لصلاة الجمعة .وكان ممكنا تثبيت النظام والضبط الاجتماعى عند المسلمين. بيد أنهم كانوا بحاجة أيضا إلى الإشباع. على أسس منظمة. من خلال المزيد من الفتوحات. فقد كانت حروب الجهاد واجبا دينيا ولكنها كانت أيضا وسيلة من وسائل الحراك الاجتماعى. الذى يأخذ أبناء القبائل من فقر الصحراء إلى الحياة المستقرة. ويبدو من المتناقضات أن الجنود العرب. الذين قامت أخلاقياتهم على أساس القوة والبسالة الفردية، قد استطاعوا أن يتصرفوا بمثل هذا التماسك والتلاحم. وعلى أية حال. فقد برزت أخلاقيات الإسلام

على حساب قيم المجتمع القبلى. وهنا بقى توتر عميق بين الولاءات القبلية والعمل فى سبيل الله. ولكن على الرغم من هذا التناقض الظاهرى. كان النظام الإسلامى ناجحا .

وفى شرق المتوسط اعتنق الكثير من السكان العرب المسيحيين الإسلام [١٣]. فقد كانت لهذا الدين الجديد جاذبيته :

«كان عنصر الجذب الرئيسى فى الإسلام أنه دين عملى. لم يطلب جهودا تفوق قدرة البشر ... كان الشرق العربى عشية الفتح الإسلامى قد نسى أو تناسى قصورٌ الطبيعة البشرية وحدودها؛ إذ كان كثير من أعضاء الكنيسة يرغبون فى تقليد الملائكة. ومنذ ذلك الحين اتجهت الجماهير نحو حياة الرهبان والراهبات التى تخلو من الجنس. وخرج كثيرون من القرى والمدن إلى الصحراء. ومن هنا جاءت المآثر التى تتحدث عن إماتة الجسد التى بينت مدى قدرة الناس على إخضاع أجسادهم لإملاءات الروح. وكان بعض هؤلاء الرهبان الشرقيون ينامون فى وضع الوقوف فقط. كما حبس نساك آخرون أنفسهم فى قلايا وصوامع مظلمة أو عاشوا فوق الأعمدة. أو كانوا يأكلون العشب فقط. وحتى هذا العشب كانوا يأكلونه مرة واحدة فى الأسبوع .

«لقد أوقف الإسلام كل هذه الممارسات المتطرفة. وأزاح الخوف المبالغ فيه من الجنس بعيدا كما نبذ الرهبنة تماما. وقضى على الخوف من الجحيم عند الذين أخفقوا فى تحقيق الكمال. كما أخمد جذوة الجدل اللاهوتى ... كان الإسلام مثل رمال الصحراء ... فقد خلق إحساسا بالتضامن والأخوة وهو الإحساس الذى كان قد ضاع بين المسيحيين المتخاصمين»[١٤] .

ولا غرابة فى أنه منذ اليوم الأول لحركة الفتوح الإسلامية. رأى الجهاز الكنسى التراتبى الأرثوذكسي. الذى كان بمثابة الذراع الروحى للسلطة السياسية البيزنطية. أن المسلمين يشكلون خطرا فريدا فى بابه. ذلك أن رجال الدين الأرثوذكس لم يكونوا قد ردوا بقسوة شديدة، مثلما فعلوا مع المسلمين. على الاحتلال الفارسى لفلسطين والاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤، على الرغم من أن المحتلين الفرس كانوا قد حملوا معهم صليب الصلبوت الذى كان أعظم الذخائر المقدسة الموجودة ببيت

http://al-maktabeh.com

المقدس[١٥]. وذات يوم فى ربيع سنة ٦٣٨. وصل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب. متدثرا بثوبه البالى الرث. لكى يتسلم القدس ويأخذها تحت حمايته. وراقبه صفرونيوس بطريرك بيت المقدس الأرثوذكسى وهو يمشى متمهلا فى أرجاء كنيسة الضريح المقدس. وعلق البطريرك على هذا وهو يهمس باللغة اليونانية لواحد من شمامسة الكنيسة فى هدوء. «من المؤكد أن هذه فظاعة الخراب التى قال عنها النبى دانيال قائمة فى المكان المقدس»[١٦]. ولابد أن جميع الذين سمعوه لم يفهموه على أنه مجرد تلميح إلى النبى دانيال. وإنما فهموه أيضا على أنه إشارة إلى كلمات المسيح على جبل الزيتون عندما طلب منه حواريوه أن يتنبأ بالمستقبل :

« فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس... لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون ... حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا»[١٧]. إنجيل متى. إصحاح ٢٤: ١٥. ٢٤]

لقد رأى البطريرك. الذى عاش فى أثناء الاحتلال الفارسى. فى هذا الرجل الأشهب خاصية أشد خطورة مما رآه فى جميع الحكام الفرس الكبار الذين سبقوه .

ومن نقطة الاتصال الأولى هذه. نبع خوف عميق وتوجس بين النصارى الأرثوذكس تجاه الإسلام. وقد تكاثرت هذه المواقف فى المناظرات والمجادلات التى كتبها الباحثون البيزنطيون. ومنذ تلك الأيام الباكرة بدأت تظهر الموضوعات والاستعارات المجازية التى عاودت الظهور مرة أخرى فى الهجائيات اللاحقة ضد الإسلام[١٨]. فقد ظهر العرب فى هذه الكتابات برابرة قبل ظهور الإسلام. وعلى حد تعبير أحد المعاصرين. وهو مكسيموس المعترف **Maximus Confessor**. « إنهم مثل الوحوش آكلة الفرائس على الرغم من أنهم يتخذون شكل البشر»[١٩]. وفى الروايات التالية تم تحويل الرعايا المسلمين لأحد الملوك الأرمن إلى صورة رجال لهم رءوس الكلاب **Cynocephali**[٢٠]. وفى غضون قرنين من دخول عمر بن الخطاب بيت المقدس

طوَر الكتاب المسيحيون هجوما شاملا ضد الإسلام. كان أحد المهاجمين الأشداء هو يوحنا الدمشقي، الذى خدم موظفا فى بلاط الخليفة الأموى قبل أن يهجر الحياة العامة سنة ٧١٦. ليدخل سلك الرهبنة[٢١]. فقد لخص القضية ضد الإسلام فى جملة واحدة. « إن من لا يؤمن بعقيدة الكنيسة العالمية كافر»[٢٢](*) كما أنه وصف النبى محمد بأنه. المسيح الدجال». بيد أن يوحنا. الذى كان يجيد العربية ويعرف القرآن الكريم. كان يعتبر معتدلا إلى درجة كبيرة فى عيون أقرانه من القساوسة. وقد أدانه مجمع دينى مسيحى مسكونى عقد سنة ٧٥٤. بتهمة أنه. صاحب عقلية مسلمة»، وبأنه متعاطف مع الإسلام أكثر مما ينبغى[٢٣]. وكان نيكيتاس البيزنطى **Nicetas Byzantios** أشد عداوة للإسلام. ففوق كل شىء اعتبر الإسلام خطوة للوراء. ورجعية. وخرابا» وأنه. ديانة سيئة ضارة». وفى رأيه أن النبى محمدًا نفسه كان «كاذبا» واستنتج نيكيتاس فى نشوة أوهامه بانتصارمنطقه ما عبر عنه بقوله. « وهكذا. فإننى لا أتردد فى أن أنطلق فى حكمى على محمد. أنه المسيح الدجال نفسه»[٢٤].

* * *

فى النظام البيزنطى. كانت الكنيسة الأرثوذكسية تخدم الرب من خلال خدمة الدولة وعلى مرِ القرون ومنذ اعتناق قسطنطين المسيحية سنة ٣١٢. كانت مدينته الجديدة. القسطنطينية قد صارت معقل الديانة. وتم تجميع المزيد والمزيد من

(*) هذا ليس موقفا ضد الإسلام وحده. وإنما هو موقف متعصب ضد جميع الديانات الأخرى كشفه هذا الرجل الذى كان يعتقد أن الديانة الأرثوذكسية هى الديانة الحقة الوحيدة. وأن ماعداها كفر. وعلى أية حال. فإن الملاحظ بشكل عام أن المفكرين المسيحيين وزعماء الكنيسة. سواء الأرثوذكسية أو الكاثوليكية. قد اتخذوا هذه المواقف المتشددة من أصحاب الديانات الأخرى. بل ومن أتباع المذاهب المسيحية المخالفة ولم يتورعوا عن وصف المخالفين لهم فى المذهب من المسيحيين بأنهم. هراطقة. أي خارجون عن صحيح الدين. لدرجة أنهم جردوا ضدهم «حملات صليبية» . (المترجم)

الذخائر المقدسة فى كنائس المدينة. وعند تدشين المدينة سنة ٣٣٠، وضع تمثال كبير للإمبراطور على قمة عمود هائل من الحجر السماقى يرتفع أكثر من مائة قدم. يشع بضوء أحمر خافت فى ضوء شمس الغروب. وقد حُملت الذخائر المقدسة فى موكب لكى توضع فى غرفة خفية. ووضعت هناك كسرات من الخبز الذى كان المسيح قد أطعم به خمسة آلاف شخص فى البرية ؛والصليبان اللذان صلب عليهما اللصان على جانبى المسيح ابن الناصرة فى الجلجثة. وصندوق الألبستر الذى كان يحتوى على المرهم الذى كانت مريم المجدلية قد دهنت به قدمى المسيح. والقادوم الذى كان نوح قد بنى به تابوت العهد. والصخرة التى كان موسى قد لمسها بعصاه فاندفع منها الماء فى البرية. وثوب مريم العذراء. ومعدن البلاديوم الذى كان أينياس قد حمله من طروادة إلى روما. وألقيت فى التمثال نفسه شظية من صليب الصلبوت[٢٥] .

وملئت كنيسة الحكمة المقدسة. أيا صوفيا. الكبيرة بالذخائر المقدسة. وأهمها صليب الصلبوت نفسه، الذى كان الإمبراطور هرقل قد استرده من الفرس قبل فتح المسلمين القدس بوقت قصير. وكان فى ذلك الحين عبارة عن شظايا محفوظة فى صندوق كبير فوق هيكل ذهبى. وكانت هناك أيضا ذخائر مقدسة أخرى تتعلق بمعاناة المسيح. تاج الشوك. والإسفنجة وقطع من المقبرة. وكان من المفترض أن الإمبراطور أليكسيوس كومنين قد كتب إلى روبرت دوق الفلاندرز **Robert of the Flanders** فى سنة ١٠٩٥. عن الكنز الروحى فى المدينة. « سوف تجد فى القسطنطينية كنزها الروحى الأكبر مما هو موجود فى العالم كله. لأن كنوز قصورها وحدها تكفى لتأثيث جميع كنائس العالم المسيحى التى لا يمكن لجميع كنوزها أن ترقى إلى مستوى كنوز كنيسة أياصوفيا. التى لم تعادل كنوزها أبدا أية كنوز حتى كنوز معبد سليمان»[٢٦] .

هذه جميعا كانت معايير الديانة الحقة (بالنسبة لهم). وعلى مرِ القرون كانت القسطنطينية قد صارت صندوقا هائلا لحفظ الذخائر المقدسة. فقد كانت الأرض المقدسة والمواقع المسيحية قد خضعت للبحث والتنقيب طلبا للذكريات المقدسة. وصارت القسطنطينية توصف بأنها. المدينة المقدسة» التى تنبأ بها يوحنا فى رؤياه.

« وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم»[٢٧]. والواقع أن أورشليم الجديدة. بوصفها مدينة كانت تتهيأ لهذا الغرض المقدس. كانت أفضل من أورشليم القديمة التى كانت قد امتلأت بظلال خيانة المسيح وتعانى فى الوقت نفسه مع النور المقدس. لقد جمعت معاناة المسيح الألم والتسامى سويا. بيد أن أورشليم لم تكن مدينة تناسب المسيح المرفوع الطاهر مثلما كان يمكن للقسطنطينية أن تكون. لقد جعلت ثروة القسطنطينية الكبيرة. بكنائسها التى تفوق الحصر. ومواكب الذخائر المقدسة التى تسير فيها يوميا. أو احتفالاتها بأعياد القديسين. بناء مدينة جديرة بالغرض الذى بنيت من أجله أمرا ممكنا. إذ كانت أورشليم القديمة هى الماضى. وكانت أورشليم الجديدة. القسطنطينية. هى المستقبل .

كان ما أدى إلى تطور الهجائيات البيزنطية ضد الإسلام هى تلك الهجمات التى تعرضت لها مدينة أم الرب. أى القسطنطينية أو أورشليم الجديدة. ففى ربيع سنة ٦٧٠. أمسكت المفاجأة بتلابيب أهل القسطنطينية وتملكهم الرعب عندما ظهر أسطول ضخم من السفن الصغيرة المكتظة بالمسلمين المسلحين فى مضيق الدردنيل. وأبحرت السفن قاصدة البسفور وألقت مراسيها على الشاطئ الشمالى على مسافة سبعة أميال من المدينة. بالقرب من القصر البحرى المهجور فى الهيبيدروم. ثم أنزلت حمولتها البشرية وانسحبت عائدة إلى بحر مرمرة. وتقدم طابور المشاة الطويل على شكل قوس ضخم قبالة الأسوار البرية الثلاثية التى كانت قد بنيت فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس **Theodosius** فى القرن الرابع الميلادى. والتى كانت تحمى قلب المدينة ضد الهجمات القادمة من الشمال. وعندما استفاقت القوات البيزنطية من صدمتها. حققت النصر فى البداية. فقد سارت من المدينة وأوشكت على اجتياح الجيش العربى خارجها. أما فى البحر. فقد هاجموا الأسطول العربى ودمروا كثيرا من سفنه. وثمة سلاح جديد. النار الإغريقية». التى لا يمكن إطفاؤها فى الماء. برهن على أنه سلاح مدمر ضد العرب. فى البحر وعلى البر على السواء[٢٨]. بيد أن العرب

عوضوا خسائرهم بسرعة. فقد وصل أسطول جديد وجيش جديد من الجنوب. وكان البيزنطيون قد فقدوا السيطرة فى البحر حول المدينة ولم يعد بوسعهم التحرك فيما وراء الأسوار. لأنهم كانوا أقل عددا من العرب كما أنهم كانوا منهكين أكثر من العرب الذين كانوا على استعداد للبقاء طوال الفترة اللازمة للاستيلاء على القسطنطينية .

وكان العرب يشنون هجوما جديدا فى كل ربيع منذ سنة ٦٧١. حتى ٦٧٦، من معسكرهم الحصين قرب المدينة. كانت الخسائر البشرية مهولة؛ ففى واحدة من الهجمات قتل ثلاثون ألف شخص. وبالتدريج اتبع المدافعون البيزنطيون التكتيكات التى تعلموا استخدامها ضد طوابير الجنود المسلمين على الأرض. بحيث يدفعونهم مهرولين إلى البحر بلا رحمة. وعند سيلايوم **Syllaeum** فى آسيا الصغرى. استولت فرقة بيزنطية على سفن إمداد عربية كانت متجهة شمالا ودمرتها. وإذ حرم العرب من التعزيزات فى السنة السابعة من الغزو. انسحبوا فى نهاية الأمر وعادوا إلى شرق المتوسط وقد تخلوا عن فكرة الغزو. فقد أدركوا أن عدد الرجال لديهم قليل. وأنهم لا يملكون ما يكفى من آلات الحصار الكبيرة الضرورية لنقب أسوار ثيودوسيوس الثلاثية التى تحمى المدينة. وعلاوة على ذلك تسبب اعتمادهم على الطريق البحرى وحده لإمداداتهم وتعزيزاتهم فى فشل المغامرة برمتها.

وعلى مدى جيل لم يشن العرب أية هجمات جديدة على المدينة. ولكن فى بواكير سنة ٧١٦م عاد السفير البيزنطى إلى دمشق يحمل أنباء إلى القسطنطينية بأن العرب يجهزون جيشا وأسطولا أكبر من أى جيش رأته الأعين من قبل. وأصدر الإمبراطور أوامره بملء جميع شون الغلال وخزانات المياه عن آخرها. وإصلاح الأسوار والزيادة فى طولها. ووضع السفن كلها فى حالة الحرب. فقد كان يتوقع أن تطول الحرب ثلاث سنوات .

وفى أواخر فصل الربيع سنة ٧١٧. تقدم جيش عربى قوامه ثمانين ألف رجل من ناحية الجنوب. وكان المسلمون، قبل خمس سنوات. قد أطاحوا بالقوات البيزنطية الميدانية عند أبواب قليقية ثم احتلوا الأرض الواقعة بين جبال طوروس وساحل

البحر المتوسط. وفى ذلك الحين استولى المسلمون فى أثناء تقدمهم شمالا على كل مدينة جيدة فى طريقهم كان يحتلها البيزنطيون دونما صعوبة كبيرة. وأظهروا أن مهارتهم فى فنون الحصار قد تحسنت بشكل لافت للنظر منذ هجماتهم السابقة على القسطنطينية. ووصلوا إلى شاطئ البحر المتوسط عند برجامون وتابعوا سيرهم شمالا إلى شاطئ الدردنيل فى أوائل شهر يونيو. وعند أبيدوس قابلوا أسطولا من السفن الصغيرة قادما من بلاد الشام يحمل القوات وخيولهم وجمالهم عبر مسافة الميل التى تنقلهم إلى الشاطئ الآخر. كانت تلك لحظة تاريخية. لأنه فى ذلك المكان كان ملك الملوك كسرى. قبل أكثر من ألف سنة. قد صنع جسرا من القوارب حتى تتمكن جيوشه من العبور إلى أوربا .

وبنهاية شهر يوليو سنة ٧١٧. كان القائد المسلم «مسلمة» وجنوده يعسكرون قبالة أسوار ثيودوسيوس. وكان يرسل فى كل يوم مجموعات لاستطلاع أحوال المدافعين. ليكشفوا الأماكن التى يقل فيها عدد الرجال على الأسوار. قبل شن الهجوم الشامل فى منتصف شهر أغسطس. وقد عمل الإمبراطور الذى كان قد ركز أفضل قواته فى كتائب متحركة خلف استحكامات المدينة، على صد هجمات العرب. وكان السلاح ذو الفعالية الأكبر فى هزيمة الهجوم العربى على الأسوار تركيبة محسنة حديثة من النار الإغريقية. إذ كان لاجئ يونانى هارب من بلاد الشام قد طور تركيبة جديدة من الكبريت والجير الحى عرفت باسم «نار البحر». وكان الجير الحى إذا اختلط بالماء يبدأ فى الاحتراق بحرارة مكثفة تؤدى إلى إشعال المزيج. وكانت كثير من السفن الحربية فى الأسطول البيزنطى مجهزة بقاذفات خاصة بالنار الإغريقية. ولكن الإمبراطور ليو جرد بعض هذه السفن القاذفة ووضعها على مسافات متقاربة بطول الأسوار. كما كانت هناك فرق خاصة مجهزة بأنواع متحركة من قاذفات اللهب هذه. وما إن كان السائل يلتهب فإنه يستحيل إطفاؤه، وببساطة كانت الطوابير العربية المتقدمة تحترق تماما. ومع الغروب كانت سحب الدخان الرمادى الكثيف معلقة تحوم فوق سماء المدينة وتملؤها برائحة اللحم البشرى المحترق الخانقة .

وفى الشهر التالى. تحول ميزان المزايا لصالح المسلمين مرة أخرى. فقد أبحر أسطول من حوالى ألف وثمانمائة مركب صغير محملة بالجنود ومعها عشرون سفينة حربية كبيرة من مصر ودخلت بحر مرمرة. وكان قائدهم «سليمان بن عبد الملك» قد أنزل معظم قواته لتعزيز جيش المسلمين الذى يفرض الحصار على القسطنطينية. ولكن الأسطول كله أبحر بعد ذلك باتجاه البسفور لمهاجمة المدينة من ناحية البحر. وعلى أية حال. أبحرت السفن الحربية البيزنطية الراسية فى مياه القرن الذهبى لتمطر السفن العربية بـ «نار االبحر». ودفعت السفن المشتعلة بالنيران فى اتجاهها. وسرعان ما تحولت الفجوة الضيقة بين الشاطئ الآسيوى والشاطئ الأوربى إلى «غابة متحركة» تموج بالسفن المحترقة. وكل منها تشعل النار فى شراع السفينة المجاورة لها أو فى حبالها. ونجح سليمان فى حشد عدد قليل من سفنه التى لم ينلها الدمار وأبحر عائدا إلى بحر مرمرة. وعلى امتداد الشتاء التالى الذى كان قارص البرد. ماتت أعداد كبيرة من العرب وغيرهم من الشرقيين بسبب البرد. وأرسل القادة العرب طلبات ملحة عاجلة إلى دمشق يطلبون إمدادت غذائية[٢٩] .

وفى الربيع التالى ازدادت وطأة الحصار. فقد وصلت المزيد من السفن من الإسكندرية. وموانئ أفريقيا. وفى الوقت نفسه كان قد تم انتشال الكثير من السفن المدمرة فى الخريف وتم إصلاحها. وذات ليلة. وتحت جنح الظلام. تسلل أسطول المسلمين خلسة وتسلل بين المراقبين البيزنطيين لينزل آلافا من الجنود على الجبهة الشرقية. ولكن فى ذلك الحين تعرض المهاجمون أنفسهم للهجوم من الجانبين. فقد دفع البيزنطيون القبائل البلغارية فى البلقان لمهاجمة العرب فقام جيش من أبناء القبائل البلغارية بالتجمع حول معسكر المسلمين. ودارت معركة وحشية تغلب فيها البلغار على العرب ورقد على أرض المعركة حوالى عشرين ألفا من المسلمين ما بين قتيل وجريح على مرأى من أسوار القسطنطينية الكبيرة. كما مات عدد كبير آخر بفعل المرض. وفى يوم ١٥ أغسطس سنة ٧١٨. هدم المسلمون معسكرهم وساروا عائدين فى اتجاه الدردنيل.

* * *

لقد أرسى الحصاران اللذان فرضهما العرب سنة ٦٦٨. ٦٧٥. ، وسنة ٧١٧. ٧١٨. ، واستيلاء الجيوش العربية فى الوقت نفسه على ما تبقى من الممتلكات البيزنطية بشمال أفريقيا. صورة. «السراكنة» أو. «الهاجريين» أو «الإسماعيليين» بوصفهم العدو الأكثر عزما وشيطانية من بين الأعداء الذين واجههم البيزنطيون على الإطلاق. فقد بدأ الكتّاب البيزنطيون يتحدثون عن. روح العدو المتغطرسة. أبناء «إسماعيل» وأنهم. جنس أنجبته «أم جارية». وافترضوا أن فشل محاولات الحصار كان نتيجة لتصميم الرب على إنقاذ شعبه من «العرب الشرهين الموغلين فى الشر» [٣٠]. وعلى أية حال. تأخر الكتّاب البيزنطيون كثيرا فى شن الهجوم الشامل على المسلمين لأنهم انشغلوا فى أعقاب الهجوم الثانى على الفور فى الحرب الأهلية التى نشبت داخل العالم المسيحى الأرثوذكسى. إذ إن أولئك الذين كانوا يبجلون الصور المقدسة. الأيقونات. (الأيقونيون. وأولئك الذين اعتقدوا أنها نوع من عبادة الأصنام. اللاأيقونيون) اضطهد كل منهما الآخر وقتلوا أفراد الفريق الآخر فى أزمة استمرت على مدى ما يزيد على قرن من الزمان. بعد أن حرم الأيقونات فى سنة ٧٢٥. الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث **Leo III**. المعروف باسم ليو الأيسوري. الذى تولى الدفاع عن القسطنطينية. وعلى مدى تلك الفترة كان اللاأيقونيون يمسكون بزمام السلطة. ولقيت الحركة اللاأيقونية مساندة قوية من الجيش. وجاءت نهاية الحركة اللاأيقونية الفعلية وتجدد الصراع ضد المسلمين على نحو أو آخر. ففى مارس سنة ٨٤٣، وتحت قيادة الإمبراطورة ثيودورا **Theodora** التى كانت وصية على ابنها الذى كان عمره عامين، وتم سحب كل المراسيم المضادة للأيقونات. ووقع قرار الحرمان الكنسى على اللاأيقونيين الذين كانوا قد ماتوا منذ فترة طويلة بعد موتهم .

ولا غرابة فى أنه كان ثمة نظرة تربط بين الفكرة السائدة عن الإسلام والنظرة إلى اللاأيقونيين الذين رفضوا تصوير الرب فى شكل الإنسان والذين باتوا مهزومين فى ذلك الحين. وحسبما يقول نيكولاس زيرنوف **Nicolas Zernov**. «كانت اللاأيقونية حركة الاحتجاج الشرقى الأخير من داخل المسيحية ضد الهللينية التى تداخلت فى نسيج واحد مع تقاليد الكنيسة البيزنطية. لقد كانت جزءا من تلك

الحركة صوب التوحيد والفقه البسيط الذى كان الإسلام نفسه أقوى تعبير عنه». وقد أشار أيضا إلى أن الجيش ساند زعماء هذه الحركة فى حملتهم ضد الأيقونات، وأن معظم الجنود كانوا. من بين الأرمن وأبناء ماردين والأيسوريين وغيرهم من الشعوب الآسيوية»[٣٢]. لقد كان المسلمون هم العدو الخارجى والعدو الداخلى فى آن معا. بعقيدتهم التى كانت تتحدى ما كان قد صار المبدأ الجوهرى للإيمان الأرثوذكسي. فبالنسبة لبعض الكتاب الأرثوذكس كان المسلمون مجرد هراطقة. أى يقفون على قدم المساواة مع اليعاقبة. والنساطرة والأقباط وغيرهم من المنشقين. وبالنسبة للبعض الآخر. كانوا هم الوحش الذى تنبأ به سفر الرؤيا. عصا الرب وأداة الجحيم للانتقام الإلهى من المسيحية الخاطئة. وفى بعض الأحيان كانوا يساوون بينهم وبين غيرهم من أعداء بيزنطة القدامى. فكانوا يسمونهم «الفرس» ويسمون حاكمهم «خسرو» (كسرى). وفى أحيان أخرى كانوا يطلقون عليهم اسم. «الإسماعيليين». لكى يفرقوا بين سلالتهم وسلالة إبراهيم الشرعيين. أو يسمونهم. الهاجريين» نسبة إلى هاجر أم إسماعيل التى كانت محظية لإبراهيم أبى الأنبياء. وليست هناك إجابة واضحة عن السبب فى أنهم حملوا اسم. «السراكنة» **Saracens** أى أبناء سارة زوجة إبراهيم. بيد أن الكلمة كانت مستخدمة لوصف سكان صحراء شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ثم امتدت لتشمل المسلمين بعد ذلك[٣٣]. وهناك نظرية نشرها إيسيدور الإشبيلى **Saint Isidore** مؤداها أن هؤلاء كانوا من السورينجاى **Syriangae** وأن كلمة سراكنة جاءت تحريفا لها. وهناك نظرية أخرى تقول إن الكلمة كانت تطلق فى البداية على واحدة من القبائل البدوية العربية. هم بنو سارة. ثم صارت تطلق على جميع عرب الصحراء فى وقت لاحق .

وأيا كان الاشتقاق الذى جاءت منه الكلمة. فإن هناك بعض العناصر المشتركة التى لم تلبث أن ربطت نفسها بالسراكنة بعد الفتوح العربية التى بدأت سنة ٦٣٤. فى منطقة شرق المتوسط. وتؤكد المصادر المسيحية الباكرة على الخاصية المرتبطة بنهاية العالم فى هذه الفتوح. بمعنى أنها كانت الانتقام الإلهى الذى أوقعه الرب على شعبه الواقع فى الخطيئة فى وقت كانت هناك ثقة فى المجىء الثانى للمسيح. فقد قال

الأسقف الأرمنى سيبيوس Sebeos. فى كتابه الموسوم «تاريخ هرقل». الذى يمثل الرواية الوحيدة المعاصرة عن الفتوح من مصدر مسيحي(*) إنه يخشى أن يحكى عن الرعب الكامل الناتج عن الغزو الذى قام به الإسماعيليون. ووصف هذا الغزو بأنه ريح مسمومة حارة. السموم). تحرق وتهلك. تهب علينا. تشعل النيران فى الأشجار الباسقة الجميلة فى الحديقة. وفى النباتات الصغيرة ذات الأوراق الغزيرة»[٣٤]. وقد كتب أيضا عن مظاهر الرعب الأخرى التى تم ارتكابها. وألمح إلى أن هذا لا يمكن إلا أن يكون الوحش الرابع فى سفر الرؤيا. مثل «نسر طائر»، وهو على خلاف الوحوش الأخرى. لم يسترح أبدا ليلا أو نهارا قائلا. « يا أيها الرب المقدس. الذى كان. ويكون وسيكون»[٣٥].

وقد توسع سيبيوس فى وصفه للوحش فقال إنه كان. « رهيبا. عجيبا. له أسنان من حديد، ومخالبه من نحاس. يلتهم ويسحق ويدهس ... لقد جاء من صحراء كبرى لا حدود لها حيث عاش موسى وبنو إسرائيل فى الماضى. بحسب كلام النبى دانيال. أى من صحراء شاسعة رهيبة، حيث ثارت عاصفة الأمم وملأت الأرض. وغزت الأرض ودهستها. وهكذا تم إنجازها. سيكون الوحش الرابع هو المملكة الرابعة على وجه الأرض والتى ستكون أكثر كارثية من جميع الممالك. والتى ستحول الأرض كلها إلى صحراء»[٣٦].

على أية حال. كان الوحش الرابع يقوم بعمل الرب على الرغم من أنه نفسه كان أداة الشر. ففى رؤيا يوحنا كان الوحش الرابع هو الموت. «... فنظرت وإذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت والهاوية تتبعه وأعطيا سلطانا على ربع الأرض

(*) كان يوحنا أسقف نقيوس فى مصر شاهد عيان أيضا على أحداث الفتح العربى. وقد كان هذا الرجل أحد كبار الكنيسة المصرية وكان معاديا تماما للبيزنطيين. وعلى الرغم من أن كتابه لم يصلنا سوى فى اللغة الحبشية مع تحريفات وإضافات من جانب المترجم الحبشى فإن قيمته كبيرة بالنسبة للمؤرخين. (المترجم)

http://al-maktabeh.com

أن يقتلا بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض» لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف»[٣٧] وقد شهدت عدة مصادر بالقتل والدمار الحتمى الذى صب الغزو. وفى الرواية المكتوبة أنجزوا رؤية تنبؤية للمسيحية. لقد تجسدت أداة فى سلالة إبراهيم غير الشرعيين :يحميهم الرب ومع هذا تفصلهم عن المسيح مسافة لا نهائية. وقد دخلت المفردات المجازية عن العنف والرعب التى خلقتها تلك الاتصالات الأولية فى ثنايا كثير من الروايات. ولكن المصطلحات لم تكن ثابتة مثلما هو الحال فى أكثر النبوءات. لقد كان سيبيوس يترجم الأحداث فى مصطلحات كان من الضرورى صياغتها لتحقيق كلمة الرب ومشيئته. لقد كان المسلمون شرا ضروريا[٣٨] .

* * *

لقد قدم الكتّاب البيزنطيون الإسلام منذ القرن السابع فصاعدا على أنه خطر مميت يواجه المسيحيين. أخطر مما كانت تمثله فارس على الإطلاق. وقد صنف سيبيوس. فى نهاية كتابه، بعد أن حكى عن الهجوم الأول على القسطنطينية. الخطر الذى كان الإسلام يمثله بقوله. «... ومثلما ينطلق السهم من قوس شديد التقوس يمسك به رجل تجاه الهدف، فكذلك هم العرب الذين يأتون من صحراء سيناء لكى يدمروا العالم بأسره بالجوع. والسيف. والإرهاب العظيم»[٣٩].

لقد تم تصوير المسلمين بالمصطلحات السلبية نفسها الواردة فى الهجائيات الكاثوليكية الغربية التى استخدمت فى تصوير الشرق[٤٠] فقد كانت هناك أيضا مصطلحات مثل. خلاصة الشر. بل المسيح الدجال. كما وصفوا أيضا بأنهم الأداة اللازمة للحنق الإلهى وحكمه على شعب الرب الواقع فى الخطيئة. وبمرور الزمن تكاثرت أشكال جديدة من أوصاف الإدانة واللعنة. ولكنها كلها وضعت فى إطار تم توسيعه فى مدى عقود قليلة بعد الاتصال الأولى. ومنذ هذا الوقت تم فهم «الإسلام» من خلال أمثلة موجودة فى العهد القديم وفى العهد الجديد من الكتاب المقدس عن الشر والدمار. كانت هذه الأوصاف المنسوبة للبشر والموجودة منذ الأزل هى التى

تكررت فيما بعد فى خطاب الكتاب. وبقيت دون نقد أو مواجهة على مدى عدة قرون. وتسربت هذه الأوصاف خارج أوساط المتعلمين لتصل إلى عقول عامة الناس أو أفواههم. ومن بعدها اكتسبت الكلمات التى استخدمها الكتاب معانى جديدة. ولكن هذه العملية واجهت المقاومة. فقد كتب ألكوين **Alcuin** . الذى كان أشهر عالم أنجلو سكونى فى القرن الثامن الميلادى ومؤسس مدرسة القصر فى قصر الإمبراطور شارلمان بآخن. «لا ينبغى لأولئك الناس أن يستمعوا لمن يقول إن صوت النبى هو صوت الرب. لأن الصخب الصادر عن العامة المشاغبين دائما ما يقترب من الجنون»[٤١]. وما يزال الجدل محتدما حول كيفية زرع الأفكار التى تجسدت فى عدد قليل من المؤلفات وبثها بين الجماهير الأكبر عددا والذين تنتشر بينهم الأمية .

ويعتمد فهم الأفكار التى تتناول المسلم بوصفه كافرا على طريقة عمل اللغة[٤٢]. فهناك العديد من النظريات التى تعمل بها اللغة. ولكن فى خمسينيات القرن العشرين قدم المحلل النفسى الفرنسى «جاك لاكان **Jacques Lacan**» تفسيرا مفيدا عن كيفية عمل اللغة وآثار استخدامها. وقد أخذ النموذج الذى كان أول من أوضحه هو أبو علم اللغة. فرديناند دى سوسير **Ferdinand de Saussure**». وهذبه لكى يناسب ما رأى أنه حقيقة العلاقات الإنسانية. وكان سوسير قد عرف الاتصال بأنه نظام خالص وشامل من العلامات. وتتكون كل كلمة فيه من عنصرين[٤٣] .والعنصر الأول هو الوصف أو «المدلول» المشتق من الكلمة الفرنسية **signifie** . والعنصر الثانى هو الدال. أى الوسيلة التى توصل بها معناها. سواء كانت هذه الوسيلة الصوت المنطوق أو العلامات المرئية. مثل الكتابة .

وسيكون الاتصال مستحيلا إذا لم يكن هناك فهم مشترك لكيفية الربط بين الدال والمدلول. إذ يجب تسمية الشىء نفسه بالطريقة نفسها. ولكن «لاكان». باعتباره عالم نفس. رأى أنه لا يوجد بين مرضاه فى الواقع العملى علاقة ندية بين العنصرين. فقد كانا بالفعل جزءا فى سلسلة من الروابط العقلية. يحملان فى داخلهما ما بقى من تلك الروابط. وإذا طبقنا نظرية «لاكان» عن الممارسة اللغوية على السباب واللعنات. لكان معنى هذا أنه يجب إخضاع أية إهانة للسياق. لأنها تحمل فى طياتها آثارا واهية

تركتها إهانات مماثلة حدثت من قبل. وفى حالة المسيحية والإسلام يجب أن يحيط هذا السياق بتاريخ يعود القهقرى إلى عدة قرون مضت. فإذا قبلنا هذا المفهوم فلن يكون هناك سوى عدد قليل للغاية من العبارات داخل ذلك التاريخ يمكن أخذها بقيمتها السطحية. إذ إن معناها مستمد بصورة جزئية من تجمع الخوف والكراهية الممتدة. وتنقصنا فى السجلات الباكرة تلك المعلومات التى تساعدنا على رؤية المدلولات الكاملة لهذه الفكرة ولكننا إذا ما خرجنا من التتابع الزمنى برهة لوجدنا مثالا. يرجع إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يوضح كيف يمكن للعداوة أن تصطنع نسيج المعنى على هذا النحو وتزيفه وتحافظ عليه.

* * *

هذا المثال يظهر فى السجلات القنصلية البريطانية التى يرجع تاريخها إلى يونيو ١٨٦٠ م، فى زمن كانت هناك هجمات وحشية ضد المسيحيين فى الشرق الأوسط. وهو ما سوف نعود إليه فى هذا الكتاب مرة أخرى. فقد طلبت الحكومة البريطانية من قناصلها فى الدولة العثمانية كتابة تقرير موجز وشامل عن انطباعاتهم عن كيفية حياة المسيحيين فى ظل حكومة مسلمة. وقد فسر الموظفون المختلفون التعليمات الصريحة الصادرة إليهم بطرق مختلفة. إذ لاحظ القنصل بلنت **Blunt** فى بريشتينا بالبلقان أن المسيحيين كانوا «بالتأكيد» أحسن حالا منهم قبل عشر سنوات. ففى تلك الأيام كان. يمكن للمرء أن يحكم بمقاييس التسامح التركى المعمول بها فى تلك الأيام بإرغامهم على الزحف تحت أبواب لا تكاد تصل إلى ارتفاع أربعة أقدام»[٤٤]. لقد كان الاستدلال هنا واضحا بلا لبس. إذ كان معناه أن الأتراك يجبرون النصارى على صناعة أبواب كنائسهم منخفضة بالقدر الذى يجبر من يرتادها على الانحناء للدخول. ومن ثم يهينون أنفسهم. ولكن بحسب قراءتى أنا لهذا راودنى الشك فى أن يكون هذا الموظف القنصلى المحنك قد فسر الموقف تفسيرا صحيحا. فقد كان هناك تفسير آخر لوجود هذه الأبواب المنخفضة التقطته من مكان آخر. هذا التفسير يشير إلى أن

المسيحيين أنفسهم هم الذين كانوا يتعمدون جعل أبواب كنائسهم منخفضة. بحيث يتم منع المسلمين من الدخول إلى كنائسهم على ظهور بغالهم مما يتسبب فى تلويث الأرضية. ومن المؤكد أن كلا من الروايتين توضح أنه كان هناك اضطهاد. ولكن كل رواية تسلك طريقا مختلفا عن طريق الأخرى .

وعلى أية حال. فقد ساورنى الشك أيضا فى مدى إمكانية الاعتماد على أى من التفسيرين دليلا على وجود الاضطهاد العام. فقد عاشت «مارى إليزا روجرز» فى فلسطين فى أثناء فترة الخمسينيات من القرن التاسع عشر. ووصفت كثيرا من الكنائس بقدر كبير من التفصيل. ولكنها لم تشر أبدا إلى هذه الرموز المعمارية الدالة على الاضطهاد. كما أنها لم تشر مرة واحدة إلى أن المسيحيين كانوا ينحنون لكى يدخلوا إلى أماكن العبادة الخاصة بهم. فهل كانت هناك تفسيرات أخرى لا تعنى أنه كان هناك اضطهاد. ففى أوربا المسيحية تتخذ أبواب الكنائس كافة الأشكال والأحجام. والأبواب الكبيرة الثقيلة تحتوى غالبا على مدخل صغير يستخدم يوميا [ما يعرف باسم الخوخة وهو موجود فى الأبواب القديمة فى مصر أيضا. ، على حين تفتح الأبواب الكبيرة فى الأعياد والاحتفالات .. كما أن الكثير من الكنائس الأوربية لها مداخل ثانوية صغيرة وضيقة. أى التفسيرات صحيح إذن؟ هل كان ذلك طغيانا رسميا وضع لإهانة المسيحيين؟ هل كان ردا مسيحيا على مشكلة كريهة. أم ربما لم تكن سوى وسيلة بلاغية. ومجرد مجاز طرح فى صورة الحقيقة. أم كان تصويرا قصد به التعبير عن خاصية. التسامح التركى». ليس بوسعنا أن نعرف. وربما كان القنصل يريد فقط أن يستخدم رمزا مناسبا للدلالة على اضطهاد «الأيام السيئة الماضية حقيقة» فى أربعينيات القرن التاسع عشر .

على أية حال. هناك باب واحد بعينه ربما كان يمثل النمط السائد فى هذه الحكايات. إذ إن كنيسة الميلاد فى بيت لحم. التى بناها الإمبراطور جستنيان سنة ٥٢٩، كان لها فى الأصل ثلاث بوابات فى واجهتها الغربية. ولكن تاريخ المبنى يكشف كيف أنها تغيرت على مرِ القرون:

«المدخل الرئيسى إلى البازيليكا عن طريق الباب الصغير جدا. باب الخضوع (٧٨سم عرضا و١٣٠سم ارتفاعا. ويجب أن يدخل الزوار منحنين كما لو كانوا يدخلون كهفا حقيقيا. وفى الأصل كان للكنيسة ثلاثة مداخل. اثنان منها سدا بالطوب الآجر. ثم أخفيا بدعامة بنيت فيما بعد (بعد القرن السادس عشر) وبالمبانى الأرمنية. أما المدخل المركزى والأعلى فى كنيسة جستنيان فقد أعاد الصليبيون تشكيله. ونتج عن هذه العملية قوس مدبب ما يزال ماثلا للعيان إلى اليوم مع الكورتيش الذى وضعه جستنيان فى المبنى الذى بناه. وقد عمل المدخل الصغير الحالى فى أثناء العصر العثمانى لمنع الفرسان الراكبين من دخول البازيليكا. الكنيسة)»[٤٥].

جميع الحكايات الحديثة تكرر هذه القصة. زاعمين أن العثمانيين كانوا يجعلون أرض الكنيسة إصطبلا لخيولهم[٤٦]. ولكن الآثار الباقية هناك تتلاشى. وليس هناك اتفاق على الوقت الذى حدث فيه هذا التدنيس بالضبط. وعلاوة على ذلك. ليس هناك ما يشير إلى أن مواقع أخرى مساوية فى الأهمية. مثل كنيسة القيامة. قد لقيت المعاملة نفسها. إذن. أى القصص كانت صحيحة. الخيول أم الإهانة والذل. أم أن الباب فى كنيسة بيت لحم تم تخفيض ارتفاعه لأسباب معمارية. أخذت فى الاعتبار فى التغييرات التى أجريت أيام الصليبيين. ومن المؤكد أن المدخل المنخفض لم يترك أى انطباع رمزى لدى. مارى روجز. التى قالت. « لقد مررنا تحت طريق منخفض من الأقواس». كانت هذه هى الطريقة الصحيحة التى وصفت بها دخولها من باب الخضوع [٤٧].

هذه الحكايات. وحكايات أخرى مثلها. يجب دائما. فى تقديرى. توخى الحذر فى نشرها. ولا شك فى أنه قد تولدت على مرِ القرون من الربط بين «الحكم الإسلامى» وصورة مدخل الكنيسة الضيق. أفكارعن الذل الذى لقيه المسيحيون. وكان متوقعا أن يستنتج المسيحيون من هذا الكيفية التى كان المسلمون يتصرفون بها دائما تجاه المسيحيين. ولكن تغيير السياق يؤدى إلى تغيير المعنى. إذ إن الباب الضيق نفسه. فى أيد مسيحية. سيكون له مدلول مختلف تماما. وعندها يمكن أن يصبح هذا الباب كناية

عن طريق الخلاص مع تذكر كلمات المسيح فى إنجيل متى: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه»[٤٨].

هذا التناقض أعاد إلى ذاكرتى نموذج «لاكان» التصويرى عن كيفية خلق المعنى. وتوصيله. وفهمه. ففى البداية رسم بابين جنبا إلى جنب. ولم يكن لأى منهما مدلول خاص. وعندما كتب فوق أحدهما كلمة «رجال. وفوق الآخر كلمة. نساء» فهم القارئ. كان كل باب حينئذ يوحى بما خلفه. ليطلق شلالا من الروابط والصلات. وكانت النقطة التى أراد «لاكان» توضيحها أنه ليس هناك شىء فى كلمتى «رجال». «نساء» بحد ذاتهما. ولا فى صورة البابين بحد ذاتها. ولكن تواجدهما بجوار بعضهما وعليهما الكلمتان المكتوبتان. سرعان ما صنع رابطة ثقافية بين الجنسين. ومع عملية التبول والتغوط[٤٩]. وهكذا يشير إلى أن المدلول الخاص لهذين البابين إنما حسمه السياق. لقد كانت الكثير من الحكايات الأوربية عن. «العالم الإسلامى» قد بنيت بهذه الطريقة. مثل تفسير القنصل البريطانى بلنت للمدخل الواطئ فى كنيسة بريشتينا. إذ إن نموذج التفسير الغربى للإسلام. الاضطهاد والوحشية والتهديد. هو الذى حسم كيفية فهم الحوادث والتراكيب والصور وحددها[٥٠].

هوامش الفصل الثانى

(66-p.65)

١- فى سنة ١٥٧٥م فى إهدائه إلى هوارد إيفينجهام لنسخته من

Curio's Notable Historie of the Saracens

أعلن توماس نيوتن أن "النبوخذ نصر البابلى والفرعون التركى أقرب تمامًا إلى أنوفنا ... بل إنهم الآن على أبوابنا مستعدين لدخول بيوتنا ... هذا الوحش المدمر والطاغية الدموى ، واللص العام للعالم . انظر:

Coelius Augustinus Curio, A Notable Historie of the Saracens, Trans . Thomas Newton, London: n.p. Amesterdam Walter J. Johnson Inc. 1977 .

2. The first 'Mad Mullah' was the Somali leader Mohammed bin Abdullah Hassan, against whom the British fought from 1899. 'Mad Mullah' has now become a common insult.

٣- أعد الكاتب الذى عاش فى القرن العاشر حمزة الأصفهانى قائمة بخمس أمم كبرى فقط من الصين فى الشرق حتى البربر فى الغرب، نقلا عن Khalidi. Arabic Historian Thought، صفحات ١١٧-١١٨ . كان هناك هجاء إسلامى ضد المسيحية وضد المسيحيين الغربيين بوجه خاص ، ولكن قبل أواخر القرن الثامن عشر لم يكن مصحوبًا بأى فضول قوى تجاه أولئك الذين هاجمهم . ويلاحظ چاك واردنبرج أيضا أنه بينما كان لدى المسلمين "فضول مؤرق عن المسلمين خارج دار الإسلام، كان هناك ما يشبه الغياب الكامل عن أهل الذمة فى الأراضى الإسلامية" انظر :

4. This was the 'persecuting society', first identified by R. I. Moore, subsequently challenged and modified, but still solid in all its essentials. See Moore, *Formation*, and Laursen and Nederman, *Beyond*.

٥- هذه الخاصية نفسها كانت مدانة من جانب الإسلام : إذ إن مصطلح «جاهلية» يصف العصور المظلمة قبل الإسلام الذى جلب النظام والنور إلى العالم. ولكن الشعر العربى كان ما زال يستخدم الصفات الحربية فى القبيلة لرسم صورة النبالة . ويلاحظ روبرت هويلاند أن «الإسلام ظهر بين سكان المدن وبدأ بنظرة حضرية نمطية إلى البدو... وفى الأدب الإسلامى الباكر كان البدو يصورون غالبًا على أنهم أجلاف . وكان لابد لكل هذا أن يتغير بسرعة ، ويتم تصويرهم على أنهم جذور العرب ودعم للإسلام» انظر:

Arabia and the Arabs: From the Brone Age to the Coming of Islam , London , Rautledge, 2001, pp. 2437- .

وكتاب هويلاند الأسبق زمنًا «**Seeing Islam**» يحتوى على نطاق ممتد للغاية من البيانات السلبية عن الإسلام الباكر، ولكنه يؤسس أيضا أنه لم يكن هناك استجابة موحدة تمامًا وعلى أية حال فإنه يلاحظ (pp.٢٤-٥) أنه فى الكتابات اليونانية لم يكن المسلمون سوى أعداء الرب ... والصورة التى كانت لدى البيزنطى العادى عن العرب كانت محكومة بأكثر من ألف سنة من الانحياز ... وأن أسلافهم فى الكتاب المقدس ، من نسل الجارية هاجر قد وصمتهم دينيا بأنهم «أحقر شعوب الأرض» (هذه الإدانة والازدراء موجودة فى الحولية السورية سنة ١٢٣٤م على أساس مصدر من القرن الثامن.

6. For example, at Duma in 634. See Glubb, *Conquests*, p. 132.
7. Mark Whittrow has pointed to multiple problems with the sources for the first Islamic conquests. See Whittrow, *Making*, pp. 82–9.
8. Cited in Gil, *History*, p. 41.
9. Ibid., pp. 38–9.
10. See Gibbon, *Decline and Fall*, vol. 5, p. 422. Gibbon uses the often fanciful chronicle of Al Wakidi, and Ockley's *History of the Saracens*. But although the details are embellished the essence of the battle seems plausible.

11. See Gil, *History*, pp. 42–4.
12. This was the pass that Alexander the Great and his armies had traversed.
13. Gil, *History*, p. 170, asserts the contrary: 'One should not assume that the Moslems were in a majority during this period.' However, his Muslims are Peninsular Arabs, 'tribes who derived their income from taxes from the subdued population', and so converts do not figure.
14. See Zernov, *Eastern Christendom*, p. 84.
15. This had been miraculously rediscovered by the Emperor Constantine's mother, Saint Helena.
16. Cited in Glubb, *Conquests*, p. 183.
17. Matthew 24: 15–24.
18. See Constantelos, 'Moslem Conquests', p. 325.
19. Cited in Christades, 'Arabs', p. 316.
20. These monstrous creatures were first described by Pliny the Elder in his *Historia Naturalis*, completed in AD 77. See Moser, *Ancestral Images*, pp. 36–7. See also C. Meredith Jones, 'The Conventional Saracen of the Songs of Geste', *Speculum* 17 (1942), pp. 201–25.
21. See Sahas, *John of Damascus*.
22. *De Fide Orthodoxa*, IV, 11; cited in Khoury, *Polémique*, p. 11. John's father had been among those who formally surrendered Damascus to the Muslims.
23. See Jane I. Smith, 'Islam and Christendom: Historical, Cultural and Religious Interaction from the Seventh to the Fifteenth Centuries' in *The Oxford History of Islam*, ed. John L. Esposito, Oxford: Oxford University Press, 1999, p. 322. She observes: 'Scholastic writings coming out of the eastern part of the empire in the ninth and tenth centuries, especially from Byzantium, tended to be contemptuous and even abusive of the Prophet. In general this polemic was apocalyptic (prophesying the end of the Arabs) and highly uncharitable. The work produced in Spain . . . provided the first attempt at a comprehensive view of the religion of the Saracens, despite its predilection to see Islam as a preparation for the final appearance of the Antichrist.'
24. See Khoury, *Polémique*, pp. 360–61.
25. See Sherrard, *Constantinople*, pp. 8–9.
26. Cited in W. R. Lethaby and Harold Swainson, *Sancta Sophia Constantinople: A Study of Byzantine Building*, London: Macmillan & Co., 1894.
27. Revelation, 21: 2–3.
28. However, it was difficult to use effectively, except in limited defensive situations. For a balanced view, see Whittrow, *Making*, pp. 124–5.

29. See Gibbon, *Decline and Fall*, vol. 6, p. 8: 'The winter proved uncommonly rigorous. Above an hundred days the ground was covered with deep snow, and the natives of the sultry climes of Egypt and Arabia lay torpid and almost lifeless in their frozen camp.'
30. Theodosius Grammatikos, in Spyridonos Lambros, 'Le deuxième siège de Constantinople par les Arabes et Théodosius Gramnatikos', Athens: *Historika Meletemata*, 1884, pp. 129–32, cited in Ducellier, *Chrétiens*, p. 133.
31. See Brubaker, *Vision*, pp. 19–58.
32. Zernov, *Eastern Christendom*, p. 86.
33. See Rotter, *Abendland und Sarazenen*, pp. 68–9, and Tolan, *Saracens*, *passim*.
34. See *History of Heraclius*, cited in Ducellier, *Chrétiens*, p. 28. The best translation is *The 'Armenian History' Attributed to Sebeos*, trans. Robert Thomson, 2 vols, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 2000.
35. Revelation, 4: 7–8.
36. Ducellier, *Chrétiens*, p. 28.
37. Revelation 6: 1–17.

٣٨- الحقيقة أن موقف سيبيوس ، على الرغم من أنه موقف معاد، قد تغير فى تسجيله بين السرد التاريخى وبين عمل رابطة أخروية. وهكذا فإنه فى الفصل الثلاثين من تاريخه يبدأ بالقول " إننى سوف أناقش خط ذرية إبراهيم ، ليست الذرية المولودة من امرأة حرة ، ولكن الذرية التى ولدت من جارية خادمة والتى عنها تحقق الاقتباس المأخوذ عن الكتاب المقدس بأن يده ستكون على الكل، وسوف تكون يد الجميع عليه" سفر التكوين ١٦: ١٢].

39. Ibid., Chapter 38.
40. See Michael McCormick, 'Diplomacy and the Carolingian Encounter with Byzantium down to the Accession of Charles the Bald' in B. McGinn and W. Otten (eds), *Eriugena: East and West*, Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1994. However, the outcome of these connections can be seen in the cluster of chronicles concerning the seventh century of Spain: the *Chronicle* of 754, the *Continuatio Byzantia Arabica* or *Chronicle* of 741, and a lost *Historia Arabica*. The historiographical connections between them and their relative importance is contested, but it is clear that Christians in Spain were fully aware of events in the eastern Mediterranean during the conquest after 634, and related these to the conquest of Spain. For a good discussion of these issues see Collins, *Arab Conquest*, pp. 52–65. Dubler, 'Sobre la crónica' is suggestive of a wider range of connections.

http://al-maktabeh.com

41. Alcuin, *Opera*, in J. P. Migne, *Patrologiae Series Latina*, Paris: Migne, 1863, vol. 100, letter 164.

٤٢- هذا يصيح كيف أن لاكان فىEcrits وصف الطريقة التى يمكن بها اعتناق المفاهيم والأفكار. وقد لاحظ جاك دريدا أيضا تعقيد هذه الملاحق والارتباطات والطريقة التى بها تنمو الإضافات الخارجية للفكرة (وتفسيراتها) على مر الزمان "إن تفكيك القماش المنسوج [للنص] يمكن فى أية حالة أن يستغرق قرونا لإبطال الشبكة: الشبكة التى تحتوى على شبكة، فك الشبكة على مدى قرون، وإعادة تشكيلها أيضا باعتبارها كائنًا عضويًا ، تتكاثر بلا نهاية وتولد نسيجها الخاص وراء الأثر القاطع ، وهو القرار المتعلق بكل قراءة".

Jacques Derrida, Dissemination , trans Barbara Johnson , London : The Athlone Press, 1981/ 1993, p. 63 .

Jacques lacan , Ecrits, trans . Alan Sheridan , New York, انظر أيضا **. NY: Norton, 1977**

وقد وجدت لاكان صعبًا على الفهم بشكل خارق للعادة حتى فى الترجمة على الرغم من أن الطبعة الفرنسية الأصلية.

(**Edition du Seuil**، ١٩٦٦) كانت نقطة مهمة فى الإشارات المرجعية . وعلى أية حال، فإن بعض الأوراق فى كتابه برهنت على أنها مصدر مساعدة ، انظر :

Mark Bracher and Ellie Ragland - Sullivan (eds.), Lacan and the Subject of Language, London, Routledge, 1990.

(p.369)

43. On Saussure and Lacan, see Martin Francis Murray, 'Saussure, Lacan and the Limits of Language', University of Sussex PhD dissertation, 1995. On Lacan's approach, see Nancy and Lacoue-Lebarthe, *The Title*.

44. Cited in Bat Ye'or, *Dedine*, p. 419. Blunt to Bulwer, 14 July 1860.
45. See Qustandi Shomali, 'Church of the Nativity: History and Structure', www.unesco.org/archi2000/pdf/shomali.pdf
46. There is also a Muslim story of desecration, with the Crusaders stabling their horses in the Al-Aqsa mosque after the capture of Jerusalem in 1099. Are the two stories connected or reciprocal?
47. Mary Eliza Rogers, *Domestic Life in Palestine* (1862), London: Kegan Paul International, 1989, pp. 41–2.
48. Matthew 7:14. Gate and door are synonymous. See, also, Luke 13: 23–4: 'Then said one unto him, "Lord, are there few that be saved?" And he said unto them, "Strive to enter in at the strait gate: for many, I say unto you, will seek to enter in and will not be able."'

٤٩- قال لاكان «إن ازدواج الاسم من خلال مجرد التجاور بين مصطلحين ... ينتج مفاجأة بواسطة ترسيب غير متوقع لمعنى غير متوقع : صورة البابين التى ترمز، بحدود الفردية المقدمة للرجل الغربى من أجل إشباع حاجاته الطبيعية بعيدا عن الوطن، اللازمة الضرورية التى يبدو أنه يشارك فيها الغالبية العظمى من المجتمعات البدائية والتى بواسطتها تخضع حياته العامة لقوانين العزل عند التبول . انظر:

Jacques Lacan : «The Agency of the Letter in the Unconcious or Reason since Freud «, Ecrits , trans . Alan Sheridan, New York , NY: Narton, 1977, p.151.

(p.369)

٥٠- يشير الدكتور دانى كوزيك **Dane Kusic** إلى اختلاف جوهرى بين المثل الأساسية فى كل من العالم المسيحى وعالم الإسلام: "بدلاً من أن تعمل بطريقة التقسيم الغربية والتعريف الصارم للقطبين الذى يقصى كل منهما الآخر، فإن المصطلحات الدينية الإسلامية وغيرها غالبا ما تعمل بأسلوب متزامن حيث يمكن استبدال **Pars Pro toto** بـ **totom Pro Parte** (أى الأجزاء من أجل الكل تستبدل بالكل من أجل الجزء والعكس بالعكس) . وقد طور كوزيك نموذجه جزئيًا من تحديد بيير بورديه للاستخدامات المتعددة والمتطابقة لبيت **Kabyle** فى كتابه:

Outline of Theory of Practice (Combridge Studies in Social Authropology 16) trans. Richard Nice, Cambridge : CUP, 1977 , pp. 96 sqq.

انظر :

Namazi-s, in Istanbul : An Invitation to Reflexsive Ethnomusicology", Chapter 7 , Unpublished ph D. University of Maryland 1996 .

هوامش على النص

ملاحظة : المصادر الإسبانية غير المنشورة يشار إليها على أنها وثائق ، لها رقم وموضوعة فى قائمة كاملة عند بداية قائمة المصادر والببليوجرافيا المختارة . أما بالنسبة للأعمال المنشورة التى وضعت هنا بشكل مختصر فقط، فتظهر التفاصيل الببليوجرافية الكاملة فى الببليوجرافيا المختارة . أما المصادر المنشورة الأخرى التى تظهر هنا ولا تظهر فى الببليوجرافيا .

المقدمة

١- وبطبيعة الحال ليست لدينا كلمات البابا أوربان التى قالها بالضبط ، ولكن لدينا فقط ذكرى هذه الكلمات من خلال عدد من الكتاب المختلفين.

Preface

1. And, of course, we do not have Urban's precise words, but only the memory of them through a number of different writers.
2. This is Ludwig Wittgenstein's statement in the Preface to *Tractatus Logico-Philosophicus* (London: Routledge and Kegan Paul, 1922) that 'What can be said at all can be said clearly; and whereof one cannot speak thereof one must be silent.' But this translation does not really capture the resonance of the original (*'Was sich überhaupt sagen lässt, lässt sich klar sagen; und wovon man nicht reden kann, darüber muss man schweigen'*).
3. See Lance St John Butler, *Registering the Difference: Reading Literature through Register*, Manchester: Manchester University Press, 1999.
4. *Iliad*, bk 1, l. 201.
5. Douglas Adams, *The Hitchhiker's Guide to the Galaxy*, London: Pan Books, 1979, pp. 144–5.

مصادر ومراجع مختارة

With a topic ranging over many different geographical areas, and over such a long time span, the range of material is virtually endless. My notes and database record over 2,000 books that I have used in writing *Infidels*. I have selected those that I found most useful, or provoking. Others are fully referenced in the notes to each chapter but do not feature here.

Unpublished Manuscript Sources, Granada

DOCUMENTS

1. Archivo de la Real Cancilleria de Granada
   Auto del Real Concejo para que el Presidente y oidores de la Cancilleria de Granada no den a nadie para que llevar armas; S. 5, Legajo 12, Pieza 42, 23 de Marzo (1518).
2. Archivo de la Real Cancilleria de Granada
   El Alguacil del campo de la Ciudad de Malaga con Juan Gaitán, morisco, vecinos de la villa de Comares, sobre llevar armas contra las leyes; S. 3, Legajo 1198, Pieza 8 (1549).
3. Archivo del Alhambra
   Armas prohibidas, Legajo A-20, Pieza 14 (1558).
4. Archivo del Alhambra
   Causa contra Diego y Francisco Lopez, christianos nuevos, vecinos de Guadix, sobre llevar armas prohibidas; Legajo A-64, Pieza 90 (1560).
5. Archivo del Alhambra
   Armas prohibidas y heridas; Legajo A-34, Pieza 5 (1561).
6. Archivo del Alhambra
   Causa contra Antin de Cardenas, morisco, por llevar armas prohibidas; Legajo A-64, Pieza 38 (1561).
7. Archivo del Alhambra
   Copia de Cédula Real sobre los muertes que habían hecho los moriscos en la Cuesta de Cebada; Legajo A-119, Pieza 18 (1562).
8. Archivo del Alhambra
   Causa contra Gabriel de Baeza sobre llevar armas prohibidas; Legajo A-64, Pieza 52 (1563).

9. Archivo del Alhambra
Causa sobre armas contra Iñigo Antirafe, vecinos del Albaicin; Legajo A-118 (1564).
10. Archivo del Alhambra
Justificación contra monfies, moriscos de la tierra de habián asaltado las jabegas en la playa de Velez Malaga; Legajo A-65, Pieza 2 (1564).
11. Archivo del Alhambra
Privilegio de traer armas por ser christiano viejo y su padre haberse convertidos antes de la conversion general; Legajo A-118, Pieza 11 (1565).
12. Archivo del Alhambra
Auto sobe hacer cautivadao unos monfies varios cristianos; Legajo A-60, Pieza 4 (1566).
13. Archivo del Alhambra
Copia de Real Cédula por que Su Majestad le hizo merced a Hernando Manchel de poder de llevar armas; Legajo A-118, Pieza s.n. (1567).
14. Archivo del Alhambra
Privilegio de llevar armas y que se prive a los cristianos nuevos de llevarlas; Legajo A-118, Pieza 58 (1568).
15. Archivo del Alhambra
Sobre que no se permite a los cristianos nuevos de Casarabonela el llevarlas; Legajo A-118, Pieza 59 (1568).
16. Archivo del Alhambra
Visita que se hizo a las casas del Albaicin con nota de las que tenían armas; Legajo A-118, Pieza 64 (1569).
17. Archivo del Alhambra
Interrogatorio para el pleito de Andrés Jenin (Henil) sobre el privilegio de llevar armas, Legajo A-118, Pieza 65 (1569).
18. Archivo del Alhambra
Bando para que todos los moriscos que viven en Granada salgan de ella dentro de quatro días; Legajo A-4, Pieza 19 (1569).
19. Archivo del Alhambra
Causa contra Diego Hernandez sobre transfugia en Berberia; Legajo A-63, Pieza 6 (1569).
20. Archivo del Alhambra
Causa contra Miguel Zoli y consortes, vecinos de Nortaez que los fueron condenados a muerte y ejecutados en justicia en la Puerta de Elvira, sobre paso a Berberia; Legajo A-64, Pieza 44 (1562).
21. Archivo del Ayuntamiento de Granada
Real provisión mandada que en los bautismos y casamientos de los nuevamente convertidos sean padrinos cristianos viejos; Indiferentes, Legajo 2003 (1511).
22. Archivo del Ayuntamiento de Granada
Legajo 1861 (1513).
23. Archivo del Catedral de Granada
Apuntes sobre la manera de enseñar la doctrina a los moriscos; S.1, Legajo 36, Pieza 2.

24. Archivo del Catedral de Granada
Libro 11.11 (1530).
25. Archivo del Catedral de Granada
Libro 11.16 (1530).

Published Sources

'A British Resident of Twenty Years in the East' [J. H. Skene], *The Frontier Lands of the Christian and the Turk; Comprising the Travels in the Regions of the Lower Danube in 1850 and 1851*, London: Richard Bentley, 1853

'A Syrian', *Personal Collections of Turkish Misrule and Corruption in Syria* (with an introduction by the Rev. Wm Denton, MA), London: The Eastern Question Association, 1877

'Images of the Orient': Photography and Tourism 1860–1900, Rotterdam: Museum voor Volkerkunde, 1986

'The Turkish Atrocities of Bulgaria': Letter of the Special Commissioner of the 'Daily News' J. A. MacGahan Esq., with an Introduction and Mr. Schuyler's Preliminary Report, London: Bradbury, Agnew, 1876

'Veritatis Vindex': That Unconscionable Turk and What to Do with Him, London: Richard Bentley and Son, 1877

Abbott, George Frederick, *Under the Turk in Constantinople: A Record of Sir John Finch's Embassy 1674–1681*, London: Macmillan, 1920

Abou-El-Haj, Rifaat Ali, *Formation of the Modern State: The Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries*, Albany, NY: State University of New York Press, 1991

Abu-Lughod, Ibrahim, *The Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1963

Abu-Lughod, Lila, *Veiled Sentiments: Honour and Poetry in a Bedouin Society*, Berkeley, CA: University of California Press, 1986

Agnew, Hugh LeCaine, *Origins of the Czech National Renascence*, Pittsburgh, PA: University of Pittsburgh Press, 1993

Akarli, Engin, *The Long Peace: Ottoman Lebanon 1861–1920*, London: I. B. Tauris, 1993

Akbar, M. J., *The Shade of Swords: Jihad and the Conflict between Islam and Christianity*, London: Routledge, 2002

Al-Azmeh, Aziz, 'Barbarians in Arab Eyes', *Past and Present* 134 (February 1992), 3–18

Allan, Keith and Burridge, Kate, *Euphemism and Dysphemism: Language Used as Shield and Weapon*, Oxford: Oxford University Press, 1991

Allen, Beverley, *Rape Warfare: The Hidden Genocide in Bosnia Herzegovina*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1996

Alloula, Malek, *The Colonial Harem*, trans. Myrna Godzich and Wlad Godzich, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1986

Amades i Gelats, Joan, *Las Danzas de moros cristianos*, Valencia: Instituto de Estudios Ibéricos y Etnologia Valenciana, 1966

Anderson, Benedict, *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Spread of Nationalism*, (rev. edn) London: Verso, 1991
Anderson, M. S., *The Eastern Question 1774–1923: A Study in International Relations*, London: Macmillan, 1966
Anderson, Patricia, *The Printed Image and the Transformation of Popular Culture 1790–1860*, Oxford: Clarendon Press, 1991
Anderson, Perry, *Lineages of the Absolutist State*, London: Verso, 1984
Anderson, Roger Charles, *Naval Wars in the Levant 1559–1853*, Liverpool: Liverpool University Press, 1952
——, *Oared Fighting Ships*, Kings Langley: Argus Books, 1976
Andrić, Ivo, *The Development of Spiritual Life in Bosnia Under the Influence of Turkish Rule*, trans. and ed. Želimir B. Juričić and John F. Loud, Durham, NC: Duke University Press, 1990
——, *The Bridge Over the Drina*, trans. Lovett F. Edwards, London: Harvill, 1995
——, *Bosnian Chronicle* or, *The Days of the Consuls*, trans. Celia Hawkesworth with Bogdan Rakić, London: Harvill, 1996
Anzulović, Branimir, *Heavenly Serbia: From Myth to Genocide*, London: Hurst and Company, 1999
Arat, Zehra F. (ed.), *Deconstructing Images of 'the Turkish Woman'*, New York, NY: St. Martin's Press, 1998
Armstrong, Karen, *The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam*, London: HarperCollins, 2000
Arnold, Thomas W., *Painting in Islam: A Study of the Place of Pictorial Art in Muslim Culture*, New York, NY: Dover Publications, 1928 (rep. 1965)
Athanassoglou-Kallmyer, Nina M., *French Images from the Greek War of Independence 1821–1830: Art and Politics under the Restoration*, New Haven, CT: Yale University Press, 1989
——, *Eugène Delacroix: Prints, Politics and Satire 1814–1822*, New Haven, CT: Yale University Press, 1991
Atiya, Aziz S., *The Crusade of Nicopolis*, London: Methuen, 1934
Atiyah, George N. (ed.), *The Book in the Islamic World: The Written Word and Communication in the Middle East*, Albany, NY: State University of New York Press, 1995
Augustinos, Olga, *French Odysseys: Greece in French Travel Literature from the Renaissance to the Romantic Era*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1994
Ayalon, Ami, *The Press in the Middle East: A History*, Oxford: Oxford University Press, 1995
Baker, James N., 'The Presence of the Name: Reading Scripture in an Indonesian Village' in Jonathan Boyarin (ed.), *The Ethnography of Reading*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992
Balagna, José, *L'Imprimerie arabe en Occident (XVIe, XVIIe et XVIIIe siècles)*, Paris: Edition Maisonneuve, 1984
Banac, Ivo, *The National Question in Yugoslavia: Origins, History, Politics*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1974

Barber, Malcolm, *The New Knighthood: A History of the Order of the Temple*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Barbir, Karl K., *Ottoman Rule in Damascus 1708–1758*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1980
Barkai, Ron, *Cristianos y musulmanes en la España medieval: El enemigo en el espejo*, Madrid: Rialp, 1984
—— (ed.), *Chrétiens, musulmans et juifs dans l'Espagne médiévale de la convergence à l'expulsion*, Paris: Editions du Cerf, 1994
Barrios Aguilera, Manuel, *Moriscos y repoblación en las postrimerías de la Granada Islamica*, Granada: Diputación Provincial de Granada, 1993
Bartlett, Robert and MacKay, Angus (eds), *Medieval Frontier Societies*, Oxford: Clarendon Press, 1989
Beaugé, G. and Clément, J.-F. (eds), *L'Image dans le monde arabe*, Paris: CNRS Editions, 1995
Beckingham, C. F., *Between Islam and Christendom: Travellers, Facts and Legends in the Middle Ages and the Renaissance*, London: Variorum, 1983
Beeching, Jack, *The Galleys at Lepanto*, London: Hutchinson, 1982
Bell-Fialkoff, Andrew, *Ethnic Cleansing*, London: Macmillan, 1996
Benassar, Bartolomé, *The Spanish Character: Attitudes and Mentalities from the Sixteenth to the Nineteenth Century*, trans. Benjamin Keen, Berkeley, CA: University of California Press, 1979
Bennett, Clinton, *Victorian Images of Islam*, London: Grey Seal, 1992
Bernard, Yvelise, *L'Orient du XVIe siècle à travers les récits des voyageurs français: Regards portés sur la société musulmane*, Paris: Editions L'Harmattan, 1988
Binney, Edwin 3rd, *Turkish Miniature Paintings and Manuscripts from the Collection of Edwin Binney 3rd*, New York, NY: Metropolitan Museum of Art, 1973
Birnbaum, Henrik and Vryonis, Speros (eds), *Aspects of the Balkans: Continuity and Change*, The Hague: Mouton, 1972
Bitterli, Urs, *Cultures in Conflict: Encounters Between European and non-European Cultures, 1482–1800*, trans. Ritchie Robertson, Cambridge: Polity, 1989
Black-Michaud, Jacob, *Cohesive Force: Feud in the Mediterranean and the Middle East*, New York, NY: St. Martin's Press, 1975
Blanks, David (ed.), *Images of the Other: Europe and the Muslim World before 1700*, Cairo: American University Press, 1997
Blanks, David and Frassetto, Michael, *Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe: Perception of Other*, Basingstoke: Macmillan Press, 1999
Bloch, Maurice, *Ritual, History and Power: Selected Papers in Anthropology*, London: The Athlone Press, 1989
Bloom, Jonathan M., *Paper Before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World*, New Haven, CT: Yale University Press, 2001
Bohnstedt, John W., 'The Infidel Scourge of God: The Turkish Menace as Seen by German Pamphleteers of the Reformation Era', *Transactions of the American Philosophical Society* 58–59, Philadelphia, PA: The American Philosophical Society, 1968
Bolinger, Dwight, *Language – the Loaded Weapon: The Use and Abuse of Language Today*, London: Longman, 1980

http://al-maktabeh.com

Bond, George C. and Gilliam, Angela (eds), *Social Construction of the Past: Representation as Power*, London: Routledge, 1994

Bonner, Michael, *Aristocratic Violence and Holy War: Studies in the Jihad and the Arab-Byzantine Frontier*, New Haven, CT: American Oriental Society, 1996

Boronat y Barrachina, Pascual, *Los Moriscos Españoles y su expulsión: Estudio histórico-crítico*, 2 vols, Valencia: Francisco Vives y Mora, 1901

Boswell, John, *The Royal Treasure: Muslim Communities under the Crown of Aragon in the Fourteenth Century*, New Haven, CT: Yale University Press, 1977

Bourdieu, Pierre, *Outline of a Theory of Practice* (Cambridge Studies in Social Anthropology 16), trans. Richard Nice, Cambridge: Cambridge University Press, 1977

——, 'The Field of Cultural Production' in Randal Johnson (ed.), *Essays on Art and Literature*, Cambridge: Polity Press, 1993

Bowman, Alan K. and Woolf, Gregg (eds), *Literacy and Power in the Ancient World*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994

Bracewell, Catherine Wendy, *The Uskoks of Senj: Piracy, Banditry and Holy War in the Sixteenth-century Adriatic*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1992

——, 'Rape in Kosovo: Masculinity and Serbian Nationalism', *Nations and Nationalism* 6 (4) 2000

Braude, Benjamin and Lewis, Bernard (eds), *Christians and Jews in the Ottoman Empire: The Functioning of a Plural Society*, 2 vols, New York, NY: Holmes and Meier, 1982

Braudel, Fernand, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, trans. Sian Reynolds, 3 vols, London: The Folio Society, 2000

Brewer, John, *The Pleasures of the Imagination: English Culture in the Eighteenth Century*, London: HarperCollins, 1997

Bringa, Tone, *Being Muslim the Bosnian Way: Identity and Community in a Central Bosnian Village*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995

Brubaker, Leslie, *Vision and Meaning in Ninth-century Byzantium: Image as Exegesis in the Homilies of Gregory of Nazianus*, Cambridge: Cambridge University Press, 1999

Brummett, Palmira, *Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery*, Albany, NY: State University of New York Press, 1994

——, 'Dogs, Women, Cholera and Other Menaces in the Street: Cartoon Satire in the Ottoman Revolutionary Press, 1908–1911', *International Journal of Middle East Studies* 27 (1995)

——, *Image and Imperialism in the Ottoman Revolutionary Press 1908–1911*, Albany, NY: State University of New York Press, 2000

Brundage, James A., *Medieval Canon Law and the Crusader*, Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1969

Bryson, Norman, *Word and Image: French Painting of the Ancien Regime*, Cambridge: Cambridge University Press, 1981

Bunes Ibarra, Miguel Ángel de, *Los Moriscos en el pensamiento histórico: historiografía de un grupo marginado*, Madrid: Ediciones Catédra, 1983

——, *La Imagen de los musulmanes y del Norte de Africa en la España de los siglos XVI y XVII: Los caracteres de una hostilidad*, Madrid: CSIC, 1989

Burckhardt, Titus, *Moorish Culture in Spain*, trans. Alisa Jaffa, London: George Allen and Unwin, 1972

Burnett, Charles, *The Introduction of Arabic Learning into England: The Panizzi Lectures*, London: The British Library, 1996

Burns, R. I., *Islam under the Crusaders: Colonial Survival in the Thirteenth-century Kingdom of Valencia*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1973

Burshatin, Israel, 'The Moor in the Text: Metaphor, Emblem, and Silence' in Henry Louis Gates Jr (ed.), *Race, Writing and Difference*, Chicago: University of Chicago Press, 1985

Buxó, María Jesús, 'Bilingualismo y biculturalismo' in Antonio Carreira et al., *Homenaje a Julio Caro Baroja*, Madrid: Centro de Investigaciones Sociológicas, 1978

Cabenalas Rodríguez, Darío, *El Morisco granadino: Alonso del Castillo*, Granada: Patronato del Alhambra, 1965

Cahen, Claude, *Orient et Occident au temps des Croisades*, Paris: Aubier Montaigne, 1983

Campbell, Mary B., *The Witness and the Other World: Exotic European Travel Writing 400–1600*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1988

Campo, Juan Eduardo, *The Other Sides of Paradise: Explorations into the Religious Meanings of Domestic Space in Islam*, Columbia, SC: University of South Carolina Press, 1991

Cardaillac, Louis, *Moriscos y cristianos: Un enfrentamiento polémico, 1492–1640*, Madrid: Fondo de Cultura Económica, 1979

—— (ed.), *Tolède, XIIe–XIIIe: Musulmans, chrétiens et juifs – le savoir et la tolérance*, Paris: Editions Autrement, 1991

Carnoy, Dominique, *Représentations de l'Islam dans la France du XVIIe siècle: La ville de tentations*, Paris, L'Harmattan, 1998

Caro Baroja, Julio, *Los Moriscos del Reinado de Granada: Ensayo de historia social*, Madrid, n.p., 1957

——, *Las Formas complejas de la vida religiosa: Religión, sociedad y carácter en la España de los siglos XVI y XVII*, Madrid: Akal Editor, 1978

Carrier, James, *Occidentalism: Images of the West*, Oxford: Oxford University Press, 1995

Carruthers, Mary J., *The Book of Memory: A Study of Memory in Medieval Culture*, Cambridge: Cambridge University Press, 1990

Casas, Bartolomé de las, *Apologética historia sumaria*, ed. Edmundo O'Gorman, 2 vols, Mexico City: Universidad Nacional Autónoma de México, Instituto de Investigaciones Históricas, 1967

——, *History of the Indies*, trans. Andrée Collard, New York: Harper & Row, 1971

——, *Del único modo de atraer a todos los pueblos a la verdadera religión*, trans. Atenógenes Santamaría, Mexico City: Fondo de Cultura Económica, 1975

Cassels, Lavender, *The Struggle for the Ottoman Empire 1717–40*, London: John Murray, 1966

Castro, Américo, *The Structure of Spanish History*, trans. Edmund L. King, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1954

Cavallo, Guglielmo and Chartier, Roger, *A History of Reading in the West*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1999

Centlivres, Pierre and Centlivres-Demont, Micheline, *Imageries populaires en Islam*, Geneva: Editions GEORG, 1997

Certeau, Michel de, *The Writing of History*, trans. Tom Conley, New York, NY: Columbia University Press, 1988
Chadwick, Henry, *The Early Church*, rev. edn, Harmondsworth: Penguin, 1993
Chartier, Roger, *Cultural History: Between Practices and Representations*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1988
—— (ed.), *The Culture of Print: Power and the Use of Print in Early Modern Europe*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1989
——, *The Order of Books: Readers, Authors, and Libraries in Europe between the Fourteenth and Eighteenth Centuries*, trans. Lydia G. Cochrane, Cambridge: Polity Press, 1994
Chazan, Robert, *Medieval Stereotypes and Modern Antisemitism*, Berkeley, CA: University of California Press, 1997
Chebel, Malek, *L'Imaginaire arabo-musulman*, Paris: Presses Universitaires de France, 1993
Chejne, Anwar G., *The Arabic Language: Its Role in History*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1969
——, *Muslim Spain: Its History and Culture*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1974
——, *Islam and the West: The Moriscos – A Cultural and Social History*, Albany, NY: State University of New York Press, 1983
Chelli, Moncef, *La Parole arabe: Une théorie de la rélativité des cultures*, Paris: Sindbad, 1980
Chew, Samuel C., *The Crescent and the Rose: Islam and England during the Renaissance*, Oxford: Oxford University Press, 1937
Chirot, Daniel (ed.), *The Origins of Backwardness in Eastern Europe: Economics and Politics from the Middle Ages until the Early Twentieth Century*, Berkeley, CA: University of California Press, 1989
Choueiri, Youssef, *Islamic Fundamentalism*, rev. edn, London: Pinter, 1997
Christides, V., 'Arabs as "Barbaroi" before the Rise of Islam', *Balkan Studies* 10 (1969)
Christiansen, E., *The Northern Crusade: The Baltic and the Catholic Frontier of Christendom 1100–1525*, London: Macmillan, 1980
Chu, Petra ten-Doesschate and Weisberg, Gabriel P. (eds), *The Popularization of Images: Visual Culture under the July Monarchy*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994
Çirakman, Asli, 'From the "Terror of the World" to the "Sick Man of Europe": European Images of Ottoman Empire and Society from the Sixteenth Century to the Nineteenth', unpublished PhD thesis, Queens University, Ontario, 1996
——, 'From Tyranny to Despotism: The Enlightenment's Unenlightened Image of the Turks', *International Journal of Middle East Studies* 33 (2001)
Clair, Colin, *A History of European Printing*, London: Academic Press, 1976
Clark, Colin, *A Chronology of Printing*, London: Cassell, 1969
Clark, Harry, 'The Publication of the Koran in Latin: A Reformation Dilemma', *The Sixteenth Century Journal* 15. 1 (Spring 1984) 3–12
Clark, Katerina and Holquist, Michael, *Mikhail Bakhtin*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984

Clogg, Richard (ed.), *The Movement for Greek Independence 1770–1821: A Collection of Documents*, London: Macmillan, 1976

—— (ed.), *Balkan Society in the Age of Greek Independence*, London: Macmillan, 1981

Coe, Penny, '"O God, the heathen have come into your inheritance" (Psalm 78.1): The Theme of Religious Pollution in Crusade Documents 1095–1188' in M. Shatzmiller, *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden: E. J. Brill, 1993

Cohen, Jeffrey Jerome, *Of Giants: Sex, Monsters and the Middle Ages*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1999

Cohen, Mark R., *Under Crescent and Cross: The Jews in the Middle Ages*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994

Cohn, Norman, *The Pursuit of the Millennium: Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages*, rev. edn, London: Pimlico, 1993

Colbert, E. P., *The Martyrs of Cordoba 850–859*, Washington, DC: Catholic University of America Press, 1962

Collins, Roger, *Early Medieval Spain: Unity in Diversity 400–1000*, London: Macmillan, 1983

——, *The Arab Conquest of Spain 710–797*, Oxford: Basil Blackwell, 1989

Constantelos, D. J., 'The Moslem Conquests of the Near East as Revealed in the Greek Sources of the Seventh and Eighth Centuries', *Byzantion* 42 (1972)

Coope, Jessica A., *The Martyrs of Córdoba: Community and Family Conflict in an Age of Mass Conversion*, Lincoln; NE: University of Nebraska Press, 1995

Corbett, Margery and Lightbown, R. W., *The Comely Frontispiece: The Emblematic Title Page in England 1550–1660*, London: Routledge and Kegan Paul, 1979

Courbage, Youssef and Fargues, Philippe, *Christians and Jews under Islam*, trans. Judy Mabro, London: I. B. Tauris, 1998

Crampton, R. J., *Eastern Europe in the Twentieth Century*; London: Routledge, 1994

Creagh, James, *Over the Borders of Christendom and Eslamiah: A Journey through Hungary, Slavonia, Serbia, Bosnia, Herzegovina, Dalmatia, and Montenegro, to the North of Albania in the Summer of 1875*, 2 vols, London: Samuel Tinsley, 1876

Cruz, Anne and Perry, Mary Elizabeth (eds), *Culture and Control in Counter-Reformation Spain*, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1992

Curtis, William Elroy, *The Turk and His Lost Provinces*, Chicago: Fleming H. Revell Co., 1903

Cutler, Allan Harris and Cutler, Helen Elmquist, *The Jew as the Ally of the Muslim: Mediaeval Roots of Anti-Semitism*, Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 1986

Daftary, Farhad, *The Assassin Legends: Myths of the Ismailis*, London: I. B. Tauris, 1994

Dalton, Kathleen, *Theodore Roosevelt: A Strenuous Life*, New York, NY: Alfred J. Knopf, 2002.

Damiani, Anita, *Enlightened Observers: British Travellers to the Near East 1750–1850*, Beirut: American University of Beirut, 1979

Daniel, Norman, *The Arabs and Mediaeval Europe*, Beirut: Longman Librairie du Liban, 1975

——, *Islam and the West: The Making of an Image*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1980

—— ——, *Heroes and Saracens: An Interpretation of the Chansons de Geste*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1984

Darnton, Robert and Roche, Daniel (eds), *Revolution in Print: The Press in France 1775–1800*, Berkeley, CA: University of California Press, 1989

Davies, Norman, *God's Playground: A History of Poland: The Origins to 1795*, Oxford: Clarendon Press, 1981

Davis, James C., *Pursuit of Power: Venetian Ambassadors' Reports on Turkey, France and Spain in the Age of Philip II*, New York, NY: Harper Torchbooks, 1970

Davison, Roderic H., 'Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the Nineteenth Century', *American Historical Review* 59:4 (1954), 844–64

De Hamel, Christopher, *The Book: A History of the Bible*, London: Phaidon, 2001

Delbruck, Hans, *Medieval Warfare*, trans. Walter J. Renfroe, Jr. Lincoln, NB: University of Nebraska Press, 1982

Deringil, Selim, *The Well Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire 1876–1909*, London: I. B. Tauris, 1998

Derrida, Jacques, *Dissemination*, trans. Barbara Johnson, London: The Athlone Press, 1993

Desmet-Grégoire, Hélène, *Le Divan Magique: L'Orient tue en France au XVIIIe siècle*, Paris: Le Sycomore, 1980

de Zayas, Rodrigo, *Les Morisques et le racisme d'état: Les voies du Sud*, Paris: Editorial La Différence, 1992

Diamandouros, Nikiforos P., Anton, John P., Petropulos, John A. and Topping, Peter (eds), *Hellenism and the First Greek War of Liberation (1821–1930): Continuity and Change*, Thessaloniki: Institute for Balkan Studies, 1976

Djait, Hichem, *Europe and Islam*, trans. Peter Heinegg, Berkeley, CA: University of California Press, 1985

Dodds, Jerrilynn D., *Architecture and Ideology in Early Medieval Spain*, University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1990

Domínguez Ortiz, Antonio and Vincent, Bernard, *Historia de los Moriscos: Vida y tragedia de una minoria*, Madrid: Biblioteca de la Revista de Occidente, 1978

Douglas, Mary, *Purity and Danger: An Analysis of the Concepts of Pollution and Taboo*, London: Routledge and Kegan Paul, 1966

Douglas, Roy, 'Britain and the Armenian Question 1894–7', *The Historical Journal* 19:1 (1976)

Dozy, Reinhart, *Spanish Islam: A History of the Moslems in Spain* (1913), trans. Francis Griffin Stokes, London: Frank Cass, 1972

Drucker, Johanna, *The Alphabetic Labyrinth: The Letters in History and Imagination*, London: Thames and Hudson, 1995

Dubler, C. E., 'Sobre la crónica arábigo-bizantina de 741', *Al Andalus* 11 (1946), 298–322

Ducellier, Alain, *Chrétiens d'Orient et Islam au Moyen-Age, VIIe–XVe siècle*, Paris: Armand Colin, 1996

Dufrenoy, Marie-Louise, *L'Orient Romanesque en France 1704–1789: Etude d'histoire*

et de critique littéraires, 3 vols, vols 1 and 2, Montreal: Editions Beauchemin, 1946, vol. 3, Amsterdam: Rodopi, 1975

Dupront, Alphonse, *Le Mythe de croisade*, 4 vols, Paris: Editions Gallimard, 1997

Durham, M. Edith, *The Burden of the Balkans*, London: Thomas Nelson, 1905 (1912 reprint)

Earle, Peter, *The Corsairs of Malta and Barbary*, London: Sidgwick and Jackson, 1970

Echevarria, Ana, *The Fortress of Faith: The Attitude towards Muslims in Fifteenth-Century Spain*, Leiden: E. J. Brill, 1999

Eco, Umberto, *The Search for the Perfect Language*, trans. James Fentress, London: Fontana Press, 1997

——, *Serendipities: Language and Lunacy*, trans. William Weaver, New York, NY: Columbia University Press, 1998

Edwards, Holly, *Noble Dreams Wicked Pleasures: Orientalism in America 1870–1930*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000

Edwards, John, *Christian Córdoba: The City and Its Region in the Late Middle Ages*, Cambridge: Cambridge University Press, 1982

– – , *Religion and Society in Spain c. 1492*, Aldershot: Variorum, 1996

——, *The Spain of the Catholic Monarchs 1474–1520*, Oxford: Basil Blackwell, 2000

Eickelman, Dale F. and Piscatori, James (eds), *Muslim Travellers: Pilgrimage, Migration and the Religious Imagination*, Berkeley, CA: University of California Press, 1990

Eisenstein, Elizabeth L., *The Printing Press as an Agent of Change: Communications and Cultural Transformations in Early Modern Europe*, 2 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1976

——, *The Printing Revolution in Early Modern Europe*, Cambridge: Cambridge University Press, 1983

Elkins, James, *On Pictures and the Words That Fail Them*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998

Emmerson, Richard Kenneth, *Antichrist in the Middle Ages: A Study of Medieval Apocalypticism, Art and Literature*, Seattle, WA: University of Washington Press, 1981

Emmert, Thomas A., *Serbian Golgotha: Kosovo 1389*, New York, NY: Eastern European Monographs, 1990

Epalza, Mikel de, *Los Moriscos antes y despues de la expulsion*, Madrid: Editorial Mapfre, 1992

Erbstosser, Martin, *The Crusades*, trans. C. S. V. Sal, Newton Abbot: David & Charles, 1978

Erdmann, Carl, *The Origin of the Idea of Crusade*, trans. Marshall W. Baldwin and Walter Goffart, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977

Esposito, John L., *The Islamic Threat: Myth or Reality?*, Oxford: Oxford University Press, 1995

Fabian, Johannes, *Time and the Other: How Anthropology Makes Its Object*, New York, NY: Columbia University Press, 1983

Fabre-Vassas, Claudine, *The Singular Beast: Jews, Christians and the Pig*, trans. Carol Volk, New York, NY: Columbia University Press, 1997

Faroqhi, Suraiya, *Subjects of the Sultan: Culture and Daily Life in the Ottoman Empire*, London: I. B. Tauris, 2000

Fentress, James and Wickham, Chris, *Social Memory: New Perspectives on the Past*, Oxford: Blackwell, 1992
Ferguson, Niall (ed.), *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, London: Picador, 1997
Findley, Carter Vaughn, 'Ebu Bekir Ratib's Vienna Embassy Narrative: Discovering Austria or Propagandising for Reform in Istanbul', *Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes* LXXXV (1995)
——, 'A Quixotic Author and his Great Taxonomy: Mouradgea d'Ohsson and his *Tableau général de l'empire othoman*', paper presented at the 19th International Congress of Historical Sciences Conference, Oslo 2000
Fine, John V. A., *The Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest*, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1987
Fischer-Galati, Stephen, *Ottoman Imperialism and German Protestantism 1521–1555*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1959
Fleming, K. E., *The Muslim Bonaparte: Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1999
Fletcher, R. [Richard] A., 'Reconquest and Crusade in Spain *c.* 1050–1150', *Transactions of the Royal Historical Society*, 5th series 37 (1987)
Fletcher, Richard, *The Quest for El Cid*, New York, NY: Oxford University Press, 1990
France, John, *Victory in the East: A Military History of the First Crusade*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Franolic, Branko, *A Short History of Literary Croatian*, Paris: Nouvelles Editions Latines, 1980
Frazee, C. A., *Catholics and Sultans: The Church and the Ottoman Empire, 1453–1923*, Cambridge: Cambridge University Press, 1983
Freedberg, David, *The Power of Images: Studies in the History and Theory of Response*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1989
Freedman, Paul, *Images of the Medieval Peasant*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1999
Friedman, Francine, *The Bosnian Muslims: Denial of a Nation*, Boulder, CO: Westview Press, 1996
Friedman, J. B., *The Monstrous Races in Medieval Art and Thought*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981
Friedman, Jerome, 'Jewish conversion, the Spanish Pure Blood Laws and Reformation: A Revisionist View of Racial and Religious Anti-Semitism', *The Sixteenth Century Journal* 18 1 (Spring 1987)
Fuchs, Barbara, *Mimesis and Empire: The New World, Islam and European Identities*, Cambridge: Cambridge University Press, 2001
Gabrieli, Francisco, *Arab Historians of the Crusade*, trans. E. J. Costello, London: Routledge and Kegan Paul, 1969
——, 'Islam in the Mediterranean World' in J. Schacht and C. E. Bosworth (eds), *The Legacy of Islam*, 2nd edn, Oxford: Oxford University Press, 1974
Gaignard, Catherine, *Maures et Chrétiens à Grenade 1492–1570*, Paris: L'Harmattan, 1997

Galán Sánchez, Angel, *Una visión de la 'decadencia española': La historiografía anglosajona sobre mudéjares y moriscos (siglos xviii–xx)*, Malaga: Servicio de Publicaciones, Diputación Provincial de Malaga, 1991

Gallego y Burín, Antonio and Gámir Sandoval, Alfonso, *Los Moriscos del reino de Granada según el Sínodo de Guadix de 1554*, Granada: Universidad de Granada, 1996

Gandelman, Claude, *Reading Pictures, Viewing Texts*, Bloomington, IN: Indiana University Press, 1990

García Arenal, Mercedes (ed.), *Los Moriscos*, Madrid: Editorial Nacional, 1975

García Cárcel, R., 'La Historiografía sobre los moriscos españoles: approximación a un estado de la cuestión', *Estudis* VI (1977), 73–4

Garrad, K., 'The Causes of the Second Rebellion of the Alpujarras 1568–71', unpublished Cambridge PhD thesis, 1955

Garrido Aranda, Antonio, *Moriscos e Indios: Precedentes hispanicos de la evangelización en Mexico*, Mexico City: Universidad Nacional Autonoma de Mexico, 1980

Garrido Atienza, M., *Las Capitulaciones para la entrega de Granada*, n.p., 1910

Gaskell, Philip, *A New Introduction to Bibliography*, Oxford: Oxford University Press, 1972

Gdoura, Wahid, *Le Début de l'imprimerie arabe à Istanbul et en Syrie: Evolution de l'environnement culturel (1706–1787)*, Tunis: Institut Supérieur de Documentation, 1985

Geertz, Clifford, *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia*, New Haven, CT: Yale University Press, 1982

——, *Local Knowledge*, New York, NY: Basic Books, 1983

——, *The Interpretation of Cultures*, London: Fontana Press, 1993

Geertz, Clifford, Geertz, Hildred and Rosen, Lawrence, *Meaning and Order in Moroccan Society: Three Essays in Cultural Analysis*, Cambridge: Cambridge University Press, 1979

Gellner, Ernest, 'A Pendulum Swing Theory of Islam', *The Philosophical Forum* 2:2 (Winter 1970–71)

Genette, Gérard, *Paratexts: Thresholds of Interpretation*, trans. Jane E. Lewin, Cambridge: Cambridge University Press, 1997

Gerulaitis, Leonardas Vytautas, *Printing and Publishing in Fifteenth-century Venice*, London: Mansell Information Publishers, 1976

Gibb, H. A. R. and Bowen, H., *Islamic Society and the West*, 2 vols, Oxford: Oxford University Press, 1950–57

Gibbon, Edward, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, 7 vols, London: Methuen, 1911

Gingrich, Andre, 'Frontier Myths of Orientalism: The Muslim World in Public and Popular Cultures of Central Europe', *MESS (Mediterranean Ethnological Summer School 1996)*, vol. 2, Ljubljana, 1998, 99–127

Gil, Moshe, *A History of Palestine 634–1099*, trans. Ethel Broido, Cambridge: Cambridge University Press, 1997

Gilbert, Suzanne, *Reading Images: Narrative Discourse and Reception in the Thirteenth-century Illuminated Apocalypse*, Cambridge: Cambridge University Press, 1995

Gilmont, Jean-François (ed.), *The Reformation and the Book*, trans. Karin Maag, Aldershot: Ashgate, 1998
Gilsenan, Michael, *Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Middle East*, London: I. B. Tauris, 1990
Gladstone, W. E., *The Bulgarian Horrors and the Question of the East*, London: John Murray, 1876
Glick, T. F., 'The Ethnic Systems of Pre-Modern Spain', *Comparative Studies in Society and Sociology*, 1 (1977)
Glick, Thomas F., *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages: Comparative Perspectives on Social and Cultural Formation*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979
Glubb, Sir John Bagot, *The Empire of the Arabs*, London: Hodder and Stoughton, 1963
——, *The Great Arab Conquests*, London: Hodder and Stoughton, 1963
Goffman, Daniel, *The Ottoman Empire and Early Modern Europe*, Cambridge: Cambridge University Press, 2002
Goitein, S. D., *Jews and Arabs: Their Contacts through the Ages*, New York: Schocken Books, 1964
——, *Studies in Islamic History and Institutions*, Leiden: E. J. Brill, 1966
——, *A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed by the Documents of the Cairo Geniza*, 5 vols, index vol., Berkeley, CA: University of California Press, 1967–99
Goldsworthy, Vesna, *Inventing Ruritania: The Imperialism of the Imagination*, New Haven, CT: Yale University Press, 1998
Göllner, Carl, *Turcica: Die europäischen Turkendrucke des XVI Jahrhunderts*, 3 vols, Bucharest: Academiei Republicii Socialiste România, 1961–78
Goodwin, Geoffrey, *The Janissaries*, London: Saqi Books, 1994
Goody, Jack, *The Logic of Writing and the Organisation of Society*, Cambridge: Cambridge University Press, 1986
——, *The East in the West*, Cambridge: Cambridge University Press, 1996
——, *The Power of the Written Tradition*, Washington, DC: Smithsonian Institution Press, 2000
Gordon, Thomas, *History of the Greek Revolution*, 2 vols, Edinburgh: William Blackwood, 1832
Grabar, Oleg, *The Formation of Islamic Art*, 2nd edn, New Haven, CT: Yale University Press, 1983
Graham, William A., *Beyond the Written Word: Oral Aspects of Scripture in the History of Religion*, Cambridge: Cambridge University Press, 1987
Greene, Molly, *A Shared World: Christians and Muslims in the Early Modern Mediterranean*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000
Grothaus, Maximilian, 'Die "Erbfeindt christlichen Nahmens": Studien zum Türken-Feindbild in der Kultur der Habsburgermonarchie zwischen 16 und 18 Jahrhunderts', University of Graz, unpublished PhD thesis, 1986
Guanos, Pascal de, *A History of the Mohammedan Dynasties of Spain*, London: Oriental Translation Fund of Great Britain and Ireland, 1840–43
Guichard, Pierre, *Al-Andalus 711–1492*, Paris: Hachette, 2000

Guilmartin, John Francis Jr., *Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century*, Cambridge: Cambridge University Press, 1974

Gunny, Ahmad, *Images of Islam in Eighteenth-Century Writings*, London: Grey Seal, 1996

Gutmann, Joseph, *The Image and the Word: Confrontations in Judaism, Christianity and Islam*, Missoula, MO: Scholars Press for the American Academy of Religion, 1977

Göçek, Fatma Müge, *East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*, Oxford: Oxford University Press, 1987

——, *Rise of the Bourgeoisie, Demise of Empire: Ottoman Westernisation and Social Change*, Oxford: Oxford University Press, 1996

Haddad, Yvonne Yazbeck and Haddad, Wadi Zaidan, *Christian-Muslim Encounters*, Gainesville, FL: University Press of Florida, 1995

Haliczer, Stephen, *The Inquisition and Society in the Kingdom of Valencia 1478–1834*, Berkeley, CA: University of California Press, 1990

Hall, Kim F., *Things of Darkness: Economies of Race and Gender in Early Modern England*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996

Hanebutt-Benz, Eva, Glass, Dagmar and Roper, Geoffrey, *Middle Eastern Languages and the Print Revolution: A Cross-Cultural Encounter*, Westhofen: WVA-Verlag Skuliman, 2002

Hardin, Russell, *One for All: The Logic of Group Conflict*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995

Harris, Marvin, *The Rise of Anthropological Theory: A History of Theories of Culture*, London: Routledge and Kegan Paul, 1969

Harris, Max, *Aztecs, Moors and Christians: Festivals of Reconquest in Mexico and Spain*, Austin, TX: University of Texas Press, 2000

Harvey, L. P., *Islamic Spain 1250–1500*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1990

Haskell, Francis, *History and Its Images: Art and the Interpretation of the Past*, New Haven, CT: Yale University Press, 1993

Haywood, John A., *Arabic Lexicography: Its History and Its Place in the General History of Lexicography*, Leiden: E. J. Brill, 1960

Healey, John F., *The Early Alphabet*, London: British Museum Press, 1990

Henderson, Frank Stewart, *Honor*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1994

Hendricks, Margo and Barker, Patricia (eds), *Women, 'Race' and Writing in the Early Modern Period*, London: Routledge, 1994

Hentsch, Thierry, *Imagining the Middle East*, trans. Fred A. Reed, Montreal: Black Rose Books, 1992

Hernández Juberías, J., *La Península imaginaria: mitos y leyendas sobre al-Andalus*, Madrid: CSIC, 1996

Hertog, François, *The Representation of the Other in the Writing of History*, trans. Janet Lloyd, Berkeley, CA: University of California Press, 1988

Hess, Andrew, 'The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth-century Spain', *American Historical Review* LXXIV (Oct. 1968)

——, 'The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the Oceanic Discoveries 1453–1525', *American Historical Review* LXXV (Dec. 1970)

http://al-maktabeh.com

—, 'The Battle of Lepanto and Its Place in Mediterranean History', *Past and Present* 57 (Nov. 1972)
——, *The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth-century Ibero-African Frontier*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1978
Hillenbrand, Carole, *The Crusades: Islamic Perspectives*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1997
Hillgarth, J. N., *The Spanish Kingdoms 1250–1516*, 2 vols, Oxford: Clarendon Press, 1976–8
——, *The Mirror of Spain 1500–1700: The Formation of a Myth*, Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 2000
Hindman, Sandra (ed.), *Printing and the Written Word: A Social History of Books c. 1450–1520*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991
Hiro, Dilip, *Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism*, London: Routledge, 1989
Hirsch, Rudolf, *Printing, Selling and Reading 1450–1550*, Wiesbaden: Otto Harassowitz, 1967
Hiskett, Mervyn, *The Course of Islam in Africa*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1994
Hitchins, Keith, *The Romanians 1774–1866*, Oxford: Clarendon Press, 1996
Hitzel, Frédéric (ed.), *Livres et lecture dans le monde ottoman*, Aix-en-Provence: Edisud/Revue des Mondes Musulmans, 1999
Hodcraft, F. W., et al. (eds), *Mediaeval and Renaissance Studies on Spain and Portugal in Honour of P. E. Russell*, Oxford: The Society for the Study of Mediaeval Languages and Literature, 1981
Hodge, Robert and Kress, Gunther, *Language as Ideology*, 2nd edn, London: Routledge, 1993
Hodgen, Margaret T., *Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1964
Hodgson, Marshall G. S., *The Venture of Islam, Vol. 1: The Classical Age of Islam*, Chicago, IL: Chicago University Press, 1974
Hourani, Albert, *Arabic Thought in the Liberal Age: 1798–1939*, Cambridge: Cambridge University Press, 1970
——, *Europe and the Middle East*, London: Macmillan, 1980
——, *The Emergence of the Modern Middle East*, Berkeley, CA: University of California Press, 1981
——, *A History of the Arab Peoples*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991
——, *Islam in European Thought*, Cambridge: Cambridge University Press, 1991
Housley, Norman, *The Later Crusades: From Lyons to Alcazar 1274–1580*, Oxford: Oxford University Press, 1992
Houston, R. A., *Literacy in Early Modern Europe: Culture and Education 1500–1800*, Harlow: Longman, 2002
Howard, Deborah, *Venice and the East*, New Haven, CT: Yale University Press, 2000
Hoyland, Robert G., *Seeing Islam as Others Saw it: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam*, Princeton, NJ: Darwin Press, 1997

Hyatt Major, A., *People and Prints: A Social History of Printed Pictures*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1971

Ibn Khaldun, *The Muqaddimah, An Introduction to History*, trans. Franz Rosenthal, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1958

Irving, Washington, *Chronicle of the Conquest of Granada from the mss. of Fray Antonio Agapida*, (author's rev. edn), Philadelphia, PA: David McKay, 1894

Isaevych, Iaroslav, 'The Book Trade in Eastern Europe in the Seventeenth and Early Eighteenth Centuries' in John Brewer and Roy Porter, *Consumption and the World of Goods*, vol. 1, London: Routledge, 1993

Itzkovitz, Norman, 'Eighteenth Century: The Ottoman Realities', *Studia Islamica* XVI (1962)

——, *The Ottoman Empire and Islamic Tradition*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1980

Ivanoff, J., *Les Bulgares devant le Congrès de la Paix: Documents historiques, ethnographiques et diplomatiques*, 2nd edn, Berne: Paul Haupt, 1919

Ivic, Pavle and Pesikan, Mitar, *'Serbian Printing' in the History of Serbian Culture*, Edgware: Porthill Publishers, 1999

Ivins, W. M. Jr., *Prints and Visual Communication*, London: Routledge and Kegan Paul, 1953

Jackson, Gabriel, *The Making of Medieval Spain*, London: Thames and Hudson, 1972

Jandara, J. W., 'Developments in Islamic Warfare: The Early Islamic Conquests', *Studia Islamica* 64 (1986)

Jankowski, James and Gershoni, Israel (eds), *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East*, New York, NY: Columbia University Press, 1997

Jansen, Johannes, *The Neglected Duty: The Creed of Sadat's Assassins and Islamic Resurgence in the Middle East*, New York, NY: Macmillan, 1986

Jardine, Lisa, *Worldly Goods: A New History of the Renaissance*, London: Macmillan, 1996

Jelavich, Barbara, *History of the Balkans: Eighteenth and Nineteenth Centuries*, 2 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1983

Jephson, R. Mountjoy, *With the Colours* or *The Piping Times of Peace*, London: George Routledge and Sons, 1880

Johns, Adrian, *The Nature of the Book: Print and Knowledge in the Making*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1998

Johnson, J. T., *The Holy War Idea in Western and Islamic Traditions*, University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1997

Johnson, J. T. and Kelsay, John (eds), *Cross, Crescent and Sword: The Justification and Limitations of War in Western and Islamic Tradition*, New York, NY: Greenwood, 1990

——, *Just War and Jihad: Historical and Theoretical Perspectives on War and Peace in Western and Islamic Traditions*, New York NY: Greenwood, 1991

Jones, W. R., 'The Image of the Barbarian in Medieval Europe', *Comparative Studies in Society and History* 13 (1971)

Joseph, John E. and Taylor, Talbot J. (eds), *Ideologies of Language*, London: Routledge, 1990

Justice, David, *The Semantics of Form in Arabic, in the Mirror of European Languages*, Amsterdam and Philadelphia, PA: John Benjamins Publishing Company, 1987

Kabbani, Rana, *Europe's Myths of Orient: Devise and Rule*, Basingstoke: Macmillan, 1986
Kaegi, Walter E., *Byzantium and the Early Islamic Conquests*, Cambridge: Cambridge University Press, 1992
Kafadar, Cemal, *Between Two Worlds: The Construction of the Ottoman State*, Berkeley, CA: University of California Press, 1995
Kahf, Mohja, *Western Representations of the Muslim Woman: From Termagant to Odalisque*, Austin, TX: University of Texas Press, 1999
Karpat, K. H. (ed.), *The Turks of Bulgaria: The History, Culture and Political Fate of Minority*, Istanbul: Isis Press, 1990
Kedar, Benjamin Z., *Crusade and Mission: European Approaches towards the Muslims*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984
Kedar, B. Z., Mayer, H. E. and Smail, R. C., *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem*, Jerusalem: Yad Izhak, 1982
Keen, M. H., *The Laws of War in the Late Middle Ages*, London: Routledge and Kegan Paul, 1965
Kelsay, John, *Islam and War: A Study in Comparative Ethics*, Louisville, KY: John Knox Press, 1993
Kennedy, Hugh, *Muslim Spain and Portugal: A Political History*, Harlow: Longman, 1996
Kepel, Gilles, *The Revenge of God: The Resurgence of Islam, Christianity and Judaism in the Modern World*, trans. Alan Braley, Cambridge: Polity Press, 1994
Khalidi, Tarif, *Arabic Historical Thought in the Classical Period*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Khan, Gabriel Mandel, *Arabic Script: Styles, Variants and Calligraphic Adaptations*, trans. Rosanna M. Giammanco Frongia, New York, NY: Abbeville Press, 2001
Khoury, Adel-Théodore, *Polémique byzantine contre l'Islam: VIIIe–XIIIe siècles*, Leiden: E. J. Brill, 1972
Kiernan, V. G., *The Lords of Human Kind: European Attitudes to the Outside World in the Imperial Age*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1969
Kiraly, Bela K. and Stokes, Gale (eds), *Insurrections, Wars and the Eastern European Crisis in the 1870s*, Boulder, CO: Social Science Monographs, 1985
Klemlogel, Cornelia, *Exotik-Erotik: Zur Geschichte des Turkenbildes in der deutschen Literatur der frühen Neuzeit (1453–1800)*, Frankfurt am Main: Peter Lang, 1989
Kortepeter, C. M., *Ottoman Imperialism during the Reformation: Europe and the Caucasus*, New York, NY: New York University Press, 1972
Kress, Gunther and van Leeuwen, Theo, *Reading Images: The Grammar of Visual Design*, London: Routledge, 1996
Kritzeck, James, *Peter the Venerable and Islam*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1964
Kunt, Metin and Woodhead, Christine (eds), *Suleyman the Magnificent and His Age: The Ottoman Empire and the Early Modern World*, London: Longman, 1995
Lacan, Jacques, *Ecrits*, trans. Alan Sheridan, London: Routledge, 2001
Ladero Quesada, Miguel Angel, *Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel I*, Valladolid: Instituto 'Isabel la Católica' de Historia Eclesiástica, 1969

——, *Granada: Historia de un país islámico (1232–1571)*, 2nd edn, Madrid: Editorial Gredos, 1979
——, *Los Reyes Católicos: La corona y la unidad de España*, Madrid: Asociación Francisco López de Gomara, 1989
——, 'El Islam, realidad e imaginación en la Baja edad Media castellana' in *Las Utopías*, Madrid: Casa de Velásquez, 1990
Lambert, Malcolm, *Mediaeval Heresy: Popular Movements from the Gregorian Reform to the Reformation*, Oxford: Blackwell, 1992
Lambton, A. K. S., 'A Nineteenth Century View of Jihad', *Studia Islamica* XXXII (1970)
Lampe, John R., *Yugoslavia as History: Twice there was a Country*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000
Landau, Jacob M., *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organisation*, Oxford: Clarendon Press, 1994
Lane Poole, Stanley, *The Moors in Spain*, New York, NY, G. P. Putnam's Sons, 1911
Lapeyre, Henri, *Géographie de l'Espagne morisque*, Paris: SEVPEN, 1959
Lapidus, Ira M., *A History of Islamic Societies*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988
Lapiedra Gutiérrez, Eva, *Como los musulmanes llamaban a los cristianos hispanicos*, Alicante: Instituto de Cultura 'Juan Gil-Albert', 1997
Laufer, Roger, 'L'Espace visuel du livre ancien', *Revue Française du Livre* 16 (1977)
Laursen, John Christian and Nederman, Cary J., *Beyond the Persecuting Society: Religious Toleration before the Enlightenment*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1998
Lea, Henry Charles, *The Moriscos of Spain. Their Conversion and Expulsion*, London: Bernard Quaritch, 1901
Lehrstuhl für Türkische Sprache, Geschichte und Kultur (ed.), *The Beginnings of Printing in the Near and Middle East: Jews, Christians, and Muslims*, Wiesbaden: Harassowitz Verlag, 2001
Lévi-Provencal, E., *La Civilizacion Arabe en España*, 4th edn, Madrid: Espasa Calpe, 1977
Lewis, A. R., *Nomads and Crusaders 1000–1368*, Bloomington, IN: Indiana University Press, 1988
Lewis, Bernard, 'Ottoman Observers of Ottoman Decline', *Islamic Studies* 1 (March 1962)
——, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire*, Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1963
——, *The Muslim Discovery of Europe*, New York, NY: W. W. Norton, 1982
——, *The Political Language of Islam*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1988
——, *Islam in History: Ideas, People and Events in the Middle East*, Chicago, IL: Open Court, 1993
——, *The Multiple Identities of the Middle East*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1998
——, *What Went Wrong: Western Impact and Middle Eastern Response*, New York, NY: OUP, 2001
Liss, Peggy K., *Isabel the Queen*, Oxford: Oxford University Press, 1992
Lobrichon, Guy, *1099: Jérusalem conquise*, Paris: Editions du Seuil, 1998

Lomax, Derek W., *The Reconquest of Spain*, London: Longman, 1978
Lourie, Elena, *Crusade and Colonisation: Muslims, Christians and Jews in Medieval Aragon*, Aldershot: Variorum, 1990
Lovell, Mary S., *Rebel Heart: The Scandalous Life of Jane Digby*, New York, NY: W. W. Norton, 1995
Lowe, Lisa, *Critical Terrains: French and British Orientalisms*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991
Lynch, John, *Spain 1516–1598: From Nation State to World Empire*, Oxford: Blackwell, 1991
Lyons, Malcolm C., 'The Crusading Stratum in the Arabic Hero Cycles' in M. Shatzmiller (ed.), *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden: E. J. Brill, 1993
——, 'The Land of War: Europe in the Arab Hero Cycles' in Angeliki E. Laiou and Roy Parviz Mottahedeh (eds), *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, Washington, DC: Dumbarton Oaks, 2001
Mabro, Judy, *Veiled Half-Truths: Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women*, London: I. B. Tauris, 1991
Macarthy, Justin, *Death and Exile: The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims 1821–1922*, Princeton, NJ: Darwin Press, 1995
MacKay, Angus, *Spain in the Middle Ages: From Frontier to Empire 1000–1500*, London: Macmillan, 1977
Mackenzie, G. Muir and Irby, A. P., *Travels in the Slavonic Provinces of Turkey in Europe with a Preface by the Right Honourable W. E. Gladstone, MP*, 2 vols, 2nd edn rev., London: Daldy Isbister and Co., 1877
Madigan, Daniel A., *The Qur'an's Self-Image: Writing and Authority in Islam's Scripture*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001
Magris, Claudio, *Danube: A Sentimental Journey from the Source to the Black Sea*, trans. Patrick Creagh, London: HarperCollins, 1990
Maier, Christopher T., *Crusade Propaganda and Ideology: Model Sermons for the Preaching of the Cross*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000
Makdisi, Saree, *Romantic Imperialism: Universal Empire and the Culture of Modernity*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998
Makdisi, Ussama, *The Culture of Sectarianism: Community, History and Violence in Nineteenth-Century Lebanon*, Berkeley, CA: University of California Press, 2000
Malcolm, Noel, *Bosnia: A Short History*, London: Macmillan, 1994
——, *Kosovo: A Short History*, London: Macmillan, 1998
Manguel, Alberto, *A History of Reading*, London: HarperCollins, 1996
Mann, Vivian B. and Glick, Thomas F., *Convivencia: Jews, Muslims and Christians in Medieval Spain*, New York: George Braziller in association with The Jewish Museum, New York, 1992
Manning, John, *The Emblem*, London: Reaktion Books, 2002
Marcus, George E. and Fischer, Michael M. J., *Anthropology as Cultural Critique: An Experimental Moment in the Human Sciences*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986
Marker, Gary, *Publishing, Printing and the Origins of Intellectual Life in Russia 1700–1800*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985

Marshall, Christopher, *Warfare in the Latin East 1192–1291*, Cambridge: Cambridge University Press, 1992
Martin, Henri-Jean, *The French Book: Religion, Absolutism and Readership 1585–1715*, Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1996
Martinez-Gros, Gabriel, *Identité Andalouse*, Paris: Sindbad, 1997
Marx, Robert F., *The Battle of Lepanto 1571*, Cleveland, OH: World Publishing Company, 1966
Mas, Albert, *Les Turcs dans la littérature espagnole du Siècle d'Or*, 2 vols, Paris: Centre de recherches hispaniques, Institut d'études hispaniques, 1967
Masters, Bruce, *Christians and Jews in the Ottoman Arab World: The Roots of Sectarianism*, Cambridge: Cambridge University Press, 2001
Matar, Nabil, *Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery*, New York, NY: Columbia University Press, 1999
Matvejevic, Predrag, *Mediterranean: A Cultural Landscape*, trans. Michael Henry Heim, Berkeley, CA: University of California Press, 1999
Mazower, Mark, *The Balkans*, London: Weidenfeld and Nicolson, 2000
McGarry, J. and O'Leary, B. (eds), *The Politics of Ethnic Conflict Regulation*, London: Routledge, 1993
Mellinkoff, Ruth, *The Mark of Cain*, Berkeley, CA: University of California Press, 1981
——, *Outcasts: Signs of Otherness in Northern European Art of the Late Middle Ages*, 2 vols, Berkeley, CA: University of California Press, 1994
Mertus, Julie A., *Kosovo: How Myths and Truths Started a War*, Berkeley, CA: University of California Press, 1999
Meserve, Margaret, 'The Origin of the Turks: A Problem in Renaissance Historiography', The Warburg Institute, University of London, unpublished PhD dissertation, 2001
Messick, Brinkley, *The Calligraphic State: Textual Domination and History in a Muslim Society*, Berkeley, CA: University of California Press, 1993
Metlitzki, Dorothee, *The Matter of Araby in Medieval England*, New Haven, CT: Yale University Press, 1977
Meyerson, Mark D., *The Muslims of Valencia in the Age of Fernando and Isabel: Between Co-existence and Crusade*, Berkeley, CA: University of California Press, 1991
Michel, Christian, 'Une Entreprise de gravure à la veille de la révolution: Le Tableau général de l'empire Othoman', *Nouvelles de l'Estampe*, 84 (1985)
——, *Charles-Nicolas Cochin et le livre illustré au XVIIIe siècle, avec un catalogue raisonné des livres illustrés par Cochin 1735–1790*, Geneva: Librairie Droz, 1987
Miller, Susan Gilson (ed. and trans.), *Disorientating Encounters: Travels of a Moroccan scholar in France in 1845–1846, The Voyage of Muhammad As-Saffar*, Berkeley, CA: University of California Press, 1992
Miller, William Lee, *Lincoln's Virtues: An Ethical Biography*, New York, NY: Vintage Random House, 2003
Miquel, André, *Du Monde et de l'étranger: Orient, an 1000*, Paris: Sindbad, 2001
Mishew, Dimitur, *The Bulgarians in the Past: Pages from Bulgarian Cultural History*, Lausanne: Librairie Centrale des Nationalités, 1919
Mitchell, Timothy, *Colonising Egypt*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988

Mitchell, W. J. T., *Iconology: Image, Text, Ideology*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986
——, *Picture Theory*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1994
—— (ed.), *The Language of Images*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1980
Monroe, James T., *Islam and the Arabs in Spanish Scholarship*, Leiden: E. J. Brill, 1979
Moore, R. I., *The Formation of a Persecuting Society: Power and Deviance in Western Europe 950–1250*, Oxford: Basil Blackwell, 1987
Morris, Edmund, *The Rise of Theodore Roosevelt*, New York, NY: Modern Library, 2001
——, *Theodore Rex*, New York, NY: Modern Library, 2003
Morris, Pam (ed.), *The Bakhtin Reader: Selected Writings of Bakhtin, Medvedev, Voloshinov*, London: Arnold, 1994
Moser, Stephanie, *Ancestral Images: The Iconography of Human Origins*, Stroud: Sutton Publishing, 1998
Mraz, Gerda and Mraz, Gottfried, *Maria Theresia: Ihr Leben und ihre Zeit in Bilden und Dokumenten*, Munich: Süddeutsche Verlag, 1979
Muldoon, J., *Popes, Lawyers and Infidels: The Church and the Non-Christian World 1250–1550*, Liverpool: Liverpool University Press, 1979
Musée de la Corse, *Moresca: Images et mémoires du Maure*, Ajaccio: Musée de la Corse, 1998
Musper, Heinrich T., 'Xylographic Books' in Hendrik D. L. Vervliet (ed.), *The Book Through Five Thousand Years*, London: Phaidon, 1972
Nancy, Jean-Luc and Lacoue-Labarthe, Philippe, *The Title of the Letter: A Reading of Lacan*, Albany, NY: State University of New York Press, 1992
Naphy, William G. and Roberts, Penny, *Fear in Early Modern Society*, Manchester: Manchester University Press, 1997
Necipoglu, G., *Architecture, Ceremonial and Power: The Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, Boston, MA: MIT Press, 1991
Neill, Michael, '"Mullattos", "Blacks" and "Indian Moors": Othello and Early Modern Constructions of Human Difference', *Shakespeare Quarterly* 49 (Winter 1998)
Nirenberg, David, *Communities of Violence: Persecution of Minorities in the Middle Ages*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996
Norris, David A., *In the Wake of the Balkan Myth: Questions of Identity and Modernity*, Basingstoke: Macmillan, 1999
Norris, H. T., *Islam in the Balkans: Religion and Society between Europe and the Arab World*, London: Hurst and Company, 1993
Norwich, John Julius, *A History of Venice*, Harmondsworth: Penguin, 1983
——, *A Short History of Byzantium*, Harmondsworth: Penguin, 1998
O'Callaghan, Joseph F., *A History of Medieval Spain*, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1975
Olson, David R., *The World on Paper: The Conceptual and Cognitive Implications of Writing and Reading*, Cambridge: Cambridge University Press, 1996
Ong, Walter J., *Orality and Literacy: The Technologizing of the Word*, London: Routledge, 1982

Parker, Geoffrey, *The Military Revolution: Military Innovation and the Rise of the West 1500–1800*, 2nd edn, Cambridge: Cambridge University Press, 1996
Patton, Mark, *Islands in Time: Island Sociogeography and Mediterranean Prehistory*, London: Routledge, 1996
Pedersen, Johanes, *The Arabic Book*, trans. Geoffrey French, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1984
Peirce, Leslie P., *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, New York, NY: Oxford University Press, 1993
Peristiany, J. G. (ed.), *Honour and Shame*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1965
Peters, Edward (ed.), *Christian Society and the Crusades 1198–1229*, Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1971
Peters, Rudolph, *Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History*, The Hague: Mouton, 1979
Petkov, Kiril, *Infidels, Turks and Women: The South Slavs in the German Mind c. 1400–1600*, Frankfurt am Main: Peter Lang, 1997
——, 'The Rotten Apple and the Good Articles: Orthodox, Catholics, and Turks in Philippe de Mézières' Crusading Propaganda', *Journal of Medieval History* 23, 3 (1997) 255–70
Petrovich, Michael Boro, *A History of Modern Serbia 1804–1918*, 2 vols, New York, NY: Harcourt Brace Jovanovich, 1976
Philips, John, *The Reformation of Images: Destruction of Art in England 1535–1660*, Berkeley, CA: University of California Press, 1973
Philips, Jonathan (ed.), *The First Crusade*, Manchester: Manchester University Press, 1997
Pi-Sunyer, Orio, 'The Historiography of Américo Castro: An Anthropological Explanation', *Bulletin of Hispanic Studies* 49 (1972)
Pinson, Mark (ed.), *The Muslims of Bosnia Herzegovina: Their Historic Development from the Middle Ages to the Dissolution of Yugoslavia*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996
Planhol, Xavier de, *Minorités en Islam: Géographie politique et société*, Paris: Flammarion, 1997
Porch, Douglas, *The Conquest of Morocco*, New York, NY: Knopf, 1983
——, *The Conquest of the Sahara*, London: Jonathan Cape, 1985
Porterfield, Todd, *The Allure of Empire: Art in the Service of French Imperialism*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998
Powell, J. M. (ed.), *Muslims under Latin Rule 1100–1300*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990
Power, Daniel and Standen, Naomi (eds), *Frontiers in Question: Eurasian Borderlands 700–1700*, Basingstoke: Macmillan Press, 1999
Prawer, Joshua, *The Crusaders' Kingdom: European Colonialism in the Middle Ages*, New York, NY: Praeger, 1972
——, *The World of the Crusaders*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1972
Prescott, William H., *The History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic*, London: Swan Sonnenschein, Le Bas and Lowrey, 1886
Preston, Cathy Lynn and Preston, Michael J., *The Other Print Tradition: Essays on*

Chapbooks, Broadsides and Related Ephemera, New York, NY: Garland Publishing, 1995

Quataert, Donald, 'Clothing, Laws, State, and Society in the Ottoman Empire', *International Journal of Middle East Studies* 29:3 (1997)

——, *The Ottoman Empire 1700–1922*, Cambridge: Cambridge University Press, 2000

Rabbah, Saddek, *L'Islam dans l'imaginaire occidental: Aux sources des discours*, Beirut: Les Editions Al-Bouraq, 1998

Ralston, David B., *Importing the European Army: The Introduction of European Military Techniques and Institutions into the Extra-European World 1600–1914*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1996

Read, Jan, *The Moors in Spain and Portugal*, London: Faber, 1974

Reglá, Juan, *Estudios sobre los moriscos*, Valencia: Universidad de Valencia, 1971

Reilly, Bernard F., *The Contest of Christian and Muslim Spain 1031–1157*, Oxford: Basil Blackwell, 1995

Renard, John, *Islam and the Heroic Image: Themes in Literature and the Visual Arts*, Columbia, SC: University of South Carolina Press, 1993

Rhodes, Neil and Sawday, Jonathan (eds), *The Renaissance Computer*, London: Routledge, 2000

Riches, David (ed.), *The Anthropology of Violence*, Oxford: Basil Blackwell, 1986

Riley-Smith, Jonathan, *The Crusades: A Short History*, New Haven, CT: Yale University Press, 1987

——, *What were the Crusades?* 2nd edn, Basingstoke: Macmillan, 1992

——, *The First Crusade and the Idea of Crusading*, London: Athlone Press, 1993

——, *The First Crusaders 1095–1131*, Cambridge: Cambridge University Press, 1997

—— (ed.), *The Crusades: Idea and Reality 1095–1274*, London: Edward Arnold, 1981

Rodgers, William L., *Naval Warfare under Oars, 4th to 16th Centuries: A Study of Strategy, Tactics and Ship Design*, Annapolis, MD: United States Naval Institute, 1939

Rodinson, Maxime, 'The Western Image and Western Studies of Islam' in J. Schacht and C. E. Bosworth (eds), *The Legacy of Islam*, 2nd edn, Oxford: Oxford University Press, 1974

——, *Europe and the Mystique of Islam*, trans. Roger Veinus, Seattle, WA: University of Washington Press, 1987

Roland, A., 'Secrecy, Technology and War: Greek Fire and the Defense of Byzantium 678–1204', *Technology and Culture* 33 (1992)

Rosell, Cayetano, *Historia de combate naval de Lepanto y juicio de la importancia y consecuencias de aquel suceso* (1853), rep. Madrid: Editora Nacional, 1971

Rosen, Lawrence, *The Culture of Islam: Changing Aspects in Contemporary Muslim Life*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 2002

Rotter, Ekkehart, *Abendland und Sarazenen: Das okzidentale Araberbild und seine Entstehung im Frühmittelalter*, Berlin: Walter de Gruyter, 1986

Rouillard, Clarence Dana, *The Turk in French History, Thought and Literature 1520–1660*, Paris: Bouvin, 1941

Rubia Barcia, José (ed.), *Américo Castro and the Meaning of Spanish Civilization*, Berkeley, CA: University of California Press, 1976
Rubin, Uri and Wasserstein, David S. (eds), *Dhimmis and Others: Jews and Christians and the World of Classical Islam*, Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 1997
Runciman, Steven, *A History of the Crusades*, 2 vols, Cambridge: Cambridge University Press, 1951
——, *Byzantine Civilization*, (1933) London: Methuen, 1961
Russell, F. H., *The Just War in the Middle Ages*, Cambridge: Cambridge University Press, 1975
Safran, Janina, 'Identity and Differentiation in Ninth-Century Al-Andalus', *Speculum* 76 (2001), 573–98
Sahas, Daniel J., *John of Damascus on Islam: 'The Heresy of the Ishmaelites'*, Leiden: E. J. Brill, 1972
Said, Edward W., *Orientalism*, London: Routledge and Kegan Paul, 1978
——, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine how We See the Rest of the World*, London: Routledge and Kegan Paul, 1981
Sanchez-Albornóz, Claudio, *El Islam de España y el Occidente*, Madrid: Espasa Calpe, 1974
——, *Spain: A Historical Enigma*, trans. Colette Joly Dees and David Sven Reher, 2 vols, Madrid: Fundación Universitaria Española, 1975
Saunders, J. J., *A History of Medieval Islam*, London: Routledge, 1965
——, *Aspects of the Crusades*, Christchurch, NZ: Whitcombe and Tombs, 1968
Schama, Simon, *Dead Certainties: Unwarranted Speculations*, London: Granta, 1991
Schein, Sylvia, *Fideles Crucis: The Papacy, the West, and the Recovery of the Holy Land 1274–1314*, Oxford: Clarendon Press, 1991
Schimmel, Annemarie, *Calligraphy and Islamic Culture*, New York, NY: New York University Press, 1984
——, *Islamic Names*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1989
Schwartz, Stuart B. (ed.), *Implicit Understandings: Observing, Reporting and Reflecting on the Encounters between Europeans and Other Peoples in the Early Modern Era*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994
Scribner, R. W., *For the Sake of the Simple Folk: Popular Propaganda for the German Reformation*, Cambridge: Cambridge University Press, 1981
Sells, Michael A., *The Bridge Betrayed: Religion and Genocide in Bosnia*, Berkeley, CA: University of California Press, 1998
Semaan, Khalil I. (ed.), *Islam and the Medieval West: Aspects of Intercultural Relations*, Albany, NY: State University of New York Press, 1980
Sénac, Philippe, *L'Occident médiéval face à l'Islam: L'Image de l'autre* (2nd edn), Paris: Flammarion, 2000
Setton, Kenneth M., 'Lutheranism and the Turkish Peril', *Balkan Studies* 3 (1962)
——, *Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century*, Philadelphia, PA: American Philosophical Society, 1991
——, *Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom*, Philadelphia, PA: American Philosophical Society, 1992
—— (ed.), *A History of the Crusades* (vol. 1, *The First Hundred Years*, ed. M. W. Baldwin, 1955; vol. 2, *The Later Crusades*, ed. R. L. Wolff, 1962; vol. 3, *The*

Fourteenth and Fifteenth Centuries, ed. H. W. Hazard, 1975; vol. 4, *The Art and Architecture of the Crusader States*, ed. H. W. Hazard, 1977), 2nd edn, Madison, WI: University of Wisconsin Press 1969–89

Shaheen, Jack G., *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People*, Northampton, MA: Interlink, 2001

Shahin, Emad Eldin, *Through Muslim Eyes: M. Rashid Rida and the West*, Herndon, VA: International Institute of Islamic Thought, 1993

Shannon, Richard, *Gladstone and the Bulgarian Agitation 1876*, London: Thomas Nelson, 1963

Sharafuddin, Mohammed, *Islam and Romantic Orientalism: Literary Encounters with the Orient*, London: I. B. Tauris, 1996

Sherrard, Philip, *Constantinople: Iconography of a Sacred City*, Oxford: Oxford University Press, 1965

Sherwin-White, A. N., *Racial Prejudice in the Roman Empire*, Cambridge: Cambridge University Press, 1967

Shlain, Leonard, *The Alphabet and the Goddess – Male Words and Female Images: The Conflict Between Word and Image*, London: Allen Lane, 1998

Shouby, E., 'The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs', *Middle East Journal* 5 (1951)

Siberry, Elizabeth, *Criticism of Crusading: 1095–1274*, Oxford: Clarendon Press, 1985

Sicroff, Albert A., *Les Controverses des statuts de 'Pureté de Sang' en Espagne du XVe au XVIIe siècle*, Paris: Didier, 1960

Sievernich, Gereon and Budde, Hendrik (eds), *Europa und der Orient 800–1900*, Berlin: Bertelsmann, 1989

Sivan, Emmanuel, *Islam et la croisade: Idéologie et la croisade dans les réactions musulmanes aux croisades*, Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, 1968

Small, R. C., *Crusading Warfare 1097–1193*, Cambridge: Cambridge University Press, 1956

Smith, Colin (and Melville, C. H.), *Christians and Moors in Spain*, 3 vols, Warminster: Aris and Phillips, 1988

Smyth, Warington W. MA, *A Year with The Turks: Or Sketches of Travel in the European and Asiatic Dominions of the Sultan*, New York, NY: Redfield, 1854

Southern, Richard, *Western Views of Islam in the Middle Ages*, Cambridge, MA: Harvard University Press, 1962

Stavrianos, L. S., *The Balkans since 1453*, New York: Holt Rhinehart and Winston, 1958

St Clair, S. G. B. and Brophy, Charles A., *Twelve Years' Study of the Eastern Question in Bulgaria, Being a Revised Edition of 'A Residence in Bulgaria'*, London: Chapman and Hall, 1877

St Clair, William, *That Greece Might Still be Free: The Philhellenes in the War of Independence*, London: Oxford University Press, 1972

Stephanove, Constantine, *Bulgarians and Anglo-Saxondom*, Berne: Paul Haupt, 1919

Stirling-Maxwell, William, *Don John of Austria, or Passages from the History of the Sixteenth Century 1547–1578*, 2 vols, London: Longmans and Co., 1883

Stocchi, Sergio, *L'Islam nelle stampe*, Milan: BE-MA Editore, 1988
Stoianovich, Traian, *Balkan Worlds: The First and Last Europe*, Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1994
Stoye, John, *Marsigli's Europe 1680–1730: The Life and Times of Luigi Fernandino Marsigli, Soldier and Virtuoso*, New Haven, CT: Yale University Press, 1994
——, *The Siege of Vienna* (rev. edn), Edinburgh: Birlinn, 2000
Strickland, Debra Higgs, *Saracens, Demons, and Jews: Making Monsters in Medieval Art*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003
Sugar, Peter F., *Industrialization of Bosnia Hercegovina 1878–1918*, Seattle, WA: University of Washington Press, 1963
——, *South Eastern Europe under Ottoman Rule 1354–1804*, Seattle, WA: University of Washington Press, 1977
Suleiman, Yasir, *The Arabic Language and National Identity: A Study in Ideology*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2003
Tanner, Marcus, *Croatia: A Nation Forged in War*, New Haven, CT: Yale University Press, 1997
Temimi, Abdejelil (ed.), *Las Prácticas musulmanas de los moriscos Andaluces 1492–1609*, Zaghouan: Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information, 1989
Tenenti, Alberto, *Piracy and the Decline of Venice 1580–1615*, trans. Janet Pullan and Brian Pullan, Berkeley, CA: University of California Press, 1967
Thompson, James Westfall (ed.), *The Frankfort Book Fair: The Francofordense Emporium of Henri Estienne* (1911), New York, NY: Burt Franklin, 1968
Thomson, H. C., *The Outgoing Turk: Impressions of a Journey through the Western Balkans*, London: William Heinemann, 1897
Throop, Palmer A., *Criticism of the Crusade: A Study of Public Opinion and Crusade Propaganda*, Philadelphia, PA: Porcupine Press, 1975
Todorov, Tzvetan, *Mikhail Bakhtin: The Dialogical Principle*, trans. Wlad Godzich, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1984
——, *The Conquest of America: The Question of the Other*, trans. Richard Howard, New York: HarperPerennial, 1987
——, *The Morals of History*, trans. Alyson Waters, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1995
Todorova, Maria, *Imagining the Balkans*, Oxford: Oxford University Press, 1997
Toomer, G. J., *Eastern Wisdom and Learning: The Study of Arabic in Seventeenth-century England*, Oxford: Clarendon Press, 1996
Twyman, Michael, *The British Library Guide to Printing: History and Techniques*, London: The British Library, 1998
Unamuno, Miguel de, *En torno al casticismo*, Madrid: Biblioteca Nueva, 1996
Usamah ibn-Munqidh, *An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades: Memoirs of Usamah ibn-Munqidh (Kitab al-itibar)*, trans. Philip K. Hitti, New York, NY: Columbia University Press, 2000
van Gelder, Geert Jan and de Moor, Ed, 'The Middle East and Europe: Encounters and Exchanges', *Orientations* 1, Amsterdam: Rodopi, 1992
Van Sertima, Ivan (ed.), *The Golden Age of the Moor*, New Brunswick, NJ: Transaction Books, 1992

Vaughan, Dorothy, *Europe and the Turk: A Pattern of Alliances 1350–1700*, Liverpool: Liverpool University Press, 1954
Versteegh, Kees, *The Arabic Language*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1998
Verville, Hendrik D. L., *Post Incunabula and their Publishers in the Low Countries*, The Hague: Martinus Nijhoff, 1978
Vespertino Rodriguez, Antonio (ed.), *Leyendas aljamiadas y moriscos sobre personajes bíblicos*, Madrid: Gredos, 1983
Veyne, Paul, *Writing History*, trans. Mina Moore-Rinvolucri, Middletown, CT: Wesleyan University Press, 1984
Voet, Leon, *The Golden Compasses: A History and Evaluation of the Printing and Publishing Activities of the Officina Plantina at Antwerp*, 2 vols, London: Routledge and Kegan Paul, 1972
Volney, C. F., *Travels in Syria and Egypt during the Years 1783, 1784, and 1785*, 2 vols, Perth: 1801
Vryonis, Speros Jr, *Byzantium: Its Internal History and Relations with the Muslim World*, London: Variorum, 1971
——— (ed.), *Islam and Cultural Change in the Middle Ages*, Wiesbaden: Otto Harassowitz, 1975
Wachtel, Andrew Baruch, *Making a Nation, Breaking a Nation: Cultural Politics in Yugoslavia*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1998
Wagner, Peter, *Reading Iconotexts: From Swift to the French Revolution*, London: Reaktion, 1995
Wagner, Roy, *Symbols that Stand for Themselves*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986
Walsh, Robert, *Narrative of a Journey from Constantinople to England*, London: F. Westley and A. H. Davis, 1828
Wandel, Lee Palmer, *Voracious Idols and Violent Hands: Iconoclasm in Reformation Zurich, Strasbourg and Basel*, Cambridge: Cambridge University Press, 1995
Watt, Tessa, *Cheap Print and Popular Piety 1550–1640*, Cambridge: Cambridge University Press, 1991
Watt, W. M., *The Influence of Islam on Medieval Europe*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1972
———, *Muslim–Christian Encounters: Perceptions and Misperceptions*, London: Routledge, 1991
Watts, Sarah, *Rough Rider in the White House: Theodore Roosevelt and the Politics of Desire*, Chicago, IL: University of Chicago Press, 2003
Weine, Stevan M., *When History is a Nightmare: Lives and Memories of Ethnic Cleansing in Bosnia Herzegovina*, New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1999
Wheatcroft, Andrew, *The Ottomans: Dissolving Images*, London: Penguin, 1995
Whittrow, Mark, *The Making of Orthodox Byzantium 600–1025*, Basingstoke: Macmillan Press, 1996
Wilken, Robert L., *The Land called Holy: Palestine in Christian History and Thought*, New Haven, CT: Yale University Press, 1992
Wills, Gary, *Lincoln at Gettysburg: The Words that Remade America*, New York, NY: Simon and Schuster, 1992

Wolf, Eric R., *Europe and the People Without History*, Berkeley, CA: University of California Press, 1990

Wolf, Kenneth Baxter, *Christian Martyrs in Muslim Spain*, Cambridge: Cambridge University Press, 1988

——, (ed. and trans.), *Conquerors and Chroniclers of Early Mediaeval Spain*, Liverpool: Liverpool University Press, 1990

Wolff, Larry, *Inventing Eastern Europe: The Map of Civilisation on the Mind of the Enlightenment*, Stanford, CA: Stanford University Press, 1994

——, *Venice and the Slavs: The Discovery of Dalmatia in the Age of Enlightenment*, Stanford, CA: Stanford University Press, 2001

Wolff, Philippe, *Western Languages AD 100–1500*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1971

Woodward, Bob, *Bush at War*, New York, NY: Simon and Schuster, 2002

Wortman, Richard S., *Scenarios of Power: Myth and Ceremony in Russian Monarchy*, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995

Yapp, M. E., 'Europe in the Turkish Mirror', *Past and Present*, 137 (Nov. 1992)

Yared, Nazik Saba, *Arab Travellers and Western Civilization*, trans. Sumayya Damluji Shahbandar, rev. and ed. Tony P. Naufal and Jana Gough, London: Saqi Books, 1996

Yates, Timothy, *Christian Mission in the Twentieth Century*, Cambridge: Cambridge University Press, 1994

Yeazell, Ruth Bernard, *Harems of the Mind: Passages of Western Art and Literature*, New Haven, CT: Yale University Press, 2000

Ye'or, Bat, *The Dhimmi: Jews and Christians under Islam*, trans. David Maisel, Paul Fenton and David Littmann, Madison, NJ: Fairleigh Dickinson University Press, 1985

——, *The Decline of Eastern Christianity under Islam. From Jihad to Dhimmitude, Seventh–Twentieth Century*, London: Associated University Presses, 1996

Yerushalmi, Yosef Hayim, *Assimilation and Racial Anti-Semitism: The Iberian and German Models*, New York, NY: Leo Baeck Institute, 1982

Young, Robert, *White Mythologies: Writing History and the West*, London: Routledge, 1990

Zernov, Nicolas, *Eastern Christendom: A Study of the Origin and Development of the Eastern Orthodox Church*, London: Weidenfeld and Nicolson, 1961

Zygulski, Zdzislaw Jr, *Ottoman Art in the Service of the Empire*, New York, NY: New York University Press, 1992

المؤلف فى سطور :

أندرو هويت كروفت

تلقى تعليمه فى مدرسة سان چون بليثرثيد. وفى كريست كوليج. بكامبردج. وجامعة مدريد. وهو مؤلف العديد من الكتب فى التاريخ الحديث الباكر وفى التاريخ، منها العثمانيون (بنجوين ١٩٩٥م) والهابسبورج بنجوين (١٩٩٦). وقد عمل فى كتاب الكفار لمدة تزيد على عشر سنوات وقد أخذه بحثه إلى جميع أنحاء أوربا. وشمال أفريقيا والشرق الأوسط والولايات المتحدة الأمريكية. وقد تُرجمت كتبه السابقة إلى العربية واليونانية والإيطالية والبولندية والبرتغالية. والرومانية والإسبانية والتركية.

وأندرو هويتكروفت يقيم فى أسكتلندا وهو مدير مركز دراسات النشر بجامعة ستيرلينج. حيث يدرس أيضا بقسم الدراسات الإنجليزية .

المترجم فى سطور :

الدكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ متفرغ بجامعة الزقازيق فى تاريخ العصور الوسطى له عدة مؤلفات فى تاريخ الحركة الصليبية. وعصر سلاطين المماليك، والفكر التاريخى، والعلاقات بين المسلمين وأوروبا .

ترجم عددًا كبيرًا من الكتب فى هذه المجالات أيضا. حصل على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٨٣م. وجائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠م، وجائزة الدولة التقديرية سنة ٢٠٠٨م.

التصحيح اللغوى : علا طعمة
الإشـــراف الفنى : حسن كامل